القسم الثالث

صور من البطولة
فى العصر الحديث

فيلسوف شهيد

جيوردانو برونو

هلمَّ بنا إلى إيطاليا ! هلم نخفُّ إلى هذا البلد الجميل لنَلقى إماماً من أئمة الفكر الحر وشهيداً من شهداء الاستبداد . هلم إلى قرية « سكالا » فى أحضان الألب لنرفع التحية إلى هذا الفيلسوف ، الذى جمع الله عليه من جلال الفلسفة ومجد الاستشهاد ما جعل سيرته فى تاريخ البشرية آية تُتلى وتعاد . تعال لتقدِّم إليه باقة من زهر الشكر والإجلال ، عساه يقبلها ويرضى عنها ، عساه يحدثنا حديثاً ينفعنا .

يعرف الناس عن الفلاسفة أنهم جماعة التأمل والهدوء ، وأنهم أكثر الناس هدوءاً وصمتاً، ويعلمون أن المرء إذا كثر حديثه وازداد اضطرابه فى مناكب الأرض فليس حقيقاً أن يُعد فى الفلاسفة وأصحاب الآراء . ولكن برونو لم يكن فيلسوفاً من هذا الطراز ، لم يكن ممن يعجبون بفلسفة الصمت والتأمل ، وخداع الناس بالحركة المقدَّرة والكلام الرزين الذى يخرج من الشفتين وكأنه يخرج من صدع جبل ! وإنما كان علماً على الثورة والاضطراب ، وكان دائم النشاط لا يكف عن العمل والكتابة والمجادلة والاجتماع والإنكار ، وكان كثير الأعداء حتى كأن به ولعاً بالخصو مة ، وميلاً إلى الصراع العنيف .

وما قولك فى إنسان كان كل كتاب له إعلانَ حرب أو إيذانا بمعركة ؟ وما ظنك فى إنسان كانت الأيام تضيف إليه الأعداء فى غير حساب ، وتحاربه كأن لها عنده ثأراً قديماً ؟ أحسب أن حديثه سيحمل إلى أصحابنا الذين لا يفهمون من مظاهر العلماء غير صمت المدعى ، وجدال المجادل ـ الذى يتكلم ليقال إنه متكلم ـ لوناً جديداً من أصحاب الأفكار وقادة الرأى لم يكن يطوف بخيالهم . سيعرفون أن الصمت وحده لا يعنى العالم ، وأن الذهول أو التذاهل لا يعنى الفلسفة ، وأن الكلام فى كل موضوع من غير علم أو درس

لا يسمح للإنسان بالانتساب إلى هذا الفرع الجليل من فروع المعرفة الإنسانية . وإنما العلم الحق هو أن تبحث وتنقب حتى تنتهى إلى رأى ، وأن تؤمن بالذى تعتقد أنه الحق ، وأن تنافح عنه ما استطعت المنافحة ، وأن تكون أنت ورأيك شيئاً واحداً ، تعيشان معاً ، أو تذهبان إلى النار معاً .

* * *

ذلك عصر استيقظت فيه الإنسانية بعد طول سبات ، فأخذت تفتح عينيها وتنظر نظر الدهش الذى لاتصافح عيناه إلا جديداً عليه غير مألوف لديه ، وتدبر فكرها فى كل ما يحيط بها ، وتطيل التفكير فى شأنه ، وتتعجب كيف لم تفكر فيه قبل ذلك ، وكيف لم تلمس هذه الحقائق التى لا تحتمل الشك إلا الساعة : هذا جاليليو يخترع منظاراً وينظر فيه ثم يقول : « يا قوم ! إن أرضكم تدور حول هذه الشمس ، وإن هذه النجوم كلها لا تدور حول الأرض كما تحسبون ! » . وهذا كوبرنيق يقول : « أحسبتم الأرض بساطاً ممدوداً ؟.. إنما هى مستديرة كالكرة أو كهذا القمر الذى تبصرون ! » . وهذا إرازمس يهيب بالناس : « أتلتمسون العيش فى الطبيعة الطلقة الواسعة الرحاب .. فى هذا الجبل أو فى تلك الغابة أو فى هذا الروض الأنيق ! .. » .

وتتوالى هذه الصيحات وأمثالها من كل مكان وفى كل صقع ، وتتردد أصداؤها فى الأفئدة ، ويؤمن بها فريق ويتنكر لها فريق : يؤمن بها ذوو الطبائع الصاحية والنفوس الطامحة إلى كل ماهو حسن وكل ما هو حر وكل ماهو حق . ويتنكر لها أولئك الذين يحرصون على كل ما هو قائم راهن ، لأنهم يفيدون منه ، ويصيبون منه لأنفسهم خيراً ، وأولئك الذين ران على نفوسهم الجمود ، وتراكم عليها غبار القرون حتى عادوا هم والتراب شيئا واحداً ، وأولئك الذين يحسدون كل صاحب فكرة على ما أوتيه من رأى ، يرون أن كل رأى لم يصدر عنهم فهو خطأ ! .

واشتبكت المعركة بين الطرفين ، ولم تكن القوى فيها متكافئة ولا متقاربة . لأن أنصار القديم كانوا أقوياء تؤيدهم الكنيسة ويؤيدهم جمود الناس الشائع ، ويؤيدهم أصحاب

المنافع ، وهم كثيرون . وأما أنصار الجديد فقلة من ذوى الجرأة ، وأصحاب الإيمان فى الإنسانية وحقها فى التقدم والسير إلى الأمام ، وآراؤهم بعدُ موضع جدال لم يستقر عامة الناس فى أمرها إلى القول الحق ، وربما كان هناك من يؤيدهم ، ولكنهم يخشون بأس الكنيسة ورجالها ، فهم يزهدون فى أفكارهم ويطلبون العافية .

ذلك كان عصر النهضة الأوربية ، عصر الصراع المحتدم بين عالم قديم وعالم جديد يتبدى كما تتبدى معالم الأرض لراكب السفينة من بعيد : أشباحاً مختلطة يكسوها ضباب . ولم يكن من الميسور أن يكون الصراع هادئاً أو منظماً ، لأن أصحاب الجديد متحمسون لايطيقون الصبر على جمود الآخرين ، ولأن أنصار القديم مروَّعون لا يطيقون السكوت على ما يقال ، خوفاً من انتشاره وإيمان الناس به ، وانقلاب الدنيا بعد ذلك عليهم ، وهم لهذا لا يناقشون صاحب الفكر الحر مجادلة من يريد إقناعه، بل مجادلة من يريد إحراجه وإخراجه عن الطور ، ثم التمسك عليه بكلمة هنا وإشارة هناك ، يفسرونها أسوأ تفسير ، ثم يقودون الرجل المسكين إلى حتفه على نطع الجلاد أو على نار السفود ، وقد غاب عنهم أن كلمة الحق لا تفنى وإن فنى صاحبها ، وأن هذه الآراء لا تموت بموت أصحابها ، بل يزيدها استشهاد هؤلاء الأصحاب هيبة وقدسية وجمالاً ، فما هو إلا زمان حتى تكون أفكار المجددين على كل لسان ، وحتى ينهار القديم كله ويختفى تحت أقدام الجديد المنتصر .. ذلك أن الدنيا لا تعرف الجمود ، ولابد لمن يعيش فيها من أن يسير معها ، بل لابد أن يسبقها ، فإذا تخلف عن الركب داسته الأقدام وراح فى عداد السواقط من ركب الإنسانية الخالد الذى لا يوقف سيره إلا علام الغيوب .

كان جيوردانو برونو فى طليعة ركب الحرية الناهض ، وكانت الإنسانية قد قضت قبل ميلاده وميلاد عصره قروناً عشرة توقف خلالها سيرُها إلى الأمام ، وتعثرت خطواتها ولم تعرف إلى أين تتجه ، وسيطرت الكنيسة على مصائر البشرية وسيَّرتها فى غير الوجهة التى تنبغى لها ، فانتكست واحتاج الأمر إلى من يردها إلى الطريق القويم . ثم أخذت تستفيق رويداً من القرن العاشر ، حتى إذا أقبل القرن الخامس عشر فقد فتحت أعينها على نور جديد فى كل ناحية . فى هذه الفترة أقبل جيوردانو برونو على الدنيا فى فجر النهضة الأوربية ، أقبل فى تلك الفترة الزاخرة التى عمر فيها التاريخ البشرى بالعلماء والفلاسفة والفنانين ، فوجد

السابقين والمعاصرين من الفلاسفة يتوارثون فى العلم آراء أدركها البلى ولم تعد مما يرضى العقل الحر أو الفكر السليم .

كان المفكرون والفلاسفة ورجال اللاهوت يؤمنون بأرسطو وكل ما نُسب إلى أرسطو إيمان المطمئن الذى لا يريد أن يجهد نفسه فيما يحرمه اطمئنانه . وليس إلى الشك سبيل فى أن أرسطو عَلَم من أعلام الفكر الإنسانى ، لم يغادر ناحية من نواحى الوجود وما بعد الوجود إلا شغل بها ذهنه ، ولم يشغل ذهنه بشىء إلا وصل فيه إلى غايات لا تدركها المدارك العادية ، ولا شك كذلك فى أنه أنار سبيل الإنسانية بذهنه المتألق باجتهاده المتصل ومحاوراته التى تفيض منطقاً وبساطة ، فلم يزل أصحاب اللاهوت خلال العصور الوسطى يعالجون آراءه ويفسرونها ، ويأخذون منها ما يريدون ويغادرون مالا يريدون ، حتى جعلوا من فلسفته ضرباً من اللاهوت يؤيدهم فيما يريدون ، فإذا انتهوا إلى ذلك فقد قيدوا الناس بهذه الأفكار وجعلوها حدوداً للتفكير الإنسانى لا يجرؤ أحد على أن يتعرض لها بنقد أو مخالفة .

بيد أن أرسطو ـ على اتساع ذهنه ـ قد أصدر من الآراء ما يدعو إلى الاستدراك وما يحتاج المناقضة ، فهو يقول بقدم العالم : أى أنه لم يُخلق فى الزمن كما تقول الأديان جميعاً ؛ وهو يقول بأن الله يعلم علماً كلياً ، فهو لا يعلم الجزئيات ، وعلمه بالأشياء علم كلى ، فهو لايعلم أن الشمس مثلاً ستكسف فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانى ، ولكنه يعلم قانون دورة الشمس والأفلاك الأخرى ، وعلمه لهذا لا يعدو المعرفة بأن الشمس ستكسف مرات عديدات فى دورانها الفريد ، ومثل هذا القول يدعو إلى القول بأن الله لا يعنى بالمخلوقات لأن جزئيات حياتها لا تعنيه ، وفى ذلك معنى عدم الاهتمام ، وذلك ما تنكره الأديان جميعاً.. ولم يتعرض الفلاسفة اللاهوتيون لهذه المواضيع من فلسفة أرسطو إلا على حذر ، وكان لابد من إنسان جرىء حر الذهن لا يتردد أمام شىء ، يبحث كل شىء ويصدر فيه رأيه صريحاً جريئاً لا يعرف الخوف .

نظر جيوردانو برونو إلى المتفلسفة من معاصريه فإذا هم يسلمون بما يسلم به أرسطو ولايتعرضون لما لا يجوز التعرض له ، فثارت نفسه ، وأخذ ينهج فى البحث والتفكير منهجاً

جديداً حراً ، وكان عاملاً مجتهداً لا يكف عن الاجتهاد والقراءة والدرس ، فلم يلبث أن اختلف مع أصحاب التقليد الرسمى المقرر من أهل زمانه ، وكان إلى جانبه نفر من أحرار الفكر يضيقون بالحدود المرسومة ، ولكنهم كانوا أطوع منه قياداً : كان لورنْت فالاَّ إنسانياً يؤمن بالإنسان ، وكان أبيقوريا روحياً لا يرضى عن فلسفة أرسطو الطبيعية ، وكان ساخطاً على بُوْيسيوس أحد آباء الكنيسة المقدسين لا يرضى عن كتاباته أو أسلوبه ، ولكنه ـ أى لورنت ـ كان عاملاً من عمال الدولة وكان لهذا لا يجرؤ على الكلام .

وكان كاردينال « كوزا » يتوقع ثورة شاملة على الحاضر ، ويؤكد أن اندفاع الناس إلى تدارس الآثار اليونانية الرومانية مفضٍ بهم دون شك إلى انقلاب الأوضاع جميعاً ، ولكنه كان يقول ذلك فى ترفق وهدوء وكياسة ، لأنه كان من رجال البابا وأقطاب دولة الكنيسة . ولكن الله لم يرزق برونو من هذا الترفق وتلك الكياسة شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، فكان همه إذا مادار برأسه رَأىٌ أن يجاهر الناس به فى غير مصانعة ولا مداراة ، فكان يثير حفائظ الناس ويؤلبهم عليه . وكان العصر كله ـ كما حدثتك ـ عصرَ انقلاب كل ما فى الكون ، أقبل الناس فيه على دراسة الطبيعة وقوانينها وبدأوا يشكون فى هذه التفاسير اللاهوتية الأرسطية التى كان الناس يعللون بها كل شىء ويردونه إلى علة واحدة ، لأن هذه التفاسير لا تريح العقل ولا تحل مشاكل الحياة للعقول الحائرة التى تبحث عن الحقائق لذاتها .

لا غرابة أن يكون برونو أشد الناس سخطاً على أرسطو ، ولكنه لم يسخط عليه كفيلسوف ومفكر ، بل لأنه كان ينكر على الناس هذه الذلة التى يقفون بها بين يدى المعلم الأول ، وكان يرى أن إيمان الناس بكل ما قاله وكل ما نسب إليه قد عطل الأذهان وحدد للفكر سبلاً محدودة لا يجوز له أن يعدوها ، وربما كان يكرهه لأنه كان يمثل ـ فى رأيه ـ القديمَ الذى ينبغى أن ينصرف الناس عنه انصرافاً ليؤمنوا بما أتى به المحدثون من بنات أفكارهم ، أو مما كشفوا عنه من فلسفات نفر من القدماء كان وهج فلسفة أرسطو قد أخملهم ، مثل ديموقريط صاحب النظرية الذرية ، وبرمنيد صاحب نظرية وحدة الكون ، وكوبرنيق القائل بأن الشمس هى مركز الكون .

اختلطت هذه الآراء جميعاً فى ذهن «برونو» فجعل يصدر كتباً فى تفسيرها ومناقشتها

ومناقضتها ، وريع الناس من هذا الحشد الهائل من الكتب والآراء التى صبها هذا الرجل على الناس صباً ، وتشكك الكثير منهم فيما يقول حتى لقد نفر منه اللوثريون والكلفنيون أنفسهم ، وبدأت أعين رجال الكنيسة ترميه بنظرات الشك ، وأخذ عمالها يتسقطون أخطاءه لكى يفرغوا من أمره جملةً .

ولو أن رجلاً آخر كان مكانه لخاف وتريث وحسب للأمر حسابه ، ولكن «برونو» لم يكن ليعرف المراعاة ولا الحساب ، فمضى فى طريقه حتى ضاق الناس به فى وطنه ـ إيطاليا ـ وأخذوا يطاردونه . فخرج مستخفياً حتى أشرف على جنيف ، وهى يومئذ مهد من مهاد الحرية الواسعة ، وظل من ظلال الفلسفة الوارفة ، فقضى فيها زماناً مضطرباً . وكان كوبرنيقوس قد أعلن على الناس آراءه فى ثبوت الشمس وحركة الأرض حولها كما ذكرتُ ، فاستقبلها الناس استقبالاً غير جميل ، أما «برونو» فقد رأى فيها رأيا آخر .

رأى كوبر نيقوس على الحق ، فمضى يدافع عن آرائه ويدعو لها حتى روع الفلاسفة من هذا الفيلسوف الذى لا يكف منازعاً لهم مخاصماً لآرائهم ، ومالت نفوسهم إلى الخلاص منه ، وما عتم الرجل أن استبان له أن المقام بجنيف قد أصبح أمراً يعسر على أعزل فقير مثله ، فطوى متاعه وخف إلى تولوز ، وهناك رضيت عنه الدنيا زماناً قصيراً . استقبله الناس هناك بالرضى والترحيب ، وأنزلوه منازل الفلاسفة الموقرين ، فأخذ يعلن آراءه فى سرعة وحِدَّة روعت أصدقاءه المخلصين ، ووجدوا أنه يعسر عليهم الدفاع عنه لأنه تطرف فى آرائه تطرفاً لم يدع لحمايته سبيلاً ، فآذنوه بالفراق فخف إلى باريس حيث لقى صديقه كاستلفاد ـ وكان من كبار القوم وأصحاب الجاه فى الدولة الفرنسية إذ ذاك ـ فتوسط له عند هنرى الثالث ملك فرنسا ، فشمله بعطفه وأقامه أستاذاً للفلسفة بجامعته بباريس .

وجد «برونو» فى باريس وجامعتها أمراً عجباً ، وجد الإيمان بأرسطو فرضاً واجباً على كل عالم وطالب ، ووجد أن كل من تحدثه نفسه بمخالفة المعلم الأول يدفع خمسة فرنكات عقاباً له على ما ارتكب من ذلل جسيم ! وبديهى أن أمراً كهذا حقيق بأن يثير ثائرة «برونو» لأنه لا يرضى عن هذه السيادة المطلقة التى تبسطها فلسفة أرسطو على أذهان المفكرين . ولم يفكر لحظة فى أن ثورته على أرسطو قد تجر عليه غضب الملك ، وقد تؤدى إلى طرده من

النعمة التى يأمن فى ظلالها ، إذ أن العلم كان حياته التى يسعد بها أو يشقى ، وكان يرى الحياة وسيلة للعلم ،ولا يرضى أن يهين العلم فيجعله سبيلاً من سبل الحياة ، ومن هنا بدأ يناقش أرسطو ويعارضه ويقارعه الحجة ، فذهل العلماء والطلبة وعرفوا أن مقام الرجل بينهم لن يطول .

وليته وقف عند هذا الحد ، ليته هاجم أرسطو وحده ، ولكن الأيام لم تلبث أن أظهرت أن الرجل أخطر مما تصور الذين كانوا يخشون على أرسطو ، فقد كان «برونو» لا يرضى عن هذه الفلسفات التى يذيعها رجال الدين ، كان لا يرضى للرهبان أن يختلقوا على الناس أشياء يزعمونها من الفلسفة وليست من الفلسفة فى شىء ، وكان يسخطه أن تكون رحاب العلم ملجأ لكل مدع ومقاماً لكل جاهل لا يقدر العلم قدره .

ومن ثم بدأ يهاجم الرهبان المتفلسفين ويسفه آراءهم وهى يومئذ معتبرة من صميم الفلسفة . كان الرهبان يفرضون على الناس الإيمان بالمعجزات التى اختلقها المختلقون وادعاها المدعون ، وكم يختلق المنافقون من معجزات لا يرضى العقل عنها ولا يطمئن إليها ! وكم تقاسى العقول من الهوان فى تصديقها والإيمان بها ! وكم يسكت العلماء والفاقهون عن هذه الاختلافات ويدَعون الناس يضلون فى متاهاتها حذراً على أنفسهم من غضب رجال الدين وسخط العامة ، وكم يخشى العلماء سخط العوام ! وكم يصانعونها حذراً من غضبهم وطلباً للعافية ! .

ولكن «برونو» لا يرضى لعقله هذا الهوان ولا يقسر فكره على صمت المجبر المضطر ، إنه ليعلن للناس فى غير رهبة ولا خشية أن المعجزات خرافات لا يليق بالمؤمن الكريم أن يقهر عقله على تصديقها ، إنه لينكر على الرهبان قدرتهم على إسعاد الناس ، إنه ليذهب إلى أن قصص بنى إسرائيل مثلها كمثل خرافات الإغريق سواء بسواء ، إنه ليقول كل هذا ولايعلم أى حرب تقيمها عليه هذه الأقوال .

ثم تطرق من هذا إلى فلسفة جديدة ، وأخرج للناس فى سنة ١٥٨٥ كتاباً يزعم فيه أن الله والعالم شىء واحد ، وأن العالم صورة الله ، وأن الله رمز العالم . ولم يفهم معاصروه هذه

الأقوال ولم يطيقوا سماعها ، وأنكروها عليه إنكاراً بالغاً ، فبدأوا يعلنون عليه هذه الحرب الحامية التى انتهت به إلى الاستشهاد .

طرده الناس من باريس ، فخف إلى ماربُرج ووتنبرج ـ وكانتا مهد اللوثرية وحصنها الذى يلجأ إليه الأحرار والمجددون ـ ولكنهما لم تطيقاه . كان الأحرار يجمدون حين يقرأون فلسفة هذا الرجل ويرون تطرفه ، كانت جرأته تفزعهم وتذهب بهم مذاهب بعيدة من الخوف ، لأنهم كانوا يتحاشون إغضاب الأمراء الذين يعيشون فى حمايتهم . فرحل إلى بـراج ، فأقام فيها زمناً . وأقبل عليه الطلاب ، ولكن الرهبان تعقبوه وأخرجوه منها . فلجأ إلى هِلمشتات ، ولكن أعداءه لم يغفلوا أمره بل تبعوه الى حيث أقام ، وبرز له من بين صفوفهم جيوفانى موكنجو ـ وهو راهب متعنت شديد التعصب ـ وطلب أن يناقشه .

كان «برونو» يعلم أن الرهبان لا ينوون به خيراً ، وكان أصدقاؤه يحذرونه مما يبيِّت له أعداؤه ، وكان أحجى به أن لا يذهب للمناقشة ، لأنها كانت شركاً لا يريد هؤلاء القساوسة من ورائه إلا أن يحرجوه ويخرجوه عن طوره ، ثم يفسروا كلامه كيف شاءوا ويسلموه بعد ذلك للجلاد . ولكنه حسب أن فى المناقشة مجالاً يُفهم الناس عن طريقه آراءه ويبسطها لهم ، فأقبل مسرعاً كطير يخف إلى الشرك .

لم تكن مناقشة وإنما كانت محنة ، طُلب إلى الرجل أن يتنازل عن آرائه فأبى : خيروه بين الموت وبين التسليم بما يقولون فسخر منهم ضاحكاً ، والتف حوله أصدقاؤه وألحوا عليه فى التسليم بما يطلب منه الرهبان فغضب غضباً شديداً ، وآلمه أن يهبط مقام العلم إلى هذا الدرك عند تلاميذه الأوفياء .. ثم أعلنه الرهبان إعلانهم الأخير : إما التسليم بآرائهم والإيمان بها وإنكار آرائه كلها ، وإما الموت ..

ولكن برونو أبى التسليم !

ألقوا به فى السجن ، وفاوضوه مرة أخرى وبعثوا إليه من تلاميذه نفراً يعرفون حبه لهم وتقديره لوساطتهم ، ولكنه أقام عل آرائه لا يتزحزح .

فإذا ألزموه الحجة وسدوا عليه المخارج على هذا الأسلوب ، فقد أعلنوا أنه لابد من عقابه.

ثم عقدوا لمحاكمته مجلساً ، وقرروا إعدامه حرقاً .

وأعطوه فرصة أخيرة لينقذ نفسه من النيران .

ولكن «برونو» لم يتحرك ، بل ظل صامتاً .

وأشعلت النيران ، وألقى فيها «برونو» ، وصعدت روحه إلى بارئها مع الدخان ..

وكان ذلك فى ١٧ فبراير سنة ١٦٠٠ .

صـــقر البحـــار

فرانسيس دريك

صفا الزمان لإسبانيا من أواسط القرن الخامس عشر ، أعانها الدهر على بقايا المسلمين فى بلادها ، وسطا ملوكها على ما خلف هؤلاء المسلمون من مال وعتاد ، ووقع هذا المال العريض غنيمة تقسمها ملوك قشتالة وأرغون ومن فى ركابهم من الفرسان ورجال الدين . ولم يجد الملوك وجهاً ينفقون فيه هذا المال الطارىء خيراً من استكثار الجند وابتناء الأساطيل ليمكنوا لعروشهم وليزدادوا عتواً وسلطاناً .

وكانت الحرب مع المسلمين قد زادت جند الإسبان ضراوة ، وكان النصر المتواضع على بقاياهم القليلة قد ملأ نفوسهم طمعاً وطموحاً ، فمضوا يتدفقون يمنة ويسرة يطلبون أرضاً يسطون عليها أو عدوا يحاربونه . وأحس كولومبس أن فى بلاط قشتالة مالاً لا يعرف أصحابه كيف ينفقونه ، فمضى يطلب إليهم العون ويمنيهم بوفرة الكسب وكثرة الغنيمة إذا هم أمدوه بالسفن والمال والرجال ليكشف عالماً جديداً يضعه تحت أقدامهم ، واستهوت الدعوى نفوسهم فأمدوه بالمال والسفن والرجال ، فكشف العالم الجديد .

وأتاهم هذا الكشف بمُلك من وراء العقول ضخامةً وغنى ، وتدافع الإسبان إلى العالم الجديد ، وفاض الذهب فى شبه الجزيرة وعم ربوعها الرخاء وتطلع ملوكها إلى سيادة الدنيا ، فسادوا أوربا فى أيام شارل الخامس وسيطرت سفائنهم فى عهد فيليب الثانى على أمواه الأطلسى ، ومضى رجالهم يهدمون دولاً من وراء المحيط وينشئون دولاً ، وارتفع نجم إسبانيا وطأطأت لها الدنيا رأسها ، فأذلت جيوشها الأرضين وطوت أساطيلها البحار ، ووقف الناس من غير الإسبان بمبعدة يأكل قلوبهم الحسد ، وما جرؤ سفين على عبور

المحيط إلا نظر الإسبان فى أمره وأنكروا منه هذه الجرأة ، كأن الله قد خلق الدنيا لهم وقصر خيرها عليهم .

وإن الإنسان إذ يتأمل الحوليات الإسبانية من أواسط القرن الخامس عشر إلى ختام القرن السادس عشر ليدهش من ضخامة الجهد الذى بذله أبناء الجزيرة الإيبيرية ، ويتساءل عن الأسباب التى حفزت هذا الشعب الوليد إلى القيام فجأة بهذا الجهد الذى لايكاد التاريخ يسجل له مثالاً فى هذه القرون . فقد استكشف الإسبان معظم سواحل أمريكا الجنوبية واحتلوا الجزر المحيطة بها وأعلنوا فى أوائل القرن السادس عشر سيادتهم الفعلية على المحيط الأطلسى ، وفى سنة ١٥١٧ اكتشفوا شبه جزيرة يُقَطَان ونفذوا إلى البحر الكاريبى ، وفى سنة ١٥١٩ اقتحموا المكسيك بعد حروب سالت فيها الدماء أنهاراً، وفى السنة التالية دار ماجلان حول الأرض لأول مرة فى تاريخ البشر ، وفى سنة ١٥٢٩ فُتحت بيرو أغنى أقاليم أمريكا الجنوبية بالذهب وأصبحت فيما بعد درة التاج الإسبانى وأزهى بلاد العالم الجديد ، وفى سنة ١٥٣٥ أسس الإسبان بوينوس أيريس درة المحيط الأطلسى الجنوبى وأسسوا ليما أعلى عواصم الأرض مكاناً ، وفى سنة ١٥٣٩ فتحو شبه الجزيرة المزهر « فلوريدا » وهكذا ...

فتوح تلاحق فتوحاً ومنشآت تتلوها منشآت . هذا إلى حروب فى القارة سال فيها الدم من بروج وأوستند إلى روما ونابلى ، بل إلى ليبانتو من سواحل كريد . فلم يكد القرن السادس عشر يقارب نهايته حتى كان أبناء شبه الجزيرة قد استنفدوا جهدهم وأكلتهم الحروب وتقاسمتهم البحار ، وهم مع هذا يتشبثون بسيادة الدنيا لا يكاد أمير فى طرف القارة الأوروبية يتحرك لحرب أمير يجاوره إلا نفر الإسبان كأن الأمر يعنيهم وحدهم ، ولا يكاد سفين يخرج من ميناء إنجليزى أو هولندى إلا عجبوا كيف لا يستأذنهم والبحار بحارهم وأمواه الله ملك يمينهم لا يجوز لأحد غيرهم أن يمضى فيها بشراع ! .

وضاقت الدنيا على الملاحين من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ومن إليهم : أقفلت إسبانيا أبوابها فى وجوههم وحرمت عليهم الرسو فى أى ميناء خاضع لإشرافهم مثل سبتة ووهران ، فكان عليهم أن يهيموا بسفائنهم شمال المحيط الأطلسى وينزلوا بسواحل كندا

وأمريكا الشمالية ـ وكانت فى ذلك الحين بلاقع قفراء ـ أو يقصدوا موانى غربى إفريقية ويدوروا حول رأس الرجاء الصالح ليصلوا إلى محيط الهند وبحار آسيا ، وكانت تلك رحلة شاقة كبرى . ومضت السنون وهؤلاء الملاحون مشردون بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب، يرمون سفائن الإسبان بعين الحاسد المحروم وهى تمضى إلى المكسيك وبلاد أمريكا الجنوبية وتعود بالذهب والجوهر وغالى المتاع .

وكان الإسبان قد سلكوا فى استعمار هذه الأقاليم مسلكاً لا يدل إلا على فساد رأى وقصر نظر ، فقد بدأوا بمذابح شائنة أنزلوها بالأهلين حتى وقع الرعب فى نفوسهم وتشرد من بقى منهم فى قنن الجبا وصخور الهضاب ، ثم أقبل الإسبان يحملون ما وجدوا من ذهب غنيمة تارة وضرائب تارة أخرى ، تحمله البغال إلى مراكز حصينة سميت بمراكز الخزانة ، مثل نومبر دِديُوس (اسم الله) على ساحل بناما ، وفيرا كروذ (الصليب الحقيقى) على ساحل أمريكا الوسطى . فكان ذهب البلاد ومال أهلها الأصائل ينصب فى هذه المراكز ثم يحمل منها إلى إسبانيا فى سفن محروسة ، وهناك يعثر فى ترف البلاط وجشع رجال الكنيسة ومطامع القواد والجند فى كل مكان .

ويستطيع الإنسان أن يتصور مقدار حسد الملاحين من أهل البلاد الأخرى وهم يتأملون هذا السيل الذهبى يفيض فيضاناً متصلاً وهم لا يكادون يجرؤون على الاقتراب منه .

طبيعى إذن أن يبدأ هؤلاء الملاحون من إنجليز وهولنديين يحومون حول الموانى الإسبانية فى المكسيك وأمريكا الجنوبية ، وكانت للإنجليز والهولنديين بضعة مواضع قليلة فى جزائر الهند الغربية وشمال أمريكا الجنوبية يستطيعون النزول فيها برضى من الأهلين الذين كانوا يكرهون الإسبان مثلهم ، ولكنهم كانوا إذا وطئت قدمهم هذه النواحى لايزالون فى خوف متصل من سفائن الإسبان ، إذ لا تكاد هذه السفن تلمحهم حتى تهاجمهم وتقضى عليهم . وكانت ملكة الإنجليز إذ ذاك هى مارية الإسكتلندية وكانت كاثوليكية تربطها بفيليب الثانى ملك إسبانيا قرابة ونسب ، فلم تعترض على هذا الوضع وتركت الإسبان سادة البحار يفعلون فيها ما يشاءون .

وكانت السفن الإسبانية ضعيفة لا يصعب على ملاح ماهر قهرها والاستيلاء عليها ،

كانت ضخمة بطيئة الحركة يُسيرها ملاحون أشقياء تجمعهم الحكومة الإسبانية من موانيها أو من غيابات السجون وتلقى بهم فى عروض البحار يقضون حياتهم فى ذل وإسار ، وكانت طوائف منهم تشب بقباطنة السفن فى عرض البحار وتستولى على السفينة وتمضى فى البحار قراصنةً فلا تلقى سفينة ـ إسبانية أو غير إسبانية ـ إلا فتكت بها ونهبت ما فيها ، فأصبح الأطلسى وأمواه أمريكا مسارح للموت لا يكاد يخطر فيها سفين حتى يتخطفه القراصنة من كل صنف . فمن أفلت من قراصنة الإسبان لم يفلت من قراصنة الإنجليز ، ومن نجا من هذين وقع فريسة لسفائن الحكومة الإسبانية ، ولم تكن خيراً من هؤلاء وأولئك ولم يجرؤ على تسيير شراع فى بحار الموت هذه إلا الربابنة ذوو القلب الجرىء والخبرة الواسعة ، وسماهم الناس : « جوّابى البحار » أو « كلاب البحار » ، سخرية أو إعجاباً . ومضى الحال على ذلك زمناً مديداً .

* * *

كان أكبر « كلاب البحار » هؤلاء فى ذلك الوقت ملاحاً ماهراً ومغامراً مروعاً اسمه السير جون هوكنز . طار صيته فى إنجلترا وتحدث الناس بجرأته ، إذ كان يمضى بسفائنه لايكاد يعبأ بقرصان خلال المحيط المخوف حتى يصل إلى غيانة الإنجليزية فى شمالى أمريكا الجنوبية ويحمل منها البضائع ويعود إلى بلاد الإنجليز محملاً بالخيرات ، وتحدث الناس فى أمره وسعى ناشئة الملاحين والراغبون فى المغامرة إلى الانضمام إليه للإفادة من خبرته وإشباع لذة المغامرة خلال رحلاته وغزواته .

وفى سنة ١٥٦٧ انضم إلى زمرة رجاله شاب فى السابعة والثلاثين من عمره ، تتوفز الحماسة فى عينيه الزرقاوين ويتحدث شعره الأحمر بجرأة بعيدة وقلب حديد ، كان هذا الفتى هو فرانسس دريك ابن قسيس بروتستنتى ، وكان قد ولد على سطح الماء فى سفينة حربية راسية على البحر ، ونما وشب على ظهر الماء كأنه حوت صغير ، ثم التحق بخدمة السفن بين فرنسا وإنجلترا ، فأفاد من ذلك خبرة كبرى . وكان يعمل إذ ذاك فى خدمة ربان كريم وحيد فى هذه الدنيا ، فلما توفى الربان خلف السفينة للملاح الشاب فمضى يذرع البحار بها ويزداد مع الأيام خبرة وتجريباً . وكان يمضى بسفينته إلى السواحل الإسبانية

ليحمل المضطهدين الدينيين الفارين من ديوان التحقيق ، ويسمع منهم أخبار تعذيب الإسبان الكاثوليك لمن يخالفونهم فى الدين ، فملأ ذلك قلبه حفيظة على الإسبان وسخطاً .

ولم يكد يسمع أن السير جون هوكنز قد أزمع القيام برحلة كبرى إلى غيانة حتى باع سفينته وذهب يطلب مرافقته . وكان السير جون ابن عمه ، فرحب به وجعله مساعده ، ومضى الاثنان فى ثلاث سفن خفيفة يعبران المحيط . ولم يكد الملاحون يرونهما يعملان معاً ويسمعانهما يتحدثان ، حتى أيقنوا أن أمرا غير عادى لابد واقع أثناء هذه الرحلة الخطيرة .

وأصيبت إحدى سفن الإنجليز بالعطب على مرأى من فيراكود ، وكان الأسطول الإسبانى راسياً فى الميناء ، فأرسل السير جون إلى القبطان يستأذنه فى أن ترسو السفن ريثما يصلح عطبها ، فتردد القبطان حيناً ثم أذن له وهو شديد الشك فيما عسى أن ينتويه هؤلاء الإنجليز . وربما كان هذا القبطان على حق ، لأن الإنسان لا يكاد يعرف ما يطوى إنجليزى نفسه عليه ! ودخلت السفينة الإنجليزية وألقت مراسيها ومضت تصلح العطب فإذا هى فى ذلك إذ دهمها الإسبان على حين غرة . ولسنا نعرف أسباب هذه الغدرة المفاجئة ، لأن الإسبان من ناحيتهم يزعمون أن الإنجليز كانوا ينطوون على الغدر حينما أستأذنوا فى الدخول ، وأن الإسبان رأوا الحزم فى مفاجأتهم على هذا النحو . وعلى أى الأحوال كان لهذه التجربة أسوأ الأثر فى نفس دريك ، لأن سفينته التى كان يقودها أغرقت ووقع هو فى الماء ، وأخذ يسبح حتى أدركته إحدى السفينتين الإنجليزيتين الناجيتين من المعمعة ، ثم مضى مسرعاً إلى إنجلترا يحمل نبأ الفجيعة ، وقرر من ذلك الحين أن يكرس حياته لحرب الإسبان والقضاء على هذه السيطرة التى يفرضونها على البحار .

وكانت الأحوال إذ ذاك قد تغيرت فى إنجلترا : قُتلت مارية الإسكتلندية واعتلت العرش غريمتها اليصابات ، وكانت بروتستانتية تكره الإسبان وترجو أن تثأر منهم لما أصاب الإنجليز على يديهم فى عهد غريمتها . وقد سخط فيليب أشد السخط على الإنجليز لما فعلوا بنصيرته ، فأصر إصراراً شديداً على تحريم موانيه وموانى مستعمراته عليهم . وقد كان رجاله قبل ذلك يتشددون مع سفن الإنجليز التشدد البالغ ، فلما فعلت اليصابات بمارية ما فعلت وآزرها الشعب وهلل لها ، سخط الإسبان على الإنجليز جملة ،

وأمر فيليب رجاله أن يكونوا لهم رصداً ، فتعقبهم الإسبان بالأذى ، وكادوا لا يجدون إلى مراكزهم فى البحر الكاريبى أو فى أمريكا الجنوبية سبيلاً . ثم قام وليم الصامت بثورته على الإسبان فى هولندا ، وآزره الإنجليز ونصروه على فيليب ورجاله ، فاشتد سخطه عليهم وصارحهم بالعداء ، واتصل ذلك باليصابات ورجالها فمضوا يقابلون الإسبان عداء بعداء ، وتراءت فى الأفق طلائع حرب مقبلة بين الجانبين يتقرر بها مصير السيادة على البحار .

كان هذا بمثابة فتح السبيل أمام هذا الملاح المتيقظ الذى أخذت نفسه تتطلع فى شوق إلى فرصة يحقق فيها أمانيه من النصر والغزو ، وكان فؤاده يضطرم حقداً على الإسبان لما أصابوا به بلده من المهانة ولما أنزلوه به من الخسارة فى مأساة فيراكروذ . وكان منذ حين مقيماً فى موطنه فى ديفونشير على الساحل يتأهب للفرصة ، فما إن أحس بسنوحها حتى أسرع فأعد سفينتين صغيرتين هما : « باشا » و « سْوَان» ، ومضى نحو جزائر الهند الغربية ليستطلع الموقف هناك وليمهد السبيل للاشتباك المنتظر مع إسبانيا . وكانت الملكة اليصابات تشجعه وتؤازره سراً على هذا النحو البغيض من المراءاة الذى جرى عليه الإنجليز فى سياستهم : يؤيدون رسولاً فى السر ثم يعلنون للناس أن لا علاقة للحكومة به فهو فى ظاهر الأمر تاجر لا يجوز لأحد أذاه ، وفى باطن الأمر جاسوس خطر ينبغى القضاء عليه ، فإذا اعتدى الإسبان عليه قامت عليهم قيامة الإنجليز وصاحوا : ما هذا ؟ عدوان معيب على ملاح برىء ! وما أسرع ما تتطور المسألة وتتدخل الحكومة وتنقلب الدنيا ! .

كانت المهمة التى أخذها دريك على نفسه خطيرة حقاً : كان عليه أن يهاجم مال الخزانة الإسبانية المكدس فى « نُومبِرِ دِ دْيُوس » فى إقليم بناما ، وكان الإسبان يحمون هذا الموقع حماية من يدافع عن روحه ، وليس يستطيع الإنسان إلا أن يعجب بجرأة هذا الملاح الذى يتصدى لعمل بهذه الخطورة ، ولكنه كان إنجليزياً يشعر أنه يسير فى خدمة بلاده ، ويكفى أن يشعر الإنجليزى بهذا حتى يقتحم على الشيطان داره .

كانت المهمة الملقاة على عاتقه مهمة قرصان فاتك . ولو قد أزمع القيام بها ضد قوم غير الإسبان لما ذُكرت فى مفاخره ، ولكن الإسبان كانوا ينزلون بغيرهم من الناس أشد من ذلك وأنكى ، فقد كانت دواوين التحقيق فى ذلك الزمن تسلم المئات من المسلمين واليهود والبروتستانت إلى سيوف الجلادين وسياط المعذبين فى غير رحمة ، وكان الإسبان أنفسهم

أشد الناس بلاء بهذا النكال ، لأن القائمين بالأمر فيهم كانوا طغمة من المفسدين المتعصبين .

أبحر دريك بسفيته فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٧٢ ـ وإن الإنسان ليعجب بهذا القلب الجرىء الذى يعبر البحار إلى الشيطان ليسرق ماله ـ وألقى مراسى سفيتيه على مقربة من هدفه فى مكان هادىء من الشاطىء . وتخير أمسية مظلمة ومضى بستين من رجاله ليهاجم بلداً حصيناً يحرسه بضعة آلاف .

وطرق البلد بليل مظلم ، فأحدث فيه هيعة ملأت نفوس الحرس والجند رعباً ، فولوا على وجوههم مدبرين ، واقتحم دريك برجاله السور ومضوا إلى خزانة المال ووقفوا يتأملون أكوام الذهب التى وقعت فى أيديهم غنيمة باردة ، ولكن القدر أراد أن يفجعهم فى هذه اللحظة التى أوفوا فيها على مرادهم . فبينما هم يحاولون نقل المال إذا صائح يصيح : لقد سقط القائد ! كان دريك قد جرح جرحاً بليغاً فى أول المعركة ، ولكنه تركه يشخب ومضى فى الهجوم حتى لا تفلت الفرصة وقد وقعت ، فلما كانت هذه اللحظة كان قد نزف من جرحه من الدم ما أعياه ، فسقط على الأرض وتسارع إليه جنده يحملونه قبل أن يفاجئهم العدو ، وحملوه ومضوا مخلفين المال خلفهم ، فكانوا فى هذا أبطالاً جديرين بالقائد ، ولو جندٌ غيرهم لما صرفهم عن الغنيمة شىء .

ولو قائد غيره لعاد أدراجه ليستعد مرة أخرى فى بلاده ، ولكن الله قد وهبه قلباً من حديد لا يستريح إلا إلى أوار المعارك ، فلم تكد صحته تتحسن حتى مضى يشن الغارات فى كل وجه ، ويسطو على ما يلقى من سفن الإسبان ، ويفجأ ما أمن من مواقعهم على الساحل . وأعجب به نفر من قبائل « المارون » الهنود الحمر فآزروه على الإسبان ، فاشتد ساعده بهم ، ومضى يروع أعداءه على نحو لم يعرفه الناس ولم يألفوه من أعتى القراصين وأشقاهم ، فقد كان الرجل جنًا رهيبًا لا يستريح ليلاً ولا نهاراً .

قُتل أخوه فى إحدى المعارك فلم يثبط ذلك عزمه ، وتهاوى جنده مرضى من أثر الحمى حتى لم يبق له إلا ثلاثون رجلاً ، فلم يرهبه ذلك ومضى يعد العدة لمهاجمة المال عندما ينقله الإسبان من الخزائن الحصينة إلى الساحل ، وكانت عادة الإسبان قد جرت بأن يحملوا هذا

الذهب فى قوافل من البغال يحرسها الجند ورجال من قبيلة المارون ، فلما اطمأن دريك إلى صداقة هذه القبيلة اشتد أمله فى التوفيق ، وبقى يترقب الفرصة كنمر كاسر ربض فى سواد الليل يترقب الفريسة على مرأى من الغدير .

ولكن الحظ تخونه مرة أخرى ، إذ أن ملاحاً من رجاله تحدث بالسر فى لحظة لعبت الخمر برأسه فيها ، فاحترس الإسبان وضاعت الفرصة وأفلتت الفريسة العنيدة من يد النمر الصبور . وقد أثار ذلك غضب دريك مثاراً أخرجه عن صوابه فمضى يعبث فى البحر عبثاً شريراً بغيضاً ، فإذا هو فى ذلك إذ سنحت له فرصة ، فنزل إلى البلد وسار برجاله فسطوا على بعض مال الخزانة ، ومضى رجاله بالمال إلى الساحل يلتمسون سفنهم فلم يجدوها ، إذ كان العدو قد فجأها فأقلع بحارتها ولبثوا فى عرض البحر ينتظرون ، فلم يكن من دريك إلا أن أمر رجاله فصنعوا من جذوع الأشجار عائمة استقروا على ظهرها ومعهم غنيمتهم ، ومازالوا يبحثون فى ثنايا الأمواج حتى عثروا على سفنهم فانتقلوا إليها .

وعاد إلى بلاده فى سنة ١٥٨٣ مؤملاً أن يستقبله الناس استقبال البطل الفاتح ، ولكن نفراً فى بلاط اليصابات كان قد استاء من اشتداده فى أعمال القرصنة ، وعنفه الذى أجج عداوة الإسبان ودفعهم إلى التفكير فى غزو إنجلترا وتأديب أهلها جملة ، وخشى دريك أن يدبر أعداؤه هؤلاء عليه شيئاً فظل بعيداً فترة يترقب ، وأرسى على الشاطىء بما معه من الغنيمة وأقام برهة يستريح ويريح رجاله . ثم بدا للحكومة الإنجليزية فجهزته فى خمس سفن وأرسلته إلى أمريكا مرة أخرى ، وحزم أمره هذه المرة على أن يهاجم الإسبان فى « بيرو » حيث يجمعون الذهب كله ثم يرسلونه فى البحر إلى بناما ومنها إلى فيراكروز حيث ينتظره الأسطول الإسبانى الكبير .

ولكن أمواه البحر تخونته : غرقت سفينتان من سفنه وضاع رجالها فى ثبج الأمواج ، وروعت سفينتان أخريان فعادتا أدراجهما ، ومضى وحده بسفينته « جولدن هِند » فاخترق المضيق الرهيب الذى تتعالى أمواجه حتى لتدرك الجبال طولاً ، وأفضى آخر الأمر إلى سواحل شيلى وبيرو ، وأخذ يروِّع سفائن الإسبان ، فلما قضى من ذلك وطراً مضى يخترق المحيط الهادى بسفينته الوحيدة ، وأفضى إلى سواحل آسيا ، واخترق مضايق أرخبيل الهند الشرقية ثم دار حول رأس الرجاء الصالح ثم صعد إلى إنجلترا . وهكذا عبر هذا الرجل

الفريد الأرض من جانب لجانب يقاتل ويحارب خلال سنوات ثلاث ! فأعاد بذلك تجربة ماجلان بعد ستين سنة ، وعاد إلى بلاده وقد طوَّف فى بحار الدنيا السبعة كما يقولون ، وطوى الأرض ونشرها بقلب جرىء لا يرهب الأهوال .

فلما عاد إلى بلاده سنة ١٥٨٠ كان صيته قد ملأ الدنيا ، وكانت نفوس مواطنيه قد ملأها الإعجاب به ، فاستقبل استقبالاً كريماً رغم إلحاح رسل الإسبان فى ضرورة عقابه على أعمال قرصنته وإعدامه ، ولكن الإنجليز ادخروه ليوم عبوس يشتبكون فيه مع الإسبان ، فرفعوه إلى مرتبة الفارس ومنحوه لقب « سير » ، ودخل البرلمان .

ومضى الإنجليز على دأبهم يثيرون خصمهم فى صبر وخبث ، يحالفون أعداءه ويهاجمون مواقعه بين الحين والحين ، يبغون بذلك أن يخرجوه عن طوره ثم يذيعوا على الملأ أنه يدبر عليهم ويرجو هلاكهم . فمن ذلك أنهم أرسلوا دريك فى حملة قاسية على قادش من جنوب إسبانيا ، فدهم الميناء على حين غرة ، وأغرق فيه نحو مائة سفينة بما فيها ، ثم نزل الساحل وعسكر عليه ، وأقام الليل يتحدى الملك فيليب الذى لم يكن الشيطان نفسه ليجرؤ على تعكير صفوه أو السير بين يديه بما لا يحب ، ولكن الإنجليز فعلوها فأخرجوا الإسبان عن كل طور ، فلما فكر الإسبان بعد ذلك فى غزو بلاد الإنجليز كما غزا هؤلاء بلادهم ، صاح الإنجليز على مسمع من الدنيا : انظروا .. يريدون غزو بلادنا ليقضوا علينا .. عدوان ما بعده عدوان ! .

وعاد دريك إلى بلَيْموث وأخذ يلح على الحكومة الإنجليزية فى ضرورة تحطيم الأسطول الإسبانى فى المياه الإسبانية ، وفطنت الحكومة الإنجليزية لأهمية ما كان يدعو إليه ، فأخذت تستعد لليوم الموعود وهى أوثق ما تكون إيماناً بأن عدوهم الإسبانى سيهيىء لهم بحماقته الفرصة لهزيمته كما هيأ لهم كل عدو برز لهم أو سيبرز لهم على مدار الأيام .

وكان الإسبان يعدون هذه « الحماقة » فى السر ، يحسبون أنهم يباغتون الدنيا بها وينتصفون لأنفسهم بعد طول صبر وهزيمة ، كانوا يعدون أسطولاً مسلحاً مدرعاً (أرْمَادَا) ليغزوا به إنجلترا وليلقوا على شعبها العنيد درساً لا ينساه ، وكان عدوهم أدرى بهذا السر منهم ، لأن جواسيسه كانت تجوس موانيهم يتنطسون الأخبار وينقلونها أولاً بأول ،

واستيقظ فى الإنجليز هذا الانتباه الغريزى والشعور باقتراب الخطر ، ولا يدانيهم من أهل الأرض أحد فى ذلك : باتوا يحرسون موانيهم ويبعثون الطلائع يترقبون العدو المباغت ، وأخذ كبار ملاحيهم من أمثال دريك وهوكنز وهَوَارد وفُرُو بيشر يعدون أنفسهم لليوم العظيم .

ولم يلبث هذا اليوم أن أقبل : تراءت سفن الأسطول المدرع الإسبانى لطلائع الإنجليز ، ودقت الأجراس فى كنائس الساحل وتقاطر الملاحون على السفن ، وكان دريك يلعب مع بعض أصحابه فى ميناء بليموث بكرات يدحرجونها فمن أرسلها أبعد وأصاب أهدافاً أكثر فهو الفائز ؛ وأقبل الرسول بالخبر الخطير فريع أصحابه وأدركهم الخوف ، فقال باسماً «أكملوا اللعبة يا رفاق .. لدينا من الوقت ما يكفى لكسب هذا الدور وضرب الإسبان كذلك ! » .

وفى صبيحة اليوم التالى كان الأسطول الإنجليزى على الأهبة تحت قيادة اللورد هوارد أوف إفْينْجهام ، ووقف أبطال البحر وسادة الأمواج على رأسهم هذا الداهية فرانسس دريك ، يكاد قلبه يقفز من مكانه حميةً وتوثُّباً . وأدرك الإنجليز أن لا طاقة لهم بسفائن الإسبان الضخمة فى عرض البحر ، فجعلوا يتقهقرون أمامها حتى دخلوا فى مضايق القنال الإنجليزى ودخلت وراءهم ، وهنا أمكنتهم الفرصة لأن الخوانق لا تسمح للسفن الكبيرة بالحركة .

وكان الإسبان قد صفوا سفنهم على هيئة الهلال يريدون أن يحتووا الأسطول الصغير بين ذراعى أسطولهم ثم يصلوه ناراً ، فلما دخلت سفنهم المضايق واعترضتها الصخور عسرت عليها الحركة وانفرط عِقدُها وتمكنت منها السفن الإنجليزية الصغيرة ، ومضت تمطرها وابلاً من النار . وأرست السفن الإسبانية فى ميناء كاليه تنتظر أن يأتيها المدد من الجيش الإسبانى فى الأراضى المنخفضة ، ولو أتى هذا المدد فى الوقت المناسب لاستحال على الإنجليز الهجوم على هذه السفن الضخمة المدرّعة يحميها الرجال ومدافع الشاطىء من خلفها ، ولكن المدد تأخر ، وأقبل الإنجليز بسفن صغار تقذف اللهب ، وجعلوا يصلون السفن الإسبانية ناراً ، فروع رجالها وحسبوا السلامة فى الخروج من الخليج ، فما إن خرجت سفنهم حتى تلاحقت بها ذئاب السفن الإنجليزية تنهشها نهشاً ، وأخذت تتهاوى إلى قاع

اليمّ واحدة فواحدة . وكان دريك ـ روح الأسطول الإنجليزى ـ يدير المعركة من ظهر سفينته ، وأصيبت سفينته وغرقت فانتقل إلى غيرها ، ومازال يتابع الأسطول الهارب على هذا النحو حتى كاد يفنيه ، وأقبل الليل فحال بين الأسطولين .

واتخذت سفائن الإسبان الليل ستاراً ومضت تشتد طالبة النجاة ، وخشيت العودة من نفس الطريق فصعدت فى البحر ترجو أن تطوف حول أسكتلندة وتنجو فى عباب الأطلسى الواسع ، فكان البحر أقسى عليها من الإنجليز ، وغرق مما بقى منها عدد عظيم ، ولم يصل منها إلى إسبانيا غير فلول مبعثرة تحدوها الخيبة وترفرف عليها أعلام الهزيمة .

هكذا تحطمت الأرمادا العظيمة وانكسرت شرة الإسبان ، ولم ترتفع لهم بعدها على أمواه البحار راية مظفرة . تسلم الإنجليز منهم سيادة البحار ، وبدأ فى تاريخ البحرية العالمية عصر جديد : تقطعت الأسباب بين إسبانيا ومستعمراتها ، وتخونها الحظ ، فأخذت تهوى فى دركات الانحلال شيئاً فشيئاً . وعلى أشلائها قام الإنجليز وقد ملكوا زمام البحر ، ومن ملك زمام البحر دانت له الأرضون . ومعظم الفضل فى ذلك يعود إلى هذا المخاطر فرانسس دريك ، رجل شرى بنفسه مجدَ بلاده ومضى يحمل فؤاده على كفه يحارب من عاداها حتى أرداه وخلصها منه وكتب لها عزًّا جديداً !.

فهل ترى مواطنيه كافأوه بما ينبغى له ؟ لا .. تكاثر عليه الأعداء والحاسدون حتى كادوا أن يُخْملوه ، وقضى الرجل سنوات بعد ذلك يدافع عن نفسه أذى الأعداء من بنى وطنه ، فهل كفر بوطنه وآله ؟ حاشا ... وهذا هو يخرج فى رحلة خطيرة فى مطالع سنة ١٥٩٦ ليعقد لبلاده مجداً جديداً ، ولكن الموت كان فى آثاره : أصابته حمى عند سواحل الهند الغربية ، واشتد به المرض ، وتوفى فى الثامن والعشرين من يناير من ذلك العام ، ووارى جثمانه بين طيات الأمواج على مقربة من بورتو بلّيُو على مرأى من شواطىء شاهدت مجده الطالع قبل ذلك بثلاثين عاماً .

راهب يهز الدنيا

مارتن لوثر

١٤٨٣-١٥٤٦

كان رجلاً هو أقرب إلى أن يكون ولياً من أولياء الله ، ولكن كرامته لم تكن الإسراف فى الصلاة والتظاهر بالتقوى ، ولم يكن إيمانه مقصوداً به خداع الناس وكسب القوت ، وإنما كان إيمانه حرباً على الفساد وذلاً للمفسدين ، وكانت كراماته ألواناً من الفضيلة الإنسانية ومُثُلاً من الجهاد المخلص فى سبيل الناس . لم يزعم أنصاره أنه أتى بالمعجزات أو قَدَر على الخوارق ، ولم يتكلف فى حياته أن يأتى من الأمر غير ما يأتيه عامة الناس ، بل كانت كرامته الكبرى أنه تيمَّم الصدقَ غاية وابتغى وجه الحق هدفاً ، واستنجد بالهدى وخاض الحياة مايبالى بالموت أو بالسخط ، وما يخشى أن يجتمع له الناس كلهم أعداء ..

وإن الأعداء لينهضون له ويتكاثرون عليه ، وإن الملوك لتهوى عليه بصوالجها ، وإن البابا ليحرمه من بركات ربه ، فما يبالى هذا كله ، وإنما هو ماض فى طريقه لا توقفه الفتنة التى مدت أسبابها ، ولا الثورة التى أخذت أهبتها ، ولا الأعداء الذين جمعوا جمعهم وصبوا شرهم ! احتمل كل هذا راضياً حتى أوفى على حاجته وأفضى إلى غايته ، وبلغ من خير الناس ما كان يريد ، وأقام من صلاح الدنيا ما كان ينبغى ، وكسب من نعمة ربه ما كان يطلب ، ثم انثنى ومضى إلى حيث يمضى كل الناس .

وفى الأبطال من تكون بطولتهم لوناً جديداً من الحياة يفيض على الوجود فيبدل أمره ، فلا تفتأ الدنيا من بعده تحمل طابعه ، ولا تعود عظمته بعد ذلك فى حاجة إلى التأكيد أو البرهان ، لأنها برهان نفسها وإعلان جلالها ، كعظمة هذا القس الألمانى مارتن لوثر . لست تنظر فى ناحية من حياة الناس اليوم إلا وترى له فيها أثراً : تراه فى البروتستنية التى تضم

الملايين من البشر ، وتراه فى الثورة الفرنسية التى كانت تتمةً لجهاده الجليل الطويل فى سبيل تحرير الذهن البشرى ، وتراه فى عظمة الفكر الألمانى التى لا يفرغ عنها حديث ، وتراه فى حيثما قلبت بصرك فى نواحى الحياة الواسعة .

* * *

وتوسم فيه أبوه النجابة فى بكرة الصبا فاتجه به نحو دراسة القانون لكى يصير محامياً يدر على عائلته المال ، أو قاضياً يتحدث بِعَدْلِهِ الجيران والأقارب ،ومضى الفتى فى دراسته مُجِدًّا حتى كاد أن يوفى على غايتها . فإذا كان يوماً فى طريقه إلى جامعة إيرفُرت فى صحبة صديق له إذا بعاصفة تثور ، وإذا الرياح تضطرب والصواعق تنهال ، وما يشعر الفتى مارتن إلا وصاعقة تنقض على صديقه المسكين فترديه حطاماً ، وإذا الفتى فى حيرة من أمره ومن أمر هذه الدنيا . إنه ليغذ فى السير حتى يبلغ الجامعة ، وينبىء رفاقه بما أصاب صاحبهم فيتسارعون لنجدة الصريع . ثم ينزوى عنهم ، ويختلى بنفسه ويأخذ يفكر .

لقد أتاه حادث اليوم بالأمر العظيم : لقد رأى بعينيه هوانَ الحياة وقربَ الموت ، ولقد استشعر بقلبه قدرة الله جل جلاله . إنه ليفكر فى الأمر فيطيل التفكير ، وإنه ليطيل النظر فيزداد حيرة ، وإن نفسه لتفتر عن الدرس فيأخذ ينصرف عنه انصرافاً ، وإنه لَيُحس فى نفسه حيرة لا يعرف لها سبباً . إنه يخشى الآخرة ويخشى أن يكون مصيره إلى النار إذا أدركه الموت هكذا بغتة ، وإن هذا الخوف ليعذبه ويطغى على نفسه فيلتمس الخلاص منه فلايجده . إنه يقرأ كتب القديسين والأحبار ويسرف فى الصلاة فلا ينتهى إلى شىء من الراحة أو إلى جانب من الاطمئنان الذى يرجوه . فإذا استبدت به الحيرة فقد ترك الحياة ودخل الدير دفعة واحدة .

وروع أصحابه وآله وأقبلوا عليه يسألونه عن سر هذا الجنون المفاجىء ، فلم يجب بأكثر من أنه يريد أن يخلِّص نفسه من عذابها وينجو بها من ضلالها وشكوكها : وتنقضى على الفتى فى الدير أيام وشهور وهو يمعن فى الصوم ويطيل فى الصلاة ، وينصرف إلى التفكير حتى يكاد كيانه أن ينهدم . إنه ليبحث عن الهدى ويلتمس سبيل رضى الله فلا يوفق ، ويشكو الأمر لرؤسائه فى الدير ويطلعهم على حقيقة حاله فينصحونه بأن يثق فى رحمة الله ،

وأن يضع فيها أمله ويلتمس عندها هداه . وينتصح الفتى بقول الرؤساء ، فيعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، ويتشبث من مغفرته بأرسى طود ، فإذا الهدى يفيض فى قلبه ، وإذا السخط ينصرف عن نفسه ، وإذا الرحمة ترفرف على رأسه فيعتدل حاله ويرضى عنه الناس .

عرف الأحبار فيه ذكاء القلب ومضاء الفكر فأخذوا يسألونه فيما يعرض لهم من الحاجات ، واستبان لهم أن الرجل على علم وثيق وذكاء بعيد المدى ، فجعل رئيس الدير يندبه للخطير من شئونه ، وذهب ذات مرة إلى وتنبرج فى مهمة كنسية ، وجلس إلى أميرها وتحدث معه فأعجب به الرجل إعجاباً عظيماً ، وأحبه وتوثقت بينهما من ذلك الحين صلة أكيدة سيكون لها فى مستقبل لوثر أثر عظيم .

ثم رأى رئيسه أن يوجه به إلى روما فى مهمة خاصة بالدير ، فسر بهذه الفكرة سروراً بالغاً ، وحمد الله أن أمكنته الفرصة لزيارة قدس البابوية ومزار الكاثوليكية ، مضى إلى روما تحده الآمال ، حتى أشرف على المدينة وامتلأت نفسه بالغبطة لرؤية قبابها من بعيد ، شأنه فى ذلك شأن كل حبر وثيق الإيمان ، وعجل بالمسير حتى أفضى إليها وزار حبرها وسدنتها ، وهنا أدركه هم ناصب وألم لاعج ، فما كان يحسب أن الشر يأتلف على موئل الخير فيملؤه دنساً ، وما هكذا كان يتصور ذلك الحبر الكبير وسدنة كنيسة القديس بولس وما كان يرجو أن يرى البابا ينعم من خيرات الدنيا فى هذا الفيض العميم ، وهل ينبغى للرهبان هذا الإسراف فى المعصية والإيغال فى الترف ؟ إن نفسه لتنكر هذا كله وتمتلىء منه سخطاً . وإن الحيرة لتشتد به أكثر مما كانت عشية نزل الدير منذ سنوات ، فها هو ذا يشك من جديد ويشكو حيرة النفس ، لأنه فقد أمله فى الكنيسة فلم يعد أمامه إلا أن يلتمس الهدى فى نفسه ، وأن يجد الحق فى إيمانه والرشاد فى فضيلته وحدها .

عاد الفتى إلى دراساته ، واجتهد فيها حتى حصل على الدكتوراه ، وعاد إلى ولاية فتنبرج فانتخبه أميرها فردريك ليكون أستاذاً فى جامعته ، ورضى عنه الناس فأقاموه عضواً فى مجلس بلدهم التشريعى ، وهنا ظهر لوثر بمظهره الحقيقى : بدأ استقلاله فى الرأى يبدو فى أستاذيته ، وبدأ ميله إلى الحق يتجلى فى جرأته . بدأ يلقى إلى تلاميذه آراء وأفكار لم يعهدها الطلبة من قبله ولا الأساتذة ، كان ينصرف عن النظر والجدل العقيم اللفظى والبلاغى

الذى يصرف الإنسان عن لباب الأمور ، ويأخذ يلتمس الرأى الذى يفيد الناس ويصلح من شأنهم ، ثم أخذ ينقد دراسة اللاهوت التى كانت تلقى إلى التلاميذ . وكتب فى ذلك بضع مقالات تسامع بها الناس وجرى بها ذكره على الألسن ، فتهافت إليه الطلاب من كل حدب وصوب ، وسار اسم لوثر على الألسن ، وازداد له الأمير حباً أن أذاع اسم جامعة فتنبرج وجعلها مزار الطلبة ومحط الراغبين فى العلم .

تشجع الفتى وازداد فى الحق ثقة ، وبدأ يتجه فى دروسه ودراساته اتجاه المصلح الراغب فى خدمة الحق . وبدأ يناقش ما كانت الكنيسة تسميه فى ذلك الحين بصكوك الغفران ، وكانت هذه الصكوك أوراقاً تباع للناس فيها دعوات وصلوات يدفعون شيئاً من المال ثمناً لها ، وكان المفروض أن تنفق الكنيسة هذا المال فى وجوه الخير ، فرجال الدين فى الدنيا كلها يجمعون المال من الناس لينفقوه فى وجوه الخير ، ولكن ما أدهش لوثر هو أن رجال الكنيسة كانوا يؤكدون للناس أن من يشترى هذه الأوراق ويغلى ثمنها يغفر له الله من ذنوبه بقدر ما يدفع .

وتطورت المسألة فلم يعد الناس يدفعون المال طلباً للخير وإنما طلباً للغفران ، وأصبح الناس يعتقدون أنهم يشترون مغفرة الله عما يبدر منهم من ذنوب ببضَع من المال يدفعونها للقسس ولا يعرفون مصيرها ، واستغل القسس هذا وأسرفوا فى الاستغلال حتى أصبحت أوراق الغفران تجارة صريحة رابحة . ذلك ما أنكره لوثر ولم يقبله عقله . وأنشأ يتفهمه فلم يَخْفَ عليه أن الكنيسة لم ترج به خلاص الناس وإنما زيادة الدخل وكثرة المال ، وانقلب تأمله سخطاً على الكنيسة التى تفسد أجلّ العواطف وتوطئها حتى تضعها فى الرغام .

ولو أن البابا ورجاله وقفوا من العبث بعقول الناس عند هذا الحد ، لكان من المعقول أن يسكت الناس عنه ، لأن دعاة الكنيسة كانوا يثبتون للناس بعبارات من الكتاب المقدس أن الله أباح للقديس بطرس ولمَنْ بعده من خلفائه أن يتوسطوا فى غفران الذنوب للناس ، وقد كان القسس يخترعون المناسبات لجمع المال ويلتمسون فرضها ، فكانوا مثلاً يزعمون أنهم يريدون تجديد كنيسة القديس بولس ، أو يمهدون لحرب صليبية ضد الأتراك ، ثم يدعون الناس للتبرع ويقولون للمتبرع : إن الله سيجازيك على هذا بإقفال أبواب الجحيم دونك وفتح أبواب مملكة الجنة أمامك Claudo tibi portas inferni et januas aperio paradisi

وذهب البابا ليو العاشر فى استغلال سذاجة الناس إلى أبعد من ذلك ، فزعم للناس أن من شارك فى الحرب الصليبية ضد الأتراك أو تبرع لها غفر الله له من ذنوبه ما تقدم وما تأخر .

وكان من الميسور أن تمر هذه المسألة دون أن تثير لوثر من هدوئه أو تهون عليه الخروج على البابوية ، لو أن هذه لم تندب الراهب يوهان تِتْسِلْ لجمع التبرعات وبيع أوراق الغفران فى مقاطعتى ما يِنْتِس ومجد بورج ، فقد كان تِتسل مُشَعْبِذاً يخطب الناس ويقول : « إذا أنتم سخوتم فى البذل لنا حصلتم على الغفران كاملاً غير منقوص ، وتحولت تلال أنَّابُورج إلى تلال من الفضة الخالصة ! وإن قطعة العملة إذا سقطت فى الصندوق وسمع رنينها انفكت روح من دُفعت باسمه من عقالها ومضت إلى الجنة رأساً ! » إذ لم يكن من المعقول أن يرى لوثر ذلك ويسمعه ويلحظ سخر الناس به وانخداع بعضهم فيه دون أن يتصدى له ويحاول مناقشته .

لهذا عول لوثر على التصدى لهذا الراهب المشعبذ إذا مر فى بلده ، فلم يكد هذا يصل ويمضى يذيع فى الناس خزعبلاته حتى عوَّل لوثر على العمل ، فتناول أوراقه وقضى الليل كله كاتباً . حتى إذا أشرقت شمس أول نوفمبر سنة ١٥١٧ فقد أقبل الناس على بيعتهم ، فإذا على بابها وثيقة فيها خمس وتسعون حجة على بطلان صكوك الغفران ، وقرأ الناس الحديث فلم يفهمه إلا الذين يعرفون اللاتينية منهم . وترجمت الوثيقة وتناقلتها الألسن ، وتسامع بها الناس وأخذت مطبعة الجامعة تطبعها ، وانهالت الطلبات وعملت المطبعة ليل نهار حتى تسد حاجة الراغبين فى القراءة ، ولم يكد ينقضى أسبوعان حتى علم بأمرها كل ألمانى وحتى كانت على لسان الناس جميعاً .

وكان لوثر قبل أن يقدم على هذا العمل قد أوغل فى الدرس وذهب مع المتأمل إلى مدى كشف له عن حقائق كبرى جديرة بأن تهدم الأسس التى كان يقوم عليها سلطان البابوية على نفوس الناس ، وكان قد قبس آراءه هذه عن حَبْرٍ من أكبر أحبار الكنيسة الغربية هو الراهب القديس أوغسطين . كان لوثر قد أحسَّ أن الإسراف فى الصلاة والصيام وتعذيب النفس لا تؤدى بالإنسان إلى راحة النفس وخلوص الروح للخالق جل جلاله ، وكان لايشك فى رحمة الله وفى أن الإنسان يستطيع الحصول عليها ، ولكن .. عن أى طريق ؟ فأما رجال الدين هؤلاء فلا يصلحون سبيلاً لله ، لأن معظمهم يقترفون من المعاصى ما يجعلهم

أبعد الناس عن الرحمة . فلم يبق إلا أن يحاول الإنسان الوصول إلى الله مباشرة ، ينبغى أن يؤمن الإنسان بالله لا بالكنيسة .

وتحدث لوثر فى ذلك إلى حبر جليل هو شتاوبتس قسّ إيرْفُورت ، فأيده الرجل فى ذلك ونصحه بأن ينصرف عن الكنيسة ، وأن يجعل صلته بالله دون وسيط كما نفعل نحن المسلمين . ومن هنا وقر فى نفس لوثر أن الأعمال التى تنصح بها الكنيسة ، من الحج إلى روما وإهداء الشموع إلى الكنائس وتقديس مخلفات الرسل ، إن هى إلا عقبات تحول بين الإنسان وخالقه . إن الإيمان بالله وحده هو سبيل الرحمة ، ورحمة الله هى الجزاء الوفاق للمؤمن . فإذا انتهى لوثر إلى ذلك فقد وجد أن واجبه الأول هو الخروج من الكنيسة التى تحول بينه وبين الخلاص ، وتضع نفسها بين المخلوق والخالق .

وكان معنى ذلك أن الرجل عول على إعلان خروجه عن الكنيسة فى أول فرصة تسنح له، ولم يكن ذلك بالأمر البسيط ، بل كان الناس يعتبرونه رِدَّةً عن الدين تبيح للكنيسة وللحكومة إهدار دمه ، ولم يكن من اليسير على رجل أن يتعرض لمثل ذلك إلا إذا كان فى نفسه من الإيمان ما يهون عليه عقابيل مثل هذه المخاطرة ، لأن القول بأن الكنيسة والبابوية تحولان بين الناس ورحمة الله معناه اعتبارهما خارجتين عن الدين ، واعتبار البابا عدو للمسيح ، واعتبار روما بلداً كافراً ينبغى على المؤمنين الانصراف عنه بل هدمه ، وكان من الطبيعى أن تتوجه البابوية بكل حولها للقضاء على رجل يقول بمثل هذه الدعوة ، ولم يكن من المعقول أن يتعرض إنسان لمثل هذا الخطر وهو يعتقد أنه أقوى من الكنيسة ورجالها مجتمعين !.

ثم إن دعوى لوثر ضد أوراق الغفران أعقبها كف الناس عن شرائها مما أدى إلى نقص عظيم فى دخل الكنيسة . عرف الناس أن شراء الصكوك بدعة باطلة فأنكروها وامتنعوا عنها ، وحاول الرهبان أن يردوهم إلى الإيمان بها فلم يقوَ باطلهم على حق لوثر ، وأدركهم اليأس وفكروا فى الاستنجاد بالبابا ، فبعثوا بنسخة من احتجاج لوثر إلى روما ، واستمع البابا إلى الأخبار وهو يبتسم ـ وكان ثعلباً ماكراً من أسرة مديتشى ـ وتليت عليه ردود لوثر فسخر منها ومن صاحبها ، ثم قال لمن معه : « لا أحسب أن لوثر هذا عبقرى عظيم ! » ثم تمطى فى مجلسه وأهاب بأتباعه أن ينهضوا للرد على هذا المتبجح ، فانهال الرهبان بكتاباتهم يردون

بها على لوثر ، فصمد لهم وقام لهم بالحجة حتى ريع الرهبان وتوجهوا إلى البابا بالشكوى ، وأضرب الناس عن صكوك الغفران فلم يعد يشتريها أحد ، وأحس البابا أن لوثر هذا يجب أن يحارب وأن دعايته يجب أن تبطل .

هكذا استطاع هذا الرجل الواحد الذى نشأ فى ركن من أركان ألمانيا فى قرية أيزْليبن أن يزعزع الكاثوليكية كلها والبابوية بجلالها ، وإذا البابا يستدعيه ، وإذا أصحاب لوثر ينصحونه بأن لا يخف إلى روما وإلا كانت النار مصيره كما كانت مصير سابقه « هُوسْ » الذى أحرق فى بوهيميا جزاء له على الصراحة فى القول والحرية فى الفكر ، وإذا بأمير سكسونيا يرفض تسليمه لرجل البابا ، ويطلب أن تكون مناقشة لوثر فى ألمانيا نفسها فى المجمع الألمانى فى أوجْزبُورج . ووافق البابا ، وانتدب طائفة من أعرف القسيسين بالفقه وأخبرهم بالمناقشة ، ووجههم إلى لوثر . ودارت المناقشة فى ردهة المجمع ، فإذا الحق يعلو والباطل يخبو ، وإذا برسل البابا يطأطئون الرأس أمام حق لوثر ، وإذا المجمع يعلن انتصار الحق ، وإذا الأمير يقسم ليحمين لوثر مهما كلفه ذلك من جهد ، وإذا لوثر يطبع مناقشته فى كتاب ويذيعه على الناس فتشتد الحماسة له ويحفل ركبه بالتابعين .

هنالك ينتدب البابا راهباً ممتازاً اسمه منلر ليفاوض لوثر ، فيفشل الراهب الممتاز فينتدب غيره فيفشل ، ويعود فيعلن فى روما أن حركة لوثر ليست حركة فرد بل ثورة الأمة الألمانية كلها على البابوية الإيطالية . وما كانت هذه البابوية إذ ذاك إلا قيصرية لها على حياة الناس من السلطان مالا يطمع فيه قيصر أو إمبراطور ، وكان الألمان قد خضعوا لهذا السلطان وأخلصوا فى ذلك ظناً منهم أن المسألة مسألة دين ، وحاولوا فى أوخر القرن العاشر أن ينقلوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى بلادهم فوفّقوا فى ظلال أتو الكبير ، ولكن البابوية نهضت لهم وظلت تنافحهم حتى غلبتهم وردتهم إلى الطاعة ، وظلوا فى حدود الطاعة بعد هذه الهزيمة تبحث نفوسهم عن مخرج أو مهرب من هذا السلطان المستبد ، فلم يكد لوثر يرسل نداءه حتى دوَّى فى نفس كل ألمانى ، وأسرع الناس لتأييده لأنه لم يكن مجرد نداء دينى بل نداء وطنياً فى الواقع ، وجدت النفس الألمانية فيه تحقيقاً لحلم قديم ، ومخلصاً من استبداد إيطالى طال أمده وبعد مداه .

ورأى لوثر أن الشعب بدأ يتطلع إليه ويستمع إلى حديثه ، فشحذ قلمه ومضى يكتب

ويكتب حتى عمت كتاباته ألمانيا كلها ، كتب رسالة جليلة بعنوان : « حول حرية رجل مسيحى VON der Freiheit eines christichen Menschen » .فأثار كوامن النفوس التى استبعدتها الخرافات ، ثم كتب كتاباً عنوانه : « خطاب إلى نبلاء الشعب الألمانى المسيحى An der christichen Adel der deutschen Nation » فهز سكان القصور هزًّا ، وأعقب ذلك بكتاب باللاتينية إلى البابا جعل عنوانه : «مدخل فى الأسر البابلى للكنيسة De captivitate Babylonica Ecclesiae praeludium » قال فيه إن البابوية أسيرة فى يد الكفر وأنها لن تزال فى اختلال ما دامت تصر على أن تجعل نفسها وسيطة بين الله والناس ، وعلى أن تجعل نفسها قيصرية ذات بلاط مترف لايقل ترفاً ولا فساداً عن أشد الناس انصرافاً إلى الدنيا وأكثرهم إيغالاً فى الشر والفساد .

وقد ختم كتابه الأول : « حول حرية رجل مسيحى » بهذه العبارة ، يخاطب بها البابا ليو العاشر : « فأنت ترى الآن أى شىء تكون جماعة رجال الكنيسة الرومانيةcuria Romana ولست تستطيع ، ولا يستطيع أحد غيرك أن ينكر أنها أشد فساداً من بابل وسَدُوم . لقد أعلنت سخطى ، ولقد أنكرت أن يغرر بالشعب المسيحى باسمك وباسم الكنيسة الرومانية . ولهذا قاومت وسأقيم على المقاومة مادام روح الإيمان يعمر كيانى » . وهذه كلمات لو قالها رجل من المفكرين لما قنعت الكنيسة بأقل من إحراقه ، فكيف وقائلها راهب من رجال الدين ! ومن الطبيعى أن تثور عليه الكنيسة ثورة بالغة ، وأن يبلغ بالبابا الغضب كل مبلغ ، فيتناول قلمه ويكتب وثيقة يحرم بها لوثر من رحمة الله ! .

أتدرى كيف قابل لوثر ذلك ؟ كيف صنع بهذا القرار الذى كان يهز دولاً من أقصاها إلى أقصاها ؟ لقد اعتصم بالحق فى نفسه واعتصم بالهدى من ربه ، ونادى طلبته وأتباعه وأحرق أمامهم وأمام الناس أجمعين نص الحرمان فى العاشر من ديسمبر سنة ١٥٢٠ .

عجزت أسلحة البابوية عن أن تثبت لهذا الرجل ، فلم يبق لها إلا أن تستعين بالقوة ، فلجأت إلى الإمبراطور . وكان شارل الخامس إذ ذاك فتى يافعاً يزهى بغرور العرش ويحرص على مظاهر السلطان ، كان فتى هولندياً فى التاسعة عشرة من عمره ، وكان قد رقى العرش بعد أن فرَّق فى الناس مالاً طائلاً وكسبهم إلى صفه بمؤامرات لا تنتهى ، وكان فى حاجة إلى

البابا ورجال الدين حتى يؤيدوا عرشه ضد الطامعين فيه ، وكان ينتمى إلى بيت الهابْسبورج، وكان راعياً للكنيسة لأنه إمبراطور الدولة المقدسة ، ولو أنه كان بعيد الذهن لانضم إلى لوثر وكسب بذلك تأييد الجانب القوى من رعاياه وهم الألمان وأهل الشمال كافة ، ولكنه « ضيع الفرصة التى سنحت له » كما قال نابليون فيما بعد ، وأعلن تأييده للبابويين وقرر محاربة لوثر وأنصاره ، فأوقع دولته فى أزمة أدت إلى حروب أضعفتها وقضت على هيبتها .

بدأ الإمبراطور شارل الخامس فنادى لوثر لمناقشته فى مجمع وُرْمْزُ ، فكتب لوثر يؤكد له أنه مستعد للذهاب إلى ورمز على شريطة أن لا يحتج عليه المناقشون بآراء أصدرتها المجامع الدينية من قبل ، لأنه يعتقد أن كل المجامع الدينية كانت عبثاً وأن قراراتها كلها ضلال ، وأن الحجج الوحيدة التى يقبلها هى التى تعتمد على نصوص صريحة من الكتابات المقدسة وحدها . وَرُوِّع أنصار لوثر من ذلك ونبهوه إلى أن هذه الدعوة إن هى إلا شرك من شراك البابوية ، وأن الإمبراطور لا يكاد يمسك به حتى يحرقه ، ولكن لوثر أبى أن يتراجع ومضى إلى وُرمز واخترق الجنود والناس يحيونه حتى اتخذ مكانه فى المجلس . وبدأت المناقشة وحمى وطيسها ، وعلت حجته وبدا للبابويين أنهم منهزمون ، فأشاروا على الإمبراطور فأهدر دم لوثر ووضعه خارج القانون .

ولو ترك لوثر وحده فى هذه الآونة لاغتاله أعداؤه ، ولو أنه لم يجد أصدقاء مخلصين وحماة ذوى حول وميداناً ينشر فيه آراءه لضاع أمره ولأخفقت حركته فى مهدها ، ولكن الله يسر له هذه الثلاثة على أحسن حال .

فأما الحماية فقد وجدها فى كنف الأمير « فردريك العاقل » منتخب سكسونيا ، ولم يكن أميراً قوياً ولا بارع الذكاء ، وإنما كان أميراً عاقلاً رزيناً كريم القلب ، آمن بما ألقى إليه لوثر وشعر أن واجبه كأب وأمير هو أن يحميه من أعدائه الموغلين فى العناد والضلال ، وكان شديد الفخر بجامعته التى أنشأها فى فتنبرج والتى كان لوثر أحد أساتذتها . ولولا هذه الحماية التى بَسَط رواقها على المصلح المجدد لما استطاع هذا أن يفوز بالوقت والهدوء اللازمين لكسب الأنصار للدعوة ووضع الأسس المكينة لها .

وأما الأصدقاء فكان فيهم رجل مثل فيليب ميلانكتون ، رجل واسع الذهن والقلب والمعرفة، يتحدث عنه لوثر فيقول : « كنت جلفاً كثير الضوضاء تثور فى نفسى العواصف وأتشوق إلى الكفاح تشوقاً ، وقد برأنى الله على طبع كفيل بأن يعيننى على حرب عدد لايحصى من الجبابرة والشياطين ، وأن أقتلع الجذور والأحجار وأن أجتث الشوك والقتاد ، وأن أزيل أشجار الغابات الواسعة ، ولكن الأستاذ فيليب أقبل على رقيقاً عطوفاً مستبشراً بما وهبه الله من صفات أفاض الله خيراتها عليه ... » ، وكان أستاذاً فى اليونانية فقدم للوثر كتاباً جمع فيه عبارات الإنجيل التى تتصل بالأسس القويمة التى ينبغى أن تقوم عليها الكنيسة الصحيحة وسماه : « Loci Communes » ، وكان هذا الكتاب على صغر حجمه أول كتاب ظهر منذ قرون شاملاً لأصول المسيحية مأخوذة من الإنجيل وحده كما قال ليوبولد فون رانكه أبو التاريخ الحديث .

أما الميدان فكان جامعة فتنبرج التى أصبحت مركز تعاليم لوثر ، وأخذت تتحدى التعاليم التقليدية التى كانت الجامعات القديمة الكبيرة ـ مثل السوربون ـ تصر عليها . إلى هذه الجامعة خف الناس من كل صوب ليأخذوا أصول الإصلاح الدينى العظيم عن لوثر وزملائه ، وفى رحابها ألفت المؤلفات الكثيرة فى تأييد العقيدة الجديدة ، وتحت سقفها ولد الشعور القومى الألمانى فى أثناء الحركة اللوثرية ، وفيها ظهرت أوائل الكتب باللغة الألمانية. ومن موارد هذه الجامعة استقى بعض طلبة الإنجليز مبادىء البروتستنتية التى ستنتهى بفصل إنجلترا عن البابوية وتحريرها من أثقال الكاثوليكية .

قضى لوثر فى معتزله سنتين ، قرأ فيهما الإنجيل بالعبرية . فازداد سخطه على الكنيسة وتمثل له الأذى الذى تنزله بالناس والخداع الذى تطويهم فى أحابيله حين تقدم إليهم نسخة من الإنجيل ملأى بالأغاليط فإذا أراد أحد تصحيحها غضبت واتهمته بالمروق عن العقيدة والخروج عن الدين ، فأخذ يترجم الإنجيل إلى الألمانية ، وفرغ من الترجمة فإذا هى آية فى الصدق والبلاغة حتى ليقال إنها أبلغ ما كتب الألمان نثراً . وكانت هذه الترجمة مظهراً آخر من مظاهر القومية ، وقيام لوثر بها يجعل له مكاناً بين آباء الشعب الألمانى وواضعى أسس نهضته .

ولقد طالت غيبة لوثر فى هذا المعتزل حتى حسب الناس أنه قد مات ، فثار أنصاره

وانقسمت ألمانيا قسمين : البابويين واللوثريين (المحتجين أو البروتستنت) ودارت رحى الحرب بين الفريقين .

كان لوثر رجلاً هادئاً يكره القتال والثورة ، ويحب أن يمضى فى إصلاحه هادئاً ، ولكن الناس تعصبوا له فقام الفلاحون بالثورة ، وكانت مطالبهم عادلة من غير شك : كانوا يريدون أن يتخففوا مما كان الأمراء والأغنياء يثقلون عليهم به من ضرائب ومغارم ، وكان حرياً بلوثر أن يقف إلى جانبهم ، ولكنه روع حينما أتته أخبار ثورتهم وعسفهم بمن وقع فى يدهم من الأمراء والأغنياء ، وقد كان حرياً به أن يسرع إليهم ليرى أسباب سخطهم ويحاول إقناع الأمراء بأن يمنحوهم ما كانوا يطالبون به من حقوق ، ولكنه أخطأ وظن أن انضمامه للأمراء يقر الأمن ويقضى على الفتنة ، ومن ثم أخذ جانب الأمراء وعضدهم فيما أنزلوه بالفلاحين المساكين ، فأصابهم شر كبير ، وأصاب الوطن الألمانى من وراء ذلك بلاء شديد.

ولو أن لوثر انضم إلى الفلاحين لانتصرت حركتهم وخلصت ألمانيا من عقابيل العصور الوسطى من زمن مبكر جداً ، ولكنه أخطأ وأضلته السياسة ، فانتصر الأمراء وسيطرت على البلاد إقطاعية العصور الوسطى ، ولم تتخلص منها إلا خلال الحرب العالمية الأولى ، وذلك خطأ منه لا يشفع له فيه إلا جهلة بالسياسة وعجزة عن فهم أسرار تطور الأمم . والغالب أنه انضم إلى الأمراء لأنه كان يكره الثورات وسفك الدماء ، أو لأنه كان يحب أن يسود النظام بأى ثمن ، حتى لا تصبح البروتستانتية مرادفة للفوضى ، وحتى تستطيع تنظيم أمورها والثبات لحرب الكاثوليكية . ولم يوفق الرجل حتى إلى ذلك ، إذ استمرت الحرب قرنين من الزمان ، ثم انتهت بانقسام البلاد قسمين : قسم للبروتستنتيين ، وقسم للكاثوليك .

ما كان لوثر المطمئن ليريد هذا ، إنه ليتأمل الفتنة الصارخة والمذبحة الدامية فيحز فى نفسه الألم ، وإنه ليرجو الناس أن يخلدوا إلى السكينة فيرفضوا ، ويشتد الأوار ويحتدم القتال وتكثر الضحايا ، ويعظم الأمر على لوثر فينزوى ، ويشتد به المرض فيموت فى سنة ١٥٤٦ .

بعد مائة واثنين وعشرين عاماً من وفاته عقد صلح وستفاليا المعروف ، سنة ١٦٦٨ ، به ثبتت قدم البروتستنتية ، وبدأ الناس يجنون ثمار جهد هذا الرجل المتواضع الجليل . فلما عاد السلام وهبت الريح رخاءً نظر الناس إلى هذا الذى جاهد وتعذب فى سبيلهم وقادهم فى حلكة الفتن والضلال ، فعرفوا أنه أنشأ عصراً جديداً وعالماً جديداً ، بل حضارة جديدة .

أوليفر كروموبل

حياة تغرى بالسعى إلى المجد وتبعث الأمل ، وجهاد يملأ النفس عـزة وإيماناً بقوة الخير ورجل هو الإيمان ظاهراً والإيمان باطناً ، وهو البطولة الصادقة الأصيلة التى تتحدث عن نفسها بغير حاجة إلى تعمق فى درسها أو مبالغة فى وصفها . لا تكاد تقرأ سيرة من سيره الكثيرة حتى تؤخذ نفسك بما ركب الله فى هذه النفس من الإيمان ، وما فطرها عليه مـن البساطـة والاستقامة ، وما اقتدرت عليه من جليل العمل فى غير تكلف ولا طول تدبير ، ولا تكاد تمضى فى صحبته قليلاً حتى يدركك العجب من إنكاره نفسه ونسيانه ذاته ، حتى كأنما كان يشعر أن نفسه فى غير حاجة إلى رعاية ، وأن ذاته لا تستحق التفاتاً .

ولقد روى لنا نبأه كارليل فى أسلوبه الشامخ الذى يفيض قوة وجمالاً ، وكشف لنا عن أسرار نفسه ومواطن بطولته بفكره النفاذ وعقله القادر ، ولا يزال صدى حديثه باقياً فى النفس يعاودها برنينه الفخم وأسلوبه الساحر . ولقد كنا نحسب أن معظم السحر إنما يرجع إلى أسلوب كارليل ، فلما قرأنا أخبار كروموبل عند غيره استبان لنا أن الجمال فى شخصية كروموبل كان سر جمال أسلوب كارليل ، لأن البلاغة لا تكون بلاغة إلا إذا ضمت حقاً ، وأن معظم القوة فى كلام كارليل إنما مرجعها إلى أنه كان يتخير الموضوع الصادق القوى الذى تزيده البلاغة صدقاً وقوة .

* * *

نشأ أوليفر كروموبل فى أسرة طيبة ذات مال وجاه ، ونشأ فارساً شجاعاً تقيا مسرفاً فى التقى ، لا يكاد يفرّط فى نافلة من نوافل العبادة ، وانصرف إلى ما كان ينصرف إليه أمثاله من

البيوريتان الإنجليز من العمل المتواصل لكى ينمى ثروته ، وكان هؤلاء البيوريتان طوائف من المتشددين فى الدين يؤمنون إيماناً لا يناله الشك فى أن المؤمن ينبغى أن يكون خالص النفس طاهر الدين ظاهرا وباطناً . ولا سبيل إلى تطهير النفس إلا بالعمل والاجتهاد فى عمار الأرض ، فالعمل الشريف الذى يؤدى إلى الكسب يعتبر عملاً دينياً أو صلاة فى نظرهم .

وهم يعتقدون أن انصراف الإنسان لعمله وإنفاقه وقته فى تجويد هذا العمل يصونانه عن الكسل ويحميانه من الفقر ، وهما ـ أى الكسل والفقر ـ فى نظرهم لعنتان من الله ، فالكسول الذى لا يجتهد فى كسب رزقه وزيادة أرباحه وتعمير الأرض رجل دَنِس غير جدير برحمة الله أو بعطف الناس ، وهو لهذا محتقر عندهم ، مشكوك فى خلقه ودينه . والفقير الذى فشل فى تحصيل الثروة والفرار من مخالب الفاقة إنسان لا يستمتع بشىء من رحمة الله ، ولو رضى الله عنه لأغناه ، إذ لا معنى لأن يكون الله راضياً عنه ثم يتعقبه بالفشل ويثقل عليه بالفقر والحاجة حتى يهبط به إلى احتقار الناس .

من ثم كان هؤلاء البيوريتان جميعاً على مال يتراوح بين الكفاية والغنى ، ثم إنهم كانوا يعتقدون أن المؤمن الصحيح ينبغى أن يكون متقشفاً ، فلا يسرف فى نعيم ولا يبالغ فيما يأذن به لنفسه من ألوان الرفاهية . ولما كانوا يعملون بلا انقطاع ولا ينفقون إلا القليل مما يربحونه، فقد اجتمعت لديهم الأموال وأصبحوا من أوفر أهل الأرض مالا وأقدرهم على القيام بالمشاريع المالية كالشركات الضخمة والمؤسسات التى تحتاج إلى المبالغ الوفيرة ، يجمعونها فيما بينهم ويؤسسون بها شركات كبرى ، فأصبحوا لذلك قوة مالية يحسب حسابها .

فلما استبد ملوك الإنجليز بشئون الضرائب وأخذوا يزيدون فى مقاديرها ، بدأت طوائف البيوريتان تفكر فى إيقاف ذلك الاستبداد وتتحفز للدفاع عن أموالها ضد الملوك ورجالهم ، وزاد فى سخطهم تدخل الملوك فى شئون العقيدة ، فلم يبق فى قوس صبرهم منزع ، وأصبحوا على أهبة الثورة ، ولم تعوزهم إلا مناسبة تطلق غضبهم من عقاله وتنقلهم من الغضب الساكن إلى الثورة المتفجرة .

ولم تكن البلاد موحدة التوحيد الكامل التام الذى تظهر به اليوم : كان النظام الإقطاعى باقياً ما يزال أساساً لنظام إنجلترا السياسى ، كان فى كل ناحية شريفها يقيم فى قلعة إقطاعية حصينة يحيط به عدد من الفرسان خاضعين لأمره مستعدين لقتال من يخاصمه ، وكان سلطانه على القاطنين فى منطقته عظيما ، وكانت الحرب بين الأشراف متصلة لا تكاد تنقطع .

وربما اجتمع عدد من الأشراف وكونوا حلفاً فى ناحية من النواحى للتعاون على إقامة الأمن أو لحماية أنفسهم من أعدائهم ، وكانت المدن ناشئة ما يزال معظمها آخذاً بسبيل القوة ماضياً فى طريق الثروة بفضل الصناعة والتجارة ، وكانت هذه المدن تقتطع حقوقها من الأشراف اقتطاعاً ، وربما اشترتها بالمال . وكانت تستعين بالملك فى لندن وتستمنحه سلطانها وحقوقها ، وتوثق صلاتها به لكى يحميها من الأشراف المحيطين بها ، لأن مطامعهم كانت لا تكاد تتوقف أو تعرف حداً ؛ ومن ثم انعقد الولاء بين الملوك وأهل المدن الناشئة ومن فيها من التجار وأصحاب الصناعات . وكان الملك يرسل إليها قضاته وعماله ، فأصبحت المدن مع الزمن معاقلَ الملكية فى منازعاتها مع الأشراف .

وكان هذا من أسباب التوازن السياسى الذى امتازت به إنجلترا دون غيرها من الأمم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر : فإن قوة الملك لم تبلغ مبلغ السيطرة الشاملة كما كان الحال فى فرنسا : وقوة الأشراف لم تبلغ مبلغ سلطان الأشراف فى الإمارات الألمانية . فقد أصبحت فرنسا آخر الأمر ملكية مستبدة غاشمة ، وأصبحت ألمانيا مجموعة لا حصر لها من الإمارات فى كل منها دويلة وأمير ، أما فى إنجلترا فقد سار النظامان جنباً لجنب : الأشراف فى نواحيهم يعملون على تحسينها وترقيتها والنهوض بها لكى تشد أزرهم ساعة الخطر ، والملوك فى لندن يحاولون بسط سلطانهم والاستعانة بأهل المدن وماليهم من المال فيما يشجر بينهم وبين الأشراف من نزاع ولكى يؤكدوا نفوذهم فى النواحى .

إلى هذا أيضاً نستطيع أن نرد قوة البرلمان الإنجليزى وما وصل إليه من سلطان فى زمن مبكر ، إذا قيس إلى البرلمانات ومجالس الشعب فى فرنسا وألمانيا . فقد انمحى النظام البرلمانى فى فرنسا فعلاً بسبب ما كان للملك من سلطان شامل ، وتحولت المجالس الألمانية إلى مجالس أمراء ليس للشعب فيها نصيب ، أما البرلمان الإنجليزى فقد وقف فيه

الأشراف أمام مندوبى المدن ـ وكانوا فى الغالب فرساناً ـ وجهاً لوجه يتنافسون ويقوِّمُ بعضهم بعضاً ، لا يكاد الأشراف يحاولون طغياناً حتى ينهض لهم نواب المدن يؤيدهم الملك فيردوهم إلى الصواب ، ولو حاول الملوك الاستبداد يؤيدهم أحلافهم وأنصارهم لوقف أمامهم الأشراف يناجزونهم ، فسارت السفينة بين هذين التيارين فى جو من الأمان ، وأخذ الفرد يكسب حرياته واحدة واحدة مع الأيام .

وأقبلت الأخطار الخارجية ـ الحروب مع فرنسا وهولندا وإسبانيا ، ثم النزاع مع البابوية فى روما ـ تربط الحزبين أحدهما بالآخر وتقوى أواصر الوحدة القومية فى البلاد ، فكانت إنجلترا إذا اشتبكت مع عدو خارجى ـ مثل إسبانيا مثلاً ـ فى حرب، اتحدت الطوائف الإنجليزية كلها للدفاع عن مصالحها أمام العدو : أهل المدن والموانى يريدون أن يؤمنوا متاجرهم وسفنهم ، وأشراف النواحى يؤازرون المدن التى تمدهم بما هم بحاجة إليه من مصنوعات ، والملك من ورائهم جميعاً يحمى تاجه وسمعة بلاده .

وأعانتهم العزلة فى الجزيرة على الشعور بهذه الوحدة ، فتضامت الصفوف وأصبحت البلاد رغم تفرقها فى الداخل جبهة واحدة أمام أى خصم خارجى ، بل أصبحت هذه الوحدة أعز على أهلها من مسائل العقيدة ، فإذا اختلف ملكهم مع البابا نصروا الملك وآزروه فيما أراد من الاستقلال بكنيسة إنجلترا كما حدث أيام هنرى الثامن ، وأصبحوا ينظرون إلى من تهفو نفسه إلى بابا روما كأنه أجنبى لا يؤمن غدرُه ، وسموه كاثوليكياً رومانيا ، وربما اضطُهد وأوذى لا لشىء إلا لأنه باق على الولاء لأمير أجنبى هو البابا فى روما .

من ثَم لا غرابةَ أن يشهد الإنسان فى إنجلترا فى هذا القرن السابع عشر صوراً عنيفة من الاضطهاد الدينى ، لأن البيوريتان كانوا متشددين لا يكادون يطيقون أن يخالفهم أحد فى شئون العقيدة . ولم تكن أصول البيوريتانية محددة إذ ذاك ، وكان المؤمنون بها يتفاوتون : من المتعصب البالغ التعصب إلى الحر الواسع الذهن ، وظهرت منهم طوائف بلغت فى التشدد والتعصب مبلغاً لا يكاد يقاس إليه تشدد الحنابلة فى الإسلام مثلاً .

فى أعطاف واحدةٍ من هذه الطوائف نشأ أوليفر كرومويل ، نشأ بيوريتانيا متعصباً ،

وكان بطبعه حاسماً بتاراً لا يعرف الحلول الوسطى ، وإنما يلزم رأيه لا يتزحزح عنه ، ويكافح دونه كفاح الموت ، وكان قد تتلمذ لأستاذ من المتشددين يعتقد أن الله يتدخل فى شئون البشر لعقاب الشرير ، وأن الكتاب المقدس هو كلام الله الصريح ، وأن الإنسان يجد فى كلماته كل ماهو بحاجة إليه من توجيه فى شئون الدنيا ، فآمن كرومويل بذلك إيماناً بالغاً ، وجعل الكتاب المقدس دستورَ حياته .

وقد بالغ فى ذلك مبالغة جعلته مثلا يتندر به ، فقد كان يحمل الكتاب المقدس لا يكاد يسير خطوة بدونه ، وكان لا ينفك يقرأه ويعلق على عباراته تعليق المتأمل المتعمق ، وكان لا يكاد يحرك قدماً فى سبيل أو يداً فى عمل إلا تلا الفقرة أو الفقرات من الكتاب المقدس يؤيد بها عمله ، وكان إذا صف جنوده للحرب تخير عبارة من هذا الكتاب يهتف بها أمام جنده ويرددها وهو فى حماسة الهجوم وعنفوان المعركة ، وكان إذا أشكل عليه أمر أو حزبته معضلة لم يأخذ يدرس ويفكر ويوازن على نحو ما يفعل غيره من السياسيين أو رجال الحرب ، بل يأخذ يطالع فى الكتاب باحثاً فى فقراته وقصصه عن الرأى الصواب ، فلايلبث أن يجده ! .

وكان إذا وقف يخطب لم يحاول أن يؤثر فى قلوب سامعيه بالبلاغة والمنطق ، بل يمضى يتحدث فى أسلوب غامض هو أشبه ما يكون بأسلوب الكتاب المقدس ، ويروى أقاصيص وأخباراً من العهد القديم أو العهد الجديد ، وكان هذا الأسلوب من الحديث أفعلَ فى نفوس سامعيه من بلاغة البليغ أو وضوح المتحدث الفاقه لما يقول ؛ ولا غرابة فى ذلك فقد كان معظم من حوله من طرازه .

وكانت الترجمة الإنجليزية للإنجيل جديدة فى أيدى الناس ، وكانوا لهذا مفتونين بأسلوبه فى التعبير وبطريقته فى التصوير ، وكان المتشددون فى العقيدة من البيوريتان أشد الناس فتنة بالكتاب المقدس وأكثرهم استعمالاً لعباراته وإعجاباً بغموضه ، وكان كرومويل قد أشبع روحه بروح الإنجيل وفكره بأسلوبه ، فكان إذا تكلم سحر الناس بكلامه ، على قلة ما لهذا الكلام من البلاغة والجمال .

ولكنه كان يمتاز عمن حوله بأنه كان عملياً . كان يعرف ماذا يريد وماذا ينبغى أن

يعمل لتحقيقه ومتى وكيف يعمله ، فبينما كان من حوله خياليين يرون الغاية ولا يعرفون السبيل إلى تحقيقها ، كان هو يحدد لنفسه أهدافاً قريبة محدودة ويرسم لنفسه خطة التنفيذ فإذا بلغ هدفاً تراءى له ما يليه فأنفذه ، وبهذا وحده استطاع أن يحقق أغراضاً بعيدة كان الناس من حوله يعتبرونها خيالاً .

وقد قيل إنه كان يرسم الخطط البعيدة ويطويها فى نفسه ليخذل الناس أو ليصرفهم عن منافسته ، ووقر فى نفوسهم أنه منافق يخدع الناس عن مراميه ويتظاهر بما ليس فى نفسه ، وأيد ظنونهم ما رأوا من استعماله فقرات من الإنجيل فى كل مناسبة وتفسيرها على النحو الذى يهوى ، وبدرت منه فى حياته بوادر يستطيع الإنسان تفسيرها بالغدر والانقلاب ، فأيد ذلك ظنون هؤلاء الناقدين .

والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يتهمه بالنفاق ، وإن كان لا يستطيع أن يزعم أنه كان صريحاً واضحاً دائماً ، ولكنه لم يكن شريراً على أى حال . إنما كان الرجل يؤمن بما يعمل إيماناً يدفعه إلى العنف فى تنفيذه كاملاً غير منقوص ، فربما حاصر حصناً حتى اضطر من فيه إلى التسليم ، فوضع فيهم السيف حتى أفناهم ، فأنكر ذلك معاصروه ورأوا فيه مالايتفق مع شهامة الفارس المسيحى ، ولعلنا لو عرفنا ظروفه لتبينا أنه كان مضطراً إلى ذلك فقد كان يخشى دائماً أن يفلت أحد خصومه فيذيقه الويلات فيما بعد .

وربما جاز أن نرد ذلك إلى طبيعته العملية ، لأن الرجل العملى بتارٌ سريع التنفيذ ، وقد توقعه العجلة والحمية فيما يؤسف له . ولا يشذ كروميل فى هذا عن غيره من المتحمسين الذين يتفانون فى سبيل عقيدة أو فى سبيل غاية ، وكان هؤلاء يصرفهم الهدف عما عداه ، وتغلق العقيدة المتمكنة قلوبهم عن فهم غيرها من العقائد .

* * *

ومن طريف الأمر أنه ظل حتى بلغ الثلاثين من عمره مطمئناً إلى لون من الدعة وخمول الاسم ،لا يميزه شىء عن غيره من المزارعين الموسرين ، وقد وصفه بعض من رآه فى سنة ١٦٤٠ فذكر « أن مظهره كان عادياً لا يتحدث عن تفوق فى ذكاء أو امتياز فى شخصية ،

وأنه كان يرتدى ملابس خشنة ريفية من الكتان الصافى ، وأن قبعته كانت مما يلبسه صغار الفلاحين لا يزينها شريط » .

كان كروموبل من أهل هذه الطبقة الموسرة العاملة التى كانت تسمى بالجنترى ، وكان يقضى معظم وقته فى مباشرة أعماله وفى التعبد، والقراءة ، وكان إلى ذلك ذا ولع بالخيل ، فكان ينفق وقتاً طويلاً على صهوة جواده . وانصرف بعض الوقت إلى مطالعة أخبار الحروب حتى ألم بشىء كثير من شئون الحرب وأصول قيادة المعارك ، ولكنه ظل رغم ذلك كله مطمئناً إلى حياته قانعاً بما أفاض الله عليه من سعة الرزق وخفض الحال ، فظل خاملاً لايسمع له صوت ولا يرجو إنسان له مستقبلاً . دخل البرلمان مرتين : الأولى سنة ١٦٢٨ والثانية ١٦٤٠ ، ولكنه لم يفعل فى المرتين شيئاً ، شأنه فى ذلك شأن غيره من موسرى الريف الإنجليزى الذين كانوا يذهبون إلى البرلمان طلباً لشرف النيابة لا رغبة فى النهوض بتكاليفها .

وكان ملوك أسرة ستيوارت مستبدين بشئون البلاد ، لا يغادرون لأعضاء البرلمان جانباً من السلطة أو حقاً فى رأى يقوّمون به ما عسى أن يطرأ على شئون الدولة من اعوجاج ، وكان فيهم إلى جانب ذلك عنف وجهل بالطباع البشرية ، فنفرت منهم النفوس . وقد كان آل تيودور من قبلهم يستبدون ولكن فى سياسة ، ويطغون ولكن فى حسن تصرف وكياسة ، فلم ينكر الناس عليهم شيئاً كثيراً ، فلما أقبل آل ستيوارت هؤلاء مضوا فى الناس على أسلوب يشعر بعدم المبالاة ، وقد أورثهم أصلهم الأسكتلندى حدة وشراسة ، وكانوا إلى ذلك متعصبين لمذهبهم البروتستنتى ، فجعلوا يعهدون إلى الموالين لهم من رجال الدين بالوظائف وفى إدارة النواحى ، فزاد ذلك من نفور الناس منهم ، لأن رجل الدين إذا تناول مالا ينبغى له من شؤون الدنيا لم يلبث أن يقع فى أخطاء تزيد على ما يقع فيه غيره . ولازال آل ستيوارت هؤلاء ينفرون الناس حتى عجز النواب عن أن يخفوا إنكارهم لهذا الطغيان ، فبدأت المعارضة تشتد ، ولم يحاول الملوك تقصى مواضع الشكوى لإزالتها وكسب القلوب وإنما كانوا إذا أغضبهم من البرلمان شىء أغلقوه وسرّحوا نوابه .

وكان كروموبل يرقب هذا الاستبداد الغاشم الذى كان مواطنوه يُرغمون عليه ، وكانت

نفسه تنكره ، فجعل من حينه يميل إلى ناحية المعارضة ، فلما اختلف الملك شارل الأول مع النواب وألغى البرلمان القصير العمر ثم عبث بالبرلمان الطويل المدى ، ضاق ذرع كرومويل ، وبدأت نفسه تحدّثه بالثورة . ولما قام النواب بمظاهرتهم الكبرى بعد ذلك لإرهاب الملك انضم كرومويل إلى المتظاهرين ، وأقسم ليغادرن إنجلترا إذا لم يُجَب النواب إلى ما طلبوا ، ولكنه لم يلبث أن استبان أن البرلمان عاجز عن أن يفرض احترامه على الملك لأن أعضاءه غير عمليين ، فهم ينفقون وقتهم فى مناقشات لا طائل وراءها ، ثم إنهم لم يكونوا مخلصين فيما يبدونه من مظاهر المعارضة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولم يكن لهم جيش قوى يستطيعون الاعتماد عليه . فأدرك كرومويل أن الموقف لا ينجلى إلا بحرب يعلنها البرلمان على الملك ليرغمه على احترام إرادته ولزوم حدوده ، فاعتكف فى مزارعه وبدأ يفكر فى السبيل التى يجمع بها هؤلاء النواب فى قبضة يده ، ويهيىء لهم قوة عسكرية كفيلة بتعزيز جانبهم ، ثم يمضى فى مقدمتهم ليخوض بهم حرباً تقطع دابر الاستبداد قطعاً وتمكن الشعب من حقه فى تقرير مصايره بنفسه ، وكان أشد ما يؤلم نفسه تعصب الملك ورجاله لآرائهم فى العقيدة واضطهادهم البيوريتانيين لمجرد انحرافهم بعض الشىء عما يريد الملك وقساوسته ، وكان القساوسة ـ كما أشرنا ـ رجال حكم وطلاب سلطان أكثر منهم رجال عقيدة .

وكان المعارضون للملك من أعضاء البرلمان كثيرين ، وكان معظمهم على مال وجاه يستطيعون أن يعدوا للحرب آلافاً من الفرسان إذا جد الجد وانتهى الأمر إلى حرب ، ولم تلبث عين كرومويل الفاحصة أن استبانت أن هؤلاء الجند والفرسان لا يضمنون النصر ضماناً تاماً ، لأنهم أحد رجلين : فارس شريف يمارس الحرب رياضةً وفروسيةً ، أو مقاتل فقير على قدميه ، جنده الشريف صاحب المزرعة ليحارب عن قضية لا يعرف عنها شيئاً .

لم يسترح كرومويل إلى تكوين هذا الصنف من الجيوش ، وعرف أنه لن يصل إلى نتيجة حاسمة إذا هو اعتمد عليها . وكان ـ كما عرفنا ـ مؤمناً عميق الإيمان متشدداً فى عقيدته ، وكان هذا الإيمان يضفى على نفسه قوة معنوية كبرى ، فوقر فى نفسه أنه لو استطاع أن يجمع حوله عدداً من الرجال تملأ نفوسهم قوة روحية كهذه التى تملأ نفسه ، ويؤمنون بالله

إيماناً يهوّن فى نظرهم الموت ، ويعرفون ما يطلبون ويمضون فى تحقيقه يحملون قلوبهم على أكفهم لا يكادون يحسبون للموت حساباً ، لو استطاع أن يؤلف قوة صغيرة من هذا الطراز من الجند لما عسر عليه أن يكتسح خصوم البرلمانيين وأعداء التسامح الدينى اكتساحاً .

فإذا استبان له ذلك فقد أسرع فى تنفيذه ، وانزوى فى إحدى المقاطعات فى شرق إنجلترا، وقد تخيرها لأن أكثر أهلها كانوا من البيوريتان مثله ، ولم يكن يشك فى أن قوتهم الروحية وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم ستفتح لهم سبيل المعجزات ، ووفق فى أمد قصير إلى تكوين فرقة صغيرة من الفرسان دربها تدريباً عظيماً ، وأفاض فى نفوس أعضائها من إيمانه ما جعلهم أسد وغى حقيقة لا مجازاً ، ولبث يتحين الفرصة لإطلاق هذه الأُسد على أعداء الحرية والبرلمان .

ولم تلبث الظروف أن تحرجت بين الملك والمعارضة فى البرلمان ، وأصر الملك على ما أراد ولم يكن فى استطاعة المعارضة التراجع ، فلم يبق إلا حسم النزاع بحد السيف . وأخذ المعارضون يضمون صفوفهم ويوحدون جبهتهم استعداداً للنزاع المقبل مع الملك ، وأحس هذا أن مركزه فى لندن غير مأمون ، فغادرها بجنده وأتباعه ومضى ليلتجىء إلى مدينة « هَل » ، فأقفل أهلها أبوابها دونه ، ومضى رجاله يجمعون الجند والفرسان من أنصارهم حتى استطاعوا أن يهيئوا جيشاً طيباً أقاموا عليه الفارس الأمير ريوبرّت ، واجتهد البرلمانيون من ناحيتهم حتى جمعوا جيشاً من عشرة آلاف رجل ، وخف كرومويل للالتحاق بهذا الجيش ومعه ستون فارساً هم خيرة رجاله ، بل خيرة رجال الدنيا بأسرها فى حومة الوغى يومذاك ! .

وسار الملك نحو لندن ،. وبرز جيش البرلمانيين للقائه ، فلم يكد اللقاء يقع ، ولم يكد الأوار يشتد حتى تفرق البرلمانيون وطلب معظمهم النجاة ، وثبت كرومويل فى هذه الحفنة من الرجال ثباتاً هزَّ العدو وألقى فى نفسه الرعب . إذ تهاوى من جنده المئات على أيدى هؤلاء الأبطال ، وهكذا أنقذ كرومويل موقف البرلمانيين بعد أن كاد أمرهم يتفرق ، وبدأ اسمه يظهر ، وأخذت الأنظار تلتفت إليه ، وقد كسب من هذه الوقعة درساً عظيماً .

ثم عاد إلى مناطقه التى كان يتخير منها جنده ويعدهم فيها ، وأخذ يوسع دائرة تدريبه

بعد أن استبان له مقدار القوة التى يحصل عليها إذا أحاط نفسه بعدد كاف من هؤلاء البواسل ، فأخذ يجمع الرجال ويدربهم ، وكان معظم عنايته موجهاً إلى الناحية الروحية الدينية ، حتى كان معسكره أشبه بالدير العظيم ، لا يخلص الناس من تدريب إلا أخذوا فى صلاة ، ولا يفرغون من صلاة إلا أخذوا فى تدريب .

وكان يقول لمساعديه المكلفين بانتقاء الرجال للجيش الجديد : « إننى لأرجوكم أن تكونوا حذرين فى اختيار الفرسان ، وفى اختيار من تلقون إليهم بأعنة الخيل . إن فئة قليلة من رجال ذوى أمانة لتعدل أعداداً لا حصر لها ، فإذا راعيتم الله وتخيرتم رجالاً فاضلين للخيل استطاع كل منهم أن يأتينا بعدد من الرجال ذوى البأس من أتباعه وأصحابه وأهله إنه لخير لى أن يكون فى جيشى فرسان بسطاء أجلاف يفهمون القضية التى يحاربون فى سبيلها ويعرفون كيف يدافعون عنها من أن يكون فيه رجال من طراز الوجهاء (جنتلمن) إذ أنهم ليسوا فى الواقع إلا وجهاء » . وكان يقول : « إنه ليهمكم أن يكون تحت أيديكم رجال ذوو ضمائر حية » .

وتهافت الرجال عليه ، فسره ذلك وجعل يقول : « إن جنودى فى زيادة وإننى لفى صحبة ممتعة ، ولو عرفتهم لاحترمتهم ، إنهم ليسوا أنانيين بل هم مسيحيون فضلاء عقلاء » . وكان لا يعجب بشىء فى الرجل أكثر من بساطة نفسه واستقامة خلقه ، وقد قال: «خير لى أن يكون معى رجال بسطاء من ألا يكون معى أحد ، وأحسن الناس جميعا هم أصبرهم على مطالبهم وأوفرهم أمانة وأرعاهم لضمائرهم» .

وكل أولئك دلائل على أن الرجل كان فى نفسه قوةً خلقية كبرى ، وأن آماله لم تتعلق فى الواقع بثورة فى السياسة وإنما بثورة فى الأخلاق ، وقد كانت عنايته بتربية رجاله أشدَّ من عنايته بتدريبهم ، لأن قوةَ روحه كانت تفوق حدة ذكائه ، وقد كسب المعارك وساد أهل زمانه بقوة الروح وحماسة العقيدة .

ولم تكن خططه فى كسب المعارك خططاً فنية مرسومة تقدر فيها حركة كل جندى ويقرر فيها لكل فارس مكانه ، بل كانت صلوات يقوم بها الجيش كله يتوسطه كروميل نفسه ، كأنه ساحر كبير يقرأ التعاويذ بين سحرة صغار ! فإذا قُضيت الصلاة جرَّد سيفه من قرابه وهتف بعبارة من عبارات الإنجيل ، كما كان المسلمون يصيحون : « الله أكبر ! » ، ومضى

فى مقدمة الجند ، وقد استحال جِنًّا يَفلق الهامَ ويخبط المناكب ويقتحم الحصون وهو فى شبه جنون ، فلا يهدأ إلا إذا أهلك الأعداء وسالت دماؤهم بحاراً حقيقة لا مجازاً .

وكان رجاله يمضون خلفه كالبنيان المرصوص لا يكاد عدوهم يجد فى صفوفهم فرجة ينفذ منها ، حتى سماهم الناس « جوانب الحديد » « أيرن سايدز » . وكان العدو إذا رآهم مقبلين على هذه الهيئة من النظام والتكاتف امتلأت نفسه رعباً وفسد نظامه ، فلا يملك أن يصيبهم بأذى ، حتى لقد تنجلى المعركة عن بضعة آلاف من القتلى من أعدائهم ، وبضع عشرات منهم ! .

وقد حدث فى معركة دُنبار أن حصره الإسكتلنديون حصارًا شديداً ، وما زالوا يدفعونه حتى أشرف على البحر ولم يعد له مهرب ، وتساقط جنوده مرضى حتى لم يبق منهم على أقدامهم إلا بضع مئات ، وكاد اليأس يستولى على كرومويل نفسه ، فكتب إلى بعض أصحابه يرجوه أن يهيىء أذهان الناس لخبر سيىء ، فلما شد عليه الإسكتلنديون هتف : «الله رب الجيوش ! » ورفع السيف ومضى يهتف بهذه العبارة ومن ورائه جنده يرددونها ، فلم يلبثوا أن اقتلعوا العدو من مكانه ووضعوا السيف فى رجاله حتى أفنوهم أو كادوا : قتلوا منهم ثلاثة آلاف وأسروا عشرة آلاف ، فلما رأى كرومويل انكسار عدوه على هذا النحو المروع استوقف جنده لحظة ليرددوا معه ترنيمة دينية شكراً لله ، فلما فرغ مضى فى أعقاب العدو ، ومازال يتأثره حتى احتل إدنبره عاصمته ، ولم يخسر كرومويل فى المعركة كلها أكثر من اثنين وعشرين رجلاً ! هذا على ما اشتهر به الأسكتلنديون من ضراوة على الحرب وبأس فيها ، ولم يسجل التاريخ عليهم هزيمة ساحقة معيبة كهذه ، ومردها إلى هذه القوة الروحية التى كان كرومويل يبعثها فى رجاله ، وهى قوة تعود بالذهن إلى قوة المسلمين الأول واليونان القُدامى وكل جماعة يعمر قلوبها إيمان متوفز دفاع ، يكاد من حيويته وقوة دفعه أن يزحزح الجبال .

بيد أن الإنسان لا ينبغى أن يرد ذلك كله إلى كرومويل وحده ، فقد كان رجاله من حوله على إيمان يقرب من إيمانه ، وكان طول عهود الرخاء ومداومة قراءة الكتاب المقدس قد ارتفعا بأصاغر الناس إلى درجة من الوعى والإحساس بالنفس وبمعنى الكرامة الشخصية جعلتهم ينفرون من الظلم والمهانة نفوراً طبيعياً واعياً . وإن من يقرأ كتابات العصر ،

وأخصها « توفيق الحجاج » لجون بَنْيَان ليستبين أن العصر كان عصر يقظة روحية انفرد بها الإنجليز بين أهل هذا الزمان ، وليس إلى الشك سبيل فى أن الحرب بين البرلمانيين والملك كانت حرب ناس يريدون أن يُعترف لهم بحقوقهم فى الحرية والكرامة مع طبقة قديمة تأذَّن زمانها بالزوال وتريد رغم ذلك أن تعيش .

وربما كان ذلك سراً من أسرار قوة الإنجليز ، لقد استيقظوا من سبات العصور الوسطى قبل غيرهم بقرنين من الزمان ، وإلى هذا السبق يعزى تفوقهم على غيرهم من شعوب الأرض ، لأن المتأمل فى صفحات التاريخ ليلحظ أنهم فى صراعهم مع الفرنسيين مثلاً لم يكونوا أذكى ولا أقدر ، وإنما أنضج وأرشد وأكثر تجربة ، كأنهم كهل تقلبت على عينه الدنيا يكافح صبياً فى سن اليفاع .

لا غرابة إذن فى أن يكتسح كرومويل ورجاله كل شىء أمامهم ، فلم يلبث إعجاب رؤساء كرومويل وزملائه من البرلمانيين به أن تحول إلى حسد وخوف من هذا الرجل الطامح الذى لا يكاد يرفع علَمه فى ميدان حتى يواتيه النصر ، وتعب هو من رؤسائه هؤلاء وود لو انفرد بالعمل دونهم ، لا عن رغبة فى الانفراد والاستبداد وإنما عن إيمان منه بأن أساليبهم لاتحقق نصراً ، ومن ثم كثرت ألدسائس والمؤامرات حوله ، فلم يلجأ إلى مناورات السياسى ومداوراته يتقى بها أذى حاسديه ، بل مضى قُدُماً كأنه لا يحس بهم ، أو كأنه لا يشك لحظة فى أن إيمانه بالله يكفى ، وأن عدالة مطالبه تغنيه عن كل حيلة .

ومن غريب الأمر أن خصومه ـ على كراهيتهم له ، وانصرافهم إلى التدبير عليه ـ كانوا يشعرون أنهم لا يستغنون عنه ، فكانوا كلما جد الجد أسلموا له القيادة من جديد . ولم يزل يقود البرلمانيين من نصر إلى نصر حتى كسر قوات الملك كسرة قصمت ظهرها فى « نازبى » فى يوليو سنة ١٦٤٤ ، وأصبح كرومويل بعد ذلك سيدَ إنجلترا دون منازع ، وأضحى الملك طريداً يتجهم له الناس وتهرُّه المدائن ، حتى لقد حاول أن يستعين بأحلاف فى اللورين وفرنسا والدانمارك فلم يغنوا عنه شيئاً ، وحلت به وبأتباعه الهزيمة النهائية فى سنة ١٦٤٦ .

من هذا اليوم أصبح الشعب سيداً غير منازَع فى بلاد الإنجليز ، وارتفع رأس الزارع البسيط والعامل المتواضع حتى ساوى رأس الشريف النبيل المعتز بأملاكه من المال

والعقار وأنسابه من حملة الألقاب ، وبدأت الديمقراطية تصبح أساساً للحياة وشريعة للعيش فى تلك البلاد ، ولم يحاول أحد أن ينتزع من هذا الشعب الإنجليزى هذه الحقوق التى نالها بحد السيف .

ولم يحاول الشعب أن يستغل نصره ويقلب الأمور قلباً كما فعل الشعب الفرنسى إبان ثورته الكبرى بعد ذلك بقرنين ونيف ، لأن الشعب حينما تابع كرومويل إنما تابعه واعياً لما يريد ، عارفاً لحدوده لا يريد أن يعدوها ، ولم يكن ليستطيع أن يعدوها لأن القائد كرومويل كان قد ملأ نفوس الناس إيماناً بقوة الحق وجماله ، وغرس فى قلوبهم احترامه ، فلما بلغوا مطلبهم واطمأنوا على حقوقهم وقفوا ، ومن هنا صانت الثورة الإنجليزية نفسها عن جهالات الثورات ، وعرف هذا الشعب معنى الاعتدال والاتزان وتمالك النفس فى لحظات الطيش والغضب . وقد لازمته هذه الخصلة طوال تاريخه ، وكانت من دعائم قوته ، فما دخل مرة فى صراع إلا عرف متى يقف ، ولم يملكه الغضب مرة إلا عرف كيف يهدأ ، ولم تزحمه الكوارثُ والأخطار مرة إلا عرف كيف يحافظ على اتزان نفسه وهدوئها ليتصرف التصرف الحكيم الممكن ، وقد أنجاه ذلك من مهاوى الأمم ، ومضى به فى مدارج التوفيق أشواطاً لايكاد يدانيه فيها شعب فى التاريخ .

بيد أن الملك لم يكُفَّ بعد هذه الهزيمة عن المحاولة ، بل أنشأ يستعد ويتربص ، فلم يدع له كرومويل فرصة يستعد فيها ، بل عاجله فى المناطق التى كان يتحفز فيها ، وكان أهل ويلز وأسكتلندة قد نفروا من أساليب كرومويل فى العمل ، فبدأوا يعطفون على الملك ومدوا له يداً ، وخشى كرومويل أن يشتد ساعده من جديد ، فمضى على دأبه فى معاجلة الخصم بضربة تقصم ظهره : أسرع فأغرق ثورة ويلز فى الدم حتى ريع الويلزيون وسكنت ريحهم ، ثم أسرع إلى الإسكتلنديين الثائرين فأوقع بهم وقيعة نجلاء فى « برستون » لعلهم لاينسونها له أبداً ، إذ لم تقم لهم بعد ذلك قائمة . واستبان له آخر الأمر أن لاسلام للبلاد إلا إذا لقى الملك المشاغب جزاءه ، فقبض عليه وقدمه للمحاكمة ، وألفت محكمة نظرت فى أمره وقررت إعدامه ، ونفذ فيه الحكم ، ولازال إمضاء كرومويل باقياً فى ذيل وثيقة الحكم بإعدام شارل الأول إلى اليوم .

بهذا استقامت حكومة الشعب ولم يعد هناك ما يروع أمنها ، فبدأ كروميل يرتب وينظم ويربى الشعب لهذا النظام الجديد الذى لم يعرفه الإنجليز ولا غيرهم منذ انقضت أيام الجمهورية الرومانية على يد أغسطس . وبينما كان آخذاً فى ذلك ترامت إلى سمعه أنباء ثورة شاملة فى إيرلندا ، والإيرلنديون كاثوليك متعصبون لا يقلون تشدداً فى مسائل عقيدتهم ولااستمساكاً بمذهبهم عن كروميل ورجاله ، ، وقد كان حرياً به أن يدعهم وشأنهم ، لأنهم لم يهددوا إنجلترا ولم يروعوا لها سرباً ، ولكن القدر القاسى أراد لهم أن يكونوا جيران الإنجليز ، وقد شقوا بهذه الجيرة شقاء بالغاً يكاد يسود تاريخهم كله : يصر الإنجليز على احتلال بلادهم ويأبى الإيرلنديون إلا أن يكونوا أحراراً ، ويريد الإنجليز أن يتبعوهم فى مسائل العقيدة ويتركوا هذا الولاء للبابوية الذى يصيرون عليه ، والإيرلنديون لا يزدادون مع الأيام إلا استمساكاً بما لديهم ، وقد فطرهم الله على طبع عنيد لا تكاد قناتهم تلين ، ومن ثم اتصل الصراع بينهم وبين الإنجليز ، ولازال قائماً إلى يومنا هذا .

وقد كان حرياً بكروميل أن يدعهم وشأنهم ، ولكن عصبيته لمذهبه وعصبيته لبلاده جرتاه إلى الخطأ وأوقعتاه فى شر ما كان أغناه عنه ، فقد قسا على الإيرلنديين وأنزل بهم مذابح مشينة فى دروغيدا ، ولم يبلغ بعد ذلك العناء منهم مبلغاً : لا هو غير عقيدتهم ولاهو أذل نفوسهم ، بل زادتهم الحرب إباء وعناداً ، ولو كانت عصبيته أخفَّ مما كانت لما شانت تاريخه مثل هذه السقطة . ولكنها آفة التعصب ، ما داخل نفساً إلا أضلها ونأى بها عن الحجى .

وقد كان كروميل متعصباً متفانياً ، فدفعته العصبية إلى أمجاد وهبطت به فى سقطات ، ولم يغفر الإنجليز له ذلك أبداً ، وتأصل فى نفوسهم نفور منه وإنكار لأعماله ، جعل الكثيرين من مؤرخيهم يحملون عليه ويبغضون شخصه رغم ما أدى لبلاده من خدمات . فوصفه كلارندون مثلاً بقوله : « كان رجلاً شجاعاً شريراً ، حفلت نفسه بكل الشر الذى أعدت له نيران الجحيم » . وقال آخر : « لقد عاش منافقاً ومات خائناً » . بل ذهب نفور قومه من ذكره بعد مماته مبلغاً دفعهم إلى نبش قبره وإخراج جثته وتعليقها فى حبل مشنقة . وكتب جون إيفلين الفارس فى مذكراته بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٦٦١ يصف هذا المشهد البغيض : « فى ذلك اليوم ـ ويا لعظمة أحكام الله التى لا تكادُ تُفلت شيئاً ! ـ استُخرجت

حطام رؤساء الثائرين كروموبل وبرادشو (القاضى الذى حكم على الملك بالإعدام) وأيرتون (صهر كروموبل) وجُرت من مراقدها الفاخرة فى وستمنستر بين الملوك إلى تيبورن حيث علقت فى المشانق من التاسعة صباحاً إلى السادسة مساءً ، ثم ألقيت بعد ذلك فى حفرة عميقة تحت هذه الآلات المشينة (المشانق) ، وقد شهد هذا المشهد آلاف ممن رأوا هؤلاء الثلاثة من قبل فى أيام عزهم وكبريائهم..» .

ولو كان كروموبل من رجال السياسة لالتمسنا له العذر فى ركوب هذا المركب الخشن ، لأن السياسة مركب وعر لا يزال راكبه يخلط خيراً بشر وعدلاً بظلم ، متعللاً بالنظر البعيد حيناً وبضرورات الحياة حيناً ؛ والسياسة لا تحرص على الأخلاق ولا يكاد صاحبها يحفل لحديث الأخلاقيين ، بل هو يسخر منهم ويزرى بآرائهم ، ويدفعه الحرص على نفسه أوحزبه إلى السخر من الأخلاق والأخلاقيين ، وربما وصفهم بالهوس والجرى وراء الأحلام ولكن العبرة فيما نحن بصدده أن يصدر هذا عن رجل هو فى الذروة من أنصار الأخلاق والأخلاقيين ، ولكنه التعصب ـ كما قلنا ـ يعمى قلب صاحبه ويضل نفسه فيقسو على خصومه ويقع فى شرٍ مما أراد أن ينأى بنفسه عنه ، ولله فى خلقه شؤون .

ولم تكد ريح الإيرلنديين تخمد حتى رفع الإسكتلنديون رأسهم . وكانوا هم شيعة الملك وأهله ، وكان نفورهم من كروموبل قد أعادهم إلى العطف على الملكية ، وزاد فى تغيير نفوسهم إعدام الملك وما ألقاه هذا الحادث الرهيب من الرعب فى النفوس . وكانت ثورتهم شديدةً تنذر بالخطر ، فتخوف الناس منها خوفاً بالغاً ورفض فيرفاكس القائد الأعلى لجيش البرلمانيين أن يتولى قيادة الجيش ، فلم يتردد كروموبل فى قبولها ، وسار إلى دُنْبار حيث قضى على الثائرين ومزق جمعهم تمزيقاً سنة ١٦٥١ على ما وصفنا . ولكنهم عادوا الهجوم كرة أخرى يقودهم شارل الثانى ابن الملك المقتول ، فخف إليهم كروموبل وأوقع بهم هزيمة قاصمة فى الثالث من سبتمبر سنة ١٦٥١ .

* * *

إلى هنا ينتهى مجد الرجل الحربى ، ويبدأ جهده ينصرف ناحية أخرى لها أهميتها . هدأ الحال وسكن الثائرون واطمأنت البلاد ، فإذا كل شىء قد خرب أو أشفى على الخراب

بسبب هذه الحروب الأهلية المتصلة التى دامت ما ينوف على الأعوام العشرة ، اضطربت خلالها كل مرافق البلاد وضاعت مصالح الناس ، وأحسَّ كرومويل فى نفسه أنه أبلغ رسالته وقام بالمهمة التى ألقاها الله على أكتافه .

ذهب الطاغية وأصحابه وصارت أمور الناس إليهم ، فشعر أن واجبه الآن هو أن يدع الأمر للنواب يتصرفون فى مصالح البلاد كما يريدون . واعتكف زمناً قصيراً عن الحياة العامة ليصلى إلى الله طالباً الغفران من آثامه كما كان يقول ؛ والواقع أنه كان يشعر شعوراً متصلاً بأنه مخطىء ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المسرفين فى الإيمان ، ولكنه رُوِّع إذ وجد أن هؤلاء النواب الخياليين يتطرفون ويسترسلون فى مناقشات ومناورات تدفعهم إليها عواطف شخصية لا تمت إلى الصالح العام بسبب ، حتى كادوا يوردون البلاد موارد الهلكة ، وهى بعدُ فى أشد الحاجة إلى الدعة والسلام ، ووجدهم يندفعون فى هذا الخطل حتى ليجرُّون البلاد إلى هاوية الخراب .

ولم يزالوا فى ذلك حتى دفعوا بالبلاد إلى حرب مع هولندا انتهت بهزيمة مشينة ، ولم يصرفهم ذلك عن المناقشات وإنفاق الوقت فى المساجلات فى ساحات البرلمان ، لاتكاد همتهم تنهض بهم إلى إبرام أمر فيه خير ، وبصر كرومويل فإذا بالفوضى تنذر بالدخول ، وإذا النواب أعجز عن أن يردوها إلى نصابها ، ولم يزدهم الخطأ إلا غلواً فى الضلال ، حتى ذهب الغرور ببعضهم أن اقترح وضع نظام جديد يهيىء لهم من السلطان فوق ما كان بين أيديهم ، وكاد يعفيهم من كل رقابة .

وكان كرومويل يتأمل الحالة بعين المشفق ، فلما بلغ به الإشفاق مداه نادى فئة من فرسانه وخفَّ بهم إلى البرلمان فاقتحم الباب على النواب وطردهم ، وأغلق البرلمان فى ٢٠ أبريل سنة ١٦٥٣ ، ثم عقد بعد ذلك مجلساً من ضباطه وأنشأ هيئة حاكمة للبلاد على رأسها كرومويل ولُقّب « حامى الدولة » لإنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا ، ومنحت الهيئة الجديدة سلطة مطلقة ، وتركت لكرومويل الخيار فى دعوة البرلمان أو عدم دعوته .

بهذا حدث ما كان كرومويل يخشاه . انتهت الأمور إلى يديه على رغمه ، وأصبح حاكماً بأمره فى البلاد يقضى بقضائه فيها كما يريد . وكان الرجل يكره الاستبداد بالأمر والانفراد

به من دون الناس ولو كان هو المستبد ، ويخشى الانفراد بالأمر ولو كان هو المنفرد به ، فثقل ذلك على نفسه وأصبح يشعر أنه طاغية لا يلبث أن يحل به العذاب جزاء على الطغيان . وساد نفسه فى هذه الفترة حزن عميق ، وأخذت هواجسه النفسية تعذبه حتى لقد أفرط فى الصلاة وزاد انصرافه لأمور العبادة التى كانت نفسه متعلقة بها ، وجعل يشتكى من أثقال الحكم وأوزاره ، ويؤكد للناس أنه اضطر إلى حمل ما حمل من أموره اضطراراً ، فقد كانت البلاد فى حاجة إلى من يحكمها وأعوزتها اليد السائسة التى تدير الأمور .

وكان يشعر أن نظامه غير طبيعى لأن النفس الإنجليزية لا تعرفه ، فقد اعتاد الإنجليز الحكم النيابى واحتفظوا بأصوله من أيام بداوتهم الأولى ، أيام كان الأحرار من كل قبيلة يجتمعون فى ضوء القمر ليقرروا مصائر قبيلتهم ومهام أمورها . حافظ النورماند على هذا التقليد بعد فتحهم إنجلترا بقيادة وليم ، فكانوا يحرصون على أن يدعو الملك كبارهم إلى مجلس عام ، ومضوا على ذلك ، ودرب عليه الملوك والأشراف حتى أصبح أسلوب الحكم الوحيد الذى يستريحون إليه . وقد عبث ملوك التيودور وستيوارت بالبرلمان ، ولكنه ظل قائماً يلقى فى روع الناس أن الأمر أمرهم ما يزال .

فلما أقبل كروميل وفض البرلمان بدا الأمر للناس غير طبيعى ، وشعر هو بذلك وخشى كراهية الناس له ورميهم إياه بالاستبداد ، وكان هو نفسه لا يكاد يفهم كيف تسير الأمور من غير برلمان ، ولو قد وجد برلماناً صالحاً لألقى إليه الأمر ومضى إلى عزلته ، بل كان يشعر أن الأمر لا يطمئن ببرلمان دون ملك ، ولكن ما ذنبه وقد استرسل الملك مع العبث استرسالاً جعل حريات الناس وكرامتهم فى خطر ؟ .

وما ذنبه كذلك وقد أساء البرلمان التصرف وكاد يودى بالبلاد إلى الهاوية ؟ .

وما ذنبه إذا صار إليه الأمر كله وهو كاره لا يكاد يبقيه فى مكانه إلا شعور خفى بقوة الواجب ؟ .

كان يشعر شعوراً متصلاً بأنه يؤذى روحه بحمل أعباء الحكم ، ولكن ما العمل وقد أراد الله له ذلك ، ولا حيلة للمرء فيما أراده الله له وإن كان شراً خالصاً ؟ .

تلك كانت عقيدة الرجل ، وهكذا كان شعوره خلال الفترة التى أقام فيها حامياً للدولة الإنجليزية .

وانقضت خمس سنوات وهو على هذه الحال من القلق وعدم الاستقرار النفسى ، وجعل يترقب الفرصة لإحداث التغيير المطلوب ، وزاده ترقباً له ما أحس من كراهية بعض الناس له وانتقادهم أعماله ورميه بالغصب والطغيان . وقد سنحت الفرصة فى أغسطس سنة ١٦٥٦ فطلب إلى زملائه فى مجلس الحكم عقدَ البرلمان فعُقد ، وصرف زملاءه الضباط الذين كانوا يتولون الأمور معه ، وطلب إلى البرلمان أن يعيد النظر فى الدستور ويعدله على نحو يحول دون عودة مساوىء الماضى وتجاربه القاسية ، فأعاد البرلمان النظر وانتهى أعضاؤه من الدراسة وقرروا أن يرفعوا كرومويل إلى العرش ويعرضوا عليه التاج ! .

فكان قرارهم هذا أغرب ما كان يتوقع ، وعجب كيف يشكو إليهم أثقال الحكم ويطلب إليهم تخفيفها عنه فيأبون إلا أن يكبلوه فى قيده إلى آخر حياته ! ورفض التاج فى غير تردد ، كأنما استكثر على جهاده أن يؤدى إلى عَرَض من أعراض الدنيا ، ولو كان هذا العَرَض هو العرش بجلاله وبهائه ! ولقد زعم خصومه أنه رفض التاج سياسة وكياسة ، وأنه عَرَف أنه لو قبله لثار الشعب فى وجهه .

وليس لدينا دليل واحد يؤيد هذا الرأى ، بل كان أبعد ما يكون عن الطمع فى الجاه والسلطان الذى يدفع الناس إلى طلب العرش . لقد رفض العرش لأنه كان فى نفسه رجلاً صوفياً ينفر بطبعه من الأبهة والسلطان . وقد فعل ما فعل وبلغ ما بلغ يدفعه شعور داخلى بأنه يؤدى واجباً إلهياً نحو العقيدة والناس ، وليس إلى الشك فى إيمانه هذا من سبيل . بل هو فى الواقع لُباب شخصيته وموضع الجمال فيها .

لم يعجبه من البرلمان هذا الرأى ففضه وصرفَ نوابه وجمع برلماناً آخر ، فلم يكد أعضاؤه يجتمعون حتى انصرفوا إلى المناقشة فى تفاصيل وأمور لا طائل وراءها ولا تكاد تنفع فى شىء وكان الرجل كما قلنا عملياً لا يطيق الجدل فى غير طائل ، ولا صبر له على جدل البرلمانيين ، ورأى أن لا فائدة ترجى من هذه البرلمانات ، وأحس خيبة الرجاء حينما وجد

الشعب يتوجه إليه مسلماً إياه أزمة الأمور ، فاضطر إلى البقاء حيث هو جامعاً لأزمة الأمور كلها فى يده .

* * *

فى هذه الفترة الأخيرة من جهده المتصل فى هذه الدنيا يبدو كروميل رجلاً جديداً منظماً مدبراً محنكاً ، كأنما فهم آخر الأمر أن لا مناص له من موالاة الأمور والصبر عليها حرصاً على صالح الناس ، ووقع فى نفسه أن ذلك كله بقضاء الله ، وأن الله يريده لكى يصلح شئون قومه وقد تلفت أو كادت .

كانت الحرب قد أكلت الناس وخربت البلاد والمزارع ، وخلفت نفوس الناس بلاقع من الخير هى أشد جدباً من جدب المزارع والبلاد ، وكان السياسيون الذين تعاقبوا على قيادة الأمور خلال الفترة الأخيرة من عهد الملكة قد قارفوا من الأخطاء ما كاد يقضى على سمعة البلاد بين الأمم ، فنهض كروميل لذلك كله ، وتلافى أضراره . ولم يكن رجل سياسة ، وإنما كان رجل جد واستقامة . وقد كان يحل المسائل بالنظر السليم والنية الصادقة وحدهما ، وقد وفق بهذا إلى أكثر مما وفق إليه ثعالب السياسة والإدارة ..

اتجه فى سياسته الخارجية وجهة أخرى ، فترك عداء هولندا وتودد إليها حتى كسب ودها وأمن على الشواطىء والتجارة الإنجليزية من ناحيتها ، وكانت للرجل عناية ظاهرة بالأسطول ورجال البحرية وأهل المدن المشتغلين بالتصدير ، وكان حالهم قد تحسن بعد أن ألغيت ضريبة السفن البغيضة ، فتنفس الناس الصعداء . وحالف «مزران» وشد أزره فى غزو إسبانيا . وكانت فرقه الحربية الجديدة محل إعجاب أوروبا كلها ورمز النصر فى كل ميدان . فلم يمض زمان حتى كانت الجيوش الإنجليزية منصورة موفقة فى كل الميادين ، وعاد للإنجليز مكانهم بين الشعوب ، وكانت بحريته العظيمة تحت قيادة « بنيك » تمهد البحار لسلطان إنجلترا ، حتى أصبحت البلاد فى عهده رمزاً لكل رفعة وعنواناً لكل فخار .

أما فى الداخل فكانت خطته التشدد فى إصلاح مفاسد الماضى ، أو ما بدا له أنه من مفاسد الماضى . وقد بالغ فى التشدد مبالغة نعرفها فى عامة المتشددين الدينيين ، ولقد شل

الفكر وآذى الفن بتشدده وتعصب أنصاره حتى كادت ريح الفن الإنجليزى البديع أن تسكن . ولم تعد الأيدى تتناول إلا الكتب الدينية الأخلاقية أو ما يجرى مجراها ، وقد كان لهذا التقييد لحرية الفكر أثره السيىء ، ولكنه على كل حال لم يدم ، لأن الفترة الكروميلية لم تدم طويلا ، ولم يلبث الفكر الإنجليزى أن استعاد حريته بعد أيام كروميل ، وبعد أن عادت أيام الملكية وأطلقت الحريات فى مداها القديم ، بل إلى أبعد من مداها من جديد .

ولم يكن هذا التشدد شراً كله ؛ بل أثرت عنه حسنات ، كالقضاء على المبارزة ، وكانت شراً بالغاً ، لا يكاد يختصم رجلان فى أمر هو من توافه الأمور حتى يحتكما إلى السيف ويفقد أحدهما حياته . وحرم كروميل ألواناً من الرياضة الوحشية التى يتسلى الإنسان فيها بإطلاق حيوان على حيوان أو ديك على ديك ، وليس هناك ألم للنفس من رؤية هذه الديكة تصطرع وتتناشب بأظافر تثبتت فيها مخالب من الحديد ، فتسيل دماؤها ولا تزال تتخامش على هذا النحو الوحشى حتى تخمد أنفاس واحد منها ويرتمى على الأرض تشخب جروحه دماً حتى يموت .

وجه كروميل البلاد كلها وجهة تطهيرية صالحة ، فلم تكد تمضى سنوات حتى عادت للبلاد الرفاهية ورفرفت عليها ألوية السلام . وتمتعت فى ظله وحمايته بعصر زاهر سعيد ، حتى حان حينه ومضى إلى حيث يمضى كل الأحياء وهو فى أوج عظمته فى سبتمبر سنة ١٦٥٨ فى « دنبارا » .

* * *

أجمل المؤرخ ف . هـ هيوارد خصال كروميل وأسرار قوته فقال : « كان كروميل يقرر أن الإنسانية تقودها ثلاث قوى : كان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتعلم كثيراً من الكتابات المقدسة وما كتب فى شرحها والتعليق عليها إذا قرأها وحده وحاول فهمها حراً . ويستطيع أن يتعلم من قراءة التاريخ الذى يزيده لأحوال البشر فهما . ويستطيع أن يتعلم من تأمل الحوادث الجارية ، وهى التاريخ الذى يتكون . ويستطيع أن يتعلم كثيراً أيضاً إذا عنى بأن يصغى إلى صوت ضميره الداخلى الذى طالما أهمله . وإن اعتقاد كروميل فى هذا

الثالوث من القوى ليدل دلالة أكيدة على أنه كان واحداً من كبار أهل الفكر ، وأنه لم يكن مجرد رجل تنفيذ عنيف » .

وهذه مقالة مجملة ، ولكنها تجمع خصال الرجل وتفصلها على نحو يكاد يغنى عن كل بيان . فلم يكن كروموبل رجل علم بعيد المدى ، أو سياسة معقدة الألفاف أو دراسة واسعة المجال ، وإنما كان ذا إيمان عميق فى قوة الخير وذا بصر فى صحائف التاريخ وأحوال الناس ، وعلي هدى هذا الإيمان وهذا البصر سار فى حياته موفقاً .

وقد كرهه الناس كما قلنا لتشدده ولما بَدَر منه من القسوة والعنف فى أعماله ، فإن أحداً من مؤرخى الإنجليز لا ينكر مدى الخدمة التى قدمها هذا الرجل لبلاده ببساطته وشجاعته، فقد قضى على الإقطاع ورجاله وأقام الدولة الإنجليزية الحديثة الموحدة على أسس ثابتة ، وبدأ لها عصراً جديداً من الحرية والتقدم والقوة ، وخرج بها عن التسكع فى مهب الريح فى ظل ملكية مترفة عابثة إلى السير الحثيث الواعى إلى الأمام .

لقد أيقظ الإنجليز من خمولهم الذى كانوا قد استراحوا إليه ، ونبههم إلى ملكاتهم الكامنة ، وحفزهم بجده وصرامته إلى العمل الجاد الصارم .

فلما عادت الملكية بعد وفاته بثلاثين سنة ، عادت رشيدة حريصة على السير بالبلاد إلى الأمام . وتعلم الشعب الإنجليزى على يديه درساً لم ينسه إلى يومنا هذا : أن الحياة ليست عبثاً ولا متاعاً خالصاً ، وإنما هى عمل وجهد وتضحية ، وإذا طلب الإنسان أمراً لم يدركه إلا إذا هانت نفسه عليه فى سبيله . أما الاستنامة إلى أن الحق يحمى نفسه ، وأن الحياة تجرى من تلقاء نفسها على أعنتها ، فهى باب من أبواب الركود والتقهقر والزوال .

وعرف الإنجليز بفضله قوة الحق وتعلموا احترامه ، وأن الحقوق لا تكون حقوقاً حتى تحترم وترعى ، فلو عدا الملك على حق الرعية ضاعت حقوقه هو وانقلب الأمر عليه وفقد عرشه ، ولو عدت الرعية على الملك لانقلب وبالاً عليها ووقعت فى فوضى لا يؤمن شرها؛ ولهذا رفض التاج لأنه ليس من حقه وإنما كان من حقه أن يصلح المعوج وأن يقَوِّم الملكية ويضمن لمواطنيه ظروفاً كريمة من العيش .

عند هذا الحد وقف وملك زمام نفسه ، وليس بين رجال التاريخ إلا قليلون جداً استطاعوا أن يملكوا زمام أنفسهم حينما امتدت إليهم الأيدى بالتاج والصولجان ..

قصة وزير

هينريخ فردريك كارل شتاين

لم يكن الرجل وزيرًا على مثال ما تواضع عليه الناس من ألوان الوزراء ، لم تكن له دار ولا قصر ولا خدم ولا حشم ، بل كان طريدًا ! وظل أكثر أيامه مشرداً تستقبله لعنات الأباطرة ويطلبه الشرط حيثما كان ، وما ظنك برجل كان عدواً لنابليون فى مساء « ينا » ؟ وما قولك فيمن سخر من هذا الطاغوت فى صبيحة « أورَشْتات » ؟ وما عساك قائلا فى رجل لم يدخل المدرسة قط ، ولم يتعلم فى صباه شيئاً يسلكه مع المفاخرين بالعلم المتكسبين من خيراته المباهين بدرجاته وشاراته ؟ .

ومع هذا فقد سما بشخصه ، ورجاحة قلبه ، وفضل إخلاصه ، واتصال جهده ، إلى مرتبة يطلب إليه الملك فيها أن يصبح فى عداد الوزراء ؛ وكان الملك يحسب أن هذا العرض مِنَّة كبرى يقابلها هذا الرجل بالشكر وتقبيل اليد ، فما راعه إلا وهذا الرجل يطلب أن تغير الوزارة كلها شرطا لدخوله فيها ، فإذا رفض الملك رفض الرجل ! .

كان هَينْريخ فردريك كارل شْتاينْ فى هذه السن التى ينصرف فيها الشباب إلى أمور القلب ونزوات البدن ، كان فى سن العشرين التى تزدحم فيه نزعات الهوى وزفرات الحب على قلوب الفتيان ، ولكنه كان بعيداً جداً عن ذلك كله . كان شابا مكتمل الفتوة ظاهر الجمال ، وكانت ألمانيا تفيض إذ ذاك بالعشاق الذين أنصفهم « جيته » وخلد ضعفهم وعطَّف الناس عليهم فى حديثه عن « فرتر » ولكن شتاين كان فى شغل عن آلام الهوى ومصارع العشاق ..

كان شديد الضيق بالإمبراطورية الرومانية المقدسة التى وصفها فولتير بقوله : « إنها لم تكن إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة ! » ، وكان شديد الإعجاب ببروسيا وعاهلها

العظيم فردريك الأكبر ، وكانت عائلته تدين بالطاعة للإمبراطور الرومانى المقدس ، ولكن نفسه كانت تتسامى به عن طاعة يبذلها لرجل لا يستحقها ، فلم يكذب أن اتجه إلى بروسيا ليكون فى طاعة من يحب .

نزل برلين ، وأعلن الولاء للعرش البروسى ، ورحب به فردريك وليم ، وتقبل منه الولاء شاكرا ، ثم عهد إليه بالعمل فى مصلحة المناجم والصناعات التى يديرها هاينتس ، فلم يكد الفتى يتولى أعماله فيها حتى وجد فى رئيسه خير عوض عما خسره من إهمال الدرس والتحصيل فى صباه .

أقبل عليه هاينتس يعلمه الاقتصاد ، ويلقى إليه من القانون المدنى ما أثار نفس الفتى وأفاده أجلّ الفائدة ، حتى لم يكد يمضى زمان قصير حتى تسامع الإمبراطور بهذا الموظف الذى تهيأ له من العلم بسياسة الدولة وفنون الاقتصاد شىء كثير غريب فى بابه ، لأن الفتى اجتهد فى هذا المطلب وتفانى فيه تفانيه فى كل مطلب سيتصدى له فى حياته ، ولم يلبث أن أصبح عالما يتحدث الناس بعلمه ، فاستدعاه وعهد إليه بأن يفتيه فى موضوع « إقليم ماينتس » . ولم تكن نفس شتاين راضية عن الوضع الشاذ لهذا الإقليم ، وكان ضميره يأبى عليه السكوت على هذا الشقاء الذى كان يرزح الشعب الألمانى تحته ، كما يسكت غيره من السادة الذين لا يطلبون أمراً بعد رضى الرؤساء وأصحاب الأمر .

كان إقليم ماينتس ـ على الخصوص ـ نهباً مقسما بين بروسيا والنمسا وفرنسا : كانت الأولى تود لتغتاله بما لها من حق القوى على الضعيف ؛ وكانت الثانية تجره فى ذيلها ، لأنه كان معتبرًا جزءاً من الإمبراطورية المقدسة ؛ وكانت الثالثة تراه جزءاً لا ينفصل عن إقليم الرين الذى كانت تعتبره فرنسا حدها الطبيعى إذ ذاك . وكان شتاين يرى أن المعقول أن تترك ماينتس لنفسها ، وأن يقوم أدواقها بولايتها على الوجه الذى يرضاه أهلها ، ولكن حكام ماينتس لم يكونوا ليرضوا لأنفسهم هذه الكرامة ، وكانوا يوزعون طاعتهم بين الملك فى باريس والإمبراطور فى فينا والعاهل فى برلين ؛ أما الشعب الألمانى الذى يقيم فى هذه المنطقة ، أما الاصلاح ، فلم يكن يدخل لهم فى حساب . إزاء هذا كله أنفت نفس الرجل العمل ، فرفع يده ساخطاً واعتزل السياسة مغاضباً .

أطلق الرجل نفسه من إسار القيود ، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد . طاف بانجلترة بين

١٧٨٦ و ١٧٨٨ ، وكانت حكومة هذه الدولة حلم السياسيين فى ذلك الوقت . كانت حكومتها المثل الأعلى لمنتسكيو ، ومضرب المثل عند روسو ، والمثل القويم للحكومة الرشيدة عند الكثرة الغالبة من أهل السياسة فى ذلك الزمان ، فلا غرابة أن أعجب شتاين بحكومة إنجلترا إعجاباً زاده بغضا لحكومة ألمانيا ، وجعله يحلم ـ والحسرة تطغى على نفسه ـ فى إصلاح بلاده ، وإسعادها على النحو الذى تسعد به إنجلترا .

ثم هبت الثورة الفرنسية فأدرك الفتى من مطالعها دلائل الشر تبيت لوطنه ألمانيا . فسخط على الثورة وزعمائها ، وخشى أن تنتقل حُماها إلى بلاده التى لا تنقصها الحمى ؛ ولم يكذب ظنه ، فقد كان ما كان من هزيمة بروسيا أمام فرنسا ، واضطرارها إلى عقد الصلح المهين فى « بازل » ، ومن هزيمة النمسا وإذلالها فى كامبوفورميو ، فأسرع إلى بلاده على عجل إسراع جندى ناشت بلاده الأعداء ، فاستقبله الملك استقبال اللهيف ، وعهد إليه بوزارة التجارة فقبلها كارهاً ، لأنه كان يرى أن مناصب الحكومة ليست سبيلا معقولاً لخدمة الأوطان .

كان دائم النصح لملكه بألا يغامر بدولته فى موج الثورة الفرنسية الدافق ، كان يحذره من شر نابليون ، ولكن الملك لم يستمع له ، ومازال على رأيه فى ضرورة الاشتباك مع فرنسا حتى رأى مصرع بلاده فى « ينا » ، فتذكر نصيحة « شتاين » وأسرع إليه يستشيره وعرض عليه وزارة الخارجية ، فاشترط تغيير الوزارة كلها حتى يتمكن من العمل بعيداً عن الدس والرجعية ، فرفض الملك هذا وأصر عليه شتاين ، وبارح القصر مغضوباً عليه . ولم يدفعه هذا الغضب إلى السخط على صديقه « هاردنبرج » الذى حل محله فى وزارة الخارجية ، بل أقبل عليه ينصحه ويوجهه حتى ضج نابليون من تصرفات هاردنبرج وطلب إلى ملك بروسيا أن يطرده ، فإذا سأل الملك عن خليفة للمعزول ، فقد حسب نابليون أن « شتاين » المغضوب عليه قد يكون على أحر من الجمر للصعود إلى كرسى الوزارة ، وأنه يكون بهذا شاكراً لفرنسا وأنفع لها من هاردنبرج ، فأشار على فردريك وليم باستدعائه ، فاستدعاه الملك وعهد إليه بالوزارة .

أقبل الرجل ، وكانت « مِـمِل » أولى البلاد البروسية التى نزل بها ، فلم يكد يستقر به المقام فيها حتى أصدر قرارا أفزع نابليون وأثار أوربا كلها ، أصدر قراراً ألغى به رق الأرض

من بروسيا كلها ، وسوى بين عماليق الجرمان والبروسيين الذين كانوا يتشبثون بحق السيادة على عمال الأرض وأرقائها ، ومحا هذه البقية البغيضة التى لازمت ألمانيا منذ القرون الوسطى، ثم سار حتى حط رحاله فى برلين ، وهناك أصدر منشورا آخر خيب فيه ظن نابليون ، أعلن حرية التجارة فى ألمانيا كلها . وكانت ألمانيا إذ ذاك فسيفساء مختلفة الألوان من الإمارات والممالك والدوقيات ، وبهذا خطا الخطوة الأولى نحو الوحدة الألمانية المنشودة وكان بهذا أول من مهد السبيل لبسمارك .

وكانت ألمانيا تعانى فى هذه الفترة محنة قاسية من عقابيل هزيمة « ينا » ، كان مجد فردريك الأكبر قد انهدم ولم تعد بروسيا سيدة أوربا ، بل أصبحت دولة من الدرجة الثانية يتصرف النسر الفرنسى فى أرضها تصرف المالك فيما ملكت يمينه : يجمع الولايات الألمانية على ظاهر ، ويفرقها فى باطن ، ويفوز منها فى كلا الحالين بأوفر نصيب ، وكان الجيش البروسى قد حُلَّ ، وأصبحت الحكومة البروسية خاضعة للإمبراطور فى فرساى ، يصرف أمورها كما يشاء .

وكان الشعب الألمانى كله قد أخذ ينهض نهضته العظيمة التى اقترنت بأسماء « شتاين» و « شاهرنهيرست » و « جلاوسوتز » والملكة الجليلة لويزا ، فانصرف « شتاين » انصرافا تاما إلى معاونة أنصاره : شجع شاهرنهيرست فى إصلاحه الحربى الذى مهد به الطريق إلى انتصارات ليبزج وميونيخ ووُترلو ، ونفخ من نشاطه فى مشروع جلاوسوتز الاجتماعى ، حتى بدأت الحياة تدب فى جسد المجتمع الألمانى الذى أنهكته الهزائم المتتالية . ثم عقد الخناصر مع الملكة المصلحة ، وبذل لها النصح خالصًا ، فما عتم نابليون حتى أحس بخطر هذا الرجل ، ورأى بعينيه أنه يوشك أن يقلب عليه الدنيا ..

وكان نابليون قد بدأ يحس اضطراب كرسى الإمبراطورية تحت قدميه ، كانت جيوشه قد بدأت تذوق الهزيمة للمرة الأولى فى وديان إسبانيا ، فهلل « شتاين » فرحا ، وبعث إلى صديق له بخطاب تمنى فيه لألمانيا نصراً على الفرنسيين يشبه نصر الإسبانيين . ويشاء الحظ العاثر أن يعثر جواسيس الإمبراطور على هذا الخطاب ، وأن يترامى نبؤه إلى الإمبراطور ،

وهو آنئذ بمدريد ، فأصدر قراراً صادر به أملاك شتاين فى وستفاليا ، وطلب إلى الملك عزله، فإذا عُزل فقد أعلن نابليون أن « شتاين » عدو لفرنسا والاتحاد الألمانى .

وهناك يتهدده الخطر من كل ناحية ، كان جواسيس فرنسا يتتبعونه من مكان إلى مكان، وكان رأسه طلبة يرتاح إليها نابليون ، فاختفى عن الناس وقد أصبح شريدًا لامال له ولا جاه ، طريداً لا يؤويه إنسان ، حتى وسعته رحمة الله فيسرت له مقاماً هادئاً فى كنف صديقه فون ريدن ، فظل مختبئاً عنده سنوات ثلاثاً .

* * *

وكان نابليون قد بدأ يلتفت إلى الروسيا : كان قيصرها يزعم لنفسه حق معارضة إلٰه أوربا، وكان يجد نفسه فى حِل من أن يخضع تاجه لهذا الاستبداد الذى يفرضه نابليون على قارة بأسرها ؛ ولكنه كان يخشاه ، كان يخشى على دولته عاقبة هزيمة مثل أوسترلتز أو انكسار مثل مارنجو ، ومن ثم وقع فى حيرة مقلقة ، حتى هداه الله إلى شتاين ، فبعث إليه فى معتزله يستقدمه ويستنجد به .

أسرع شتاين إلى القيصر إسكندر الأول وأصبح مشيره وأمين سره ، فجعل هذا الوزير الجليل يبسط للملك سياسة أوربا ويشرح له مواطن الضعف من عاهل أوربا ، فتشجع القيصر وتقرب من بروسيا ، وعقد الحليفان صلحًا فى « كاليش » قررا فيه محاربة نابليون حتى النفس الأخير .

هنالك بلغ الغضب من نابليون كل مبلغ ، وصمم على سحق « شتاين » وحاميه القيصر ، وساق على الروسيا فى خريف ١٨١٢ ذلك الجيش الهائل الذى انفرد فى التاريخ بلقب « الجيش العظيم » . وكان جيشاً قميناً بأن يمحو القيصر ورجاله وبلاده لولا شتاين، لولا نصح الوزير الجليل الذى جعل جنود الروس يتقهقرون هذا التقهقر التاريخى المجيد ، حتى إذا أدرك نابليون موسكو ودخلها وجد أن قواه قد تفرقت بدداً ، وهناك عرف النسر ، على أضواء نيران موسكو وهى تحترق ، أى رجل هو شتاين ! .

انقلب نابليون راجعاً يجرر أذيال الهزيمة الماحقة ، ومن خلفه شتاين كأنه يسوقه بعصاه حتى إذا بارح نابليون حدود روسيا ، أسرع شتاين إلى ليبزج ، وهناك جعل يعد

العدة ليستقبل نابليون بهذه الجيوش التى دبرها وساقها عليه من أركان أوربا حتى سميت حربها « حرب الأمم » ، فإذا تمت هزيمة نابليون فى ليبزج ، وانحدر الحلفاء خلف نابليون إلى فرنسا ، فقد بقى شتاين فى ليبزج ليمهد للحلم الذى كان يخامره طيلة أيام حياته ، وحدة ألمانيا ! .

وهنا وقف فى وجهه حائل لم يكن يتوقعه ، حائل لا يقل عن نابليون خطورة ولا قوة ، هو مترنيخ ! ذلك المستبد الذى كان لا يفزعه شىء مثل وحدة ألمانيا ونهضات الشعوب ، ولم يكن فى استطاعة شتاين أن يهاجم مترنيخ ، إذ كان حبيباً إلى نفس الإسكندر ثقيل اليد على العرش البروسى ، فوقف شتاين أمامه مكتوف اليد حائراً لا يدرى ما يفعل : أيهاجم ملك بروسيا وهو وليه الأول ومعينه على إتمام الخطوات الأولى فى إصلاح ألمانيا ؟ أم يطيع الإسكندر وهو صاحبه وناصره ؟ أى الأمرين أهون ؟ وأيهما أرضَى للضمير الحر الكريم ؟ .

ولكن الحيرة لم تطل ، وقد كان شتاين من أولئك الذين يرون أن قتل النفس أهون على الضمير من هذه الخيانة ، والاعتزال خير من حرب حامية يعلنها على ضميره وماضيه ، وليس هو بالذى يعض اليد التى تطعمه ، فلا معنى لإعلان الحرب على الملك أو القيصر ، وإنما الخير هو أن يمضى فى كفاح مترنيخ منفرداً ، وقد استطاع أن يهدم طاغية ، فليهدم خليفته الطاغية الآخر ! .

اجتمعت الدول فى فينا ، وجلس المنتصرون يقتسمون الغنيمة الطيبة ، وأخذ القيصر مجلسه فى المؤتمر ، وأراد أن يتحدث وأن يبدى آراءه بالبلاغة والجمال الجديرين بمركز القيصر العظيم فأعوزه الكلام ، وشعر أنه بحاجة إلى الرجل الذى كان يعينه بقلبه ولسانه ورأيه كلما طلب الحديث . وتلفت ملك بروسيا يلتمس نصيحة ذلك الذى مهد له طريق هذا النصر ، فلم يجده إلى يمينه . وكانا فى حيرتهما هذه يحاول كل منهما أن يفوز بشتاين إلى جانبه ، ويود لو يستأذن فى ذلك صاحبه ! .

ولم يطل صبر القيصر فقد كتب يستقدم الرجل على عجل . فإذا كان القيصر فى كرسيه العظيم فى المؤتمر ينتظر قدوم شتاين بين آونة وأخرى ، إذا برأس تنحنى عن يساره ، فالتفت فإذا رسوله يناوله خطابا . وقرأ القيصر الخطاب ، واختلط فى سمعه صوت مترنيخ يدوى فى

قاعة المؤتمر ، وأنين نابليون فى إلبا بكلام شتاين فى خطابه : إن الرجل ليعتزل العمل ، إنه ليترك الطاغية الجديد يعمل ما يشاء ، فهو لا يستطيع شيئاً حياله ، لأنه لا يريد أن يعاديه رهو صديق القيصر والملك ، وإنه ليرجو أن يقضى بقية أيامه فى دراسة التاريخ ! فربما كانت دراسة التاريخ أخف من بناء التاريخ ! .

استطاع القيصر أن يُخفى حيرته واضطرابه عن كل الجالسين ، واستطاع أن يلقى بعض الأحاديث خلص بها من حرج الجلوس فى المؤتمر ، ولكن إنساناً واحداً فهم حيرته وعرف سرها وأدرك كسبه منها ، فابتسم ! والتقى وجهان : وجه ملك بروسيا الباسم ووجه القيصر المحزون ، وكان ينبغى أن يتحدثا وأن يتبادلا التحية ، لأنهما حليفان ألقت الدنيا مصايرها إليهما ، وكان عليهما أن يسيرا جنباً إلى جنب لكى يهيئا للدنيا سلاما جديداً ، ولكنهما كانا يشعران أن أيديهما مغلولة لا تستطيع من الأمر شيئاً ، لأن مترنيخ يسيطر على الأمر كله ويأبى عليهما مجرد الرأى ! .

ولم يكن لهما من رجاء إلا شتاين ! فهو الوحيد فى هذه القارة العظيمة الذى يستطيع أن يقف أمام طاغية فينا ، ويهيىء لهما شيئاً من الحرية ! ولكن كيف ؟ .

إن الرجل ليعلن فى صراحة أن العمل فى ظلال مترنيخ مستحيل عليه ، وأن أول ما يراه هو معاداة هذا الرجل وإقصاؤه ، لأنه عدو الحريات وعدو الشعوب ، وشتاين لا يعمل إلا مع أنصار الحرية وخُدَّام الشعوب . وهو يعلن كذلك أنه لن يستطيع معاداة مترنيخ ، لأنه يرى فى ذلك عقوقا لحقوق القيصر وإنكارا لأفضال ملك بروسيا ، فليس هناك من مخرج والحالة هذه إلا أن يعتزل العمل جملة ، وأن يمضى إلى معتزل هادىء ينفق فيه بقية أيامه فى قراءة صحائف الماضين .

وفهم العاهلان ألا سبيل لرد شتاين عما رأى ، فهو رجل صلب لا يحيد عما يراه حقا ! وكان قلبا الملكين يخفقان على دقات قلب الوزير المسكين ، فلم يجدا بُدًّا من تركه يتسلى مع أخبار الخالين ، فلعل الفرصة أن تبدو مرة أخرى فيعود الرجل من جديد .

ولم تسنح الفرصة بعد ذلك أبدا ، لأن الأجل المحتوم وافاه ، ومضى مع الخالدين وهو يدرس أخبار الغابرين ! .

على تلال فالمى

تلك أوطان بارك الله لها فى أهلها ، تلك أوطان أعزها الله بمن يعيشون فى أعطافها ، أكرموها وخرجوا لها عن نفوسهم فأعزها الله وأصبحت بين غيرها من الأوطان كالتبر بين التراب . وفى الأوطان الغالى وفيها الرخيص ، فيها الغالى الذى يقوم على الأعناق ، وفيها الرخيص الذى يستكثر أهله السير فى سبيله ! فيها ما يحطه أهله فى الرغام ، وفيها ما يرفعه أهله فوق السماك . والأوطان بضعٌ من أرض الله الواسعة ، لا تمتاز بضعة منها على بضعة أخرى إلا بمن يعيش فوقها من الناس ، فإن كان الناس أعزةً عزت الأرضون بهم وارتفع مقامها ، وإن كانوا أذلة هانت على الناس وداسوها بالأقدام ونشروا فى ربوعها الذل ، ورفرف على آطامها الفقر ونعق على خرائبها البوم .

وفى بنى الأوطان من يرون حب الأوطان فرضاً واجبا ، وفيهم من يراه هَـمًّا ناصبا . فيهم من يبذل النفس للوطن ، وفيهم من يبذل الوطن لقاء مال ؛ وكيف لا يكون الفرنسيون أعزاء بالوطن الفرنسى ؟ وكيف لا يكون الوطن الفرنسى عزيزاً بالفرنسيين ، إذا كانوا لايعرفون فرقاً بين تراب الوطن وحبات العيون ؟ وإذا كانت أرض بلادهم قد رَوِيت من دمائهم أكثر مما رويت من ماء المزن والأنهار ؟ إنما الوطن وحى أفكارهم ومدار أحلامهم وملتقى آمالهم .. وما الموت ؟ وما الحياة ؟ .. وماذا يساوى كل ما فى الأرض من طارف وتليد إذا لم يرتفع علم الوطن عزيزاً ، وإذا لم يرتفع به أهله فيخفق فوق الرؤوس ويطمئن فى حبات القلوب ؟ .

ووطننا نحن قد شراه أجدادنا بدمائهم ، وما من بقعة منه إلا شُرِيت ببضعة من قلب أو جارحة من بدن . ودونك تاريخ بلادك فاقرأ حيثما شئت وكيف شئت ، فأنت واجدهم آخذين بحجز الدهر أبداً ، يرميهم بالعدو بعد العدو ويرمونه بالجحفل بعد الجحفل ، ولو

أقمنا لكل شهيد نُصُبًا لما رأت عينك غير نُصُبٍ تغشى الأرض من قسمايو فى تخوم زنزبار إلى جبال طوروس فى آسيا الصغرى ، ومن حدود فارس إلى برقة من تخوم المغرب ! .

وكل الأعزاء من بنى الدنيا على هذا الغرار ، ليس فيهم إنجليزى أو أمريكى أو ألمانى أو هولندى إلا جادت نفسه بهذا الفداء راضية .

ولا يغرنك ما يتعاورهم من الهزائم بين الحين والحين ، فإنها مداعبات زمان يرفع حينا ويضع حينا ، والأعزاء من بنى الدنيا لا يزالون بين نصر وهزيمة ولكنهم لا يستكينون أبداً؛ إذا مال الزمان بهم يوماً علا بهم أياماً .

* * *

هذه ثلاث سنوات انقضت على الثورة الفرنسية ، هدم الثوار فيها كل ما خلفته قرون الاستبداد من الفوضى والانحلال هدما ، استفاقوا قبيل الثورة فإذا وطنهم العزيز أطلال أو يوشك أن يكون أطلالا ، وقد عبرت بهم حقب من الانحلال فسد فيها كل شىء : لم يعد الجيش للشجعان وإنما للصفوة المجتباة من أبناء السادة والنبلاء الذين يطلبون مناصب الجيش للزهو والزينة ، ولم تعد مناصب الدولة الكبرى للقادرين الأكفاء وإنما للمقربين وذوى الجاه ، يطلبون المناصب للمغانم والمكاسب وإذلال المساكين . ولم تعد رعاية الدين للورع المتدين بل للمحتال المغامر الذى يلتمس المال والمتاع عن طريق المسوح .

فى مثل هذه الظروف هبطت قيمة الإنسان إلى مستوى الجماد الذى لا يُحسب لإحساسه حساب ، وبَعُدت الشقة بين الترف المونّق والمتاع الباذخ فى مغانى فرساى والبؤس الشامل فى حقول الفلاحين وفى أزقة باريس . وكلما زادت الشقة بعداً اشتد شوق الناس إلى الخلاص من هذا الحال السيىء ، وأخذ كتابهم ومفكروهم يكتبون فى الحرية والإخاء والمساواة ، وأقبل الناس يقرأون هذه الكتابات إقبال النهم الذى يلتمس المخرج من أى سبيل .

وآمن الناس بحقهم فى المساواة وفى العدل ، وجعلوا يترقبون الفرصة لتحقيق أحلامهم فيها ، وما إن تولى أمورهم لويس السادس عشر ولمسوا فيه الضعف والطيبة والحيرة والتردد

حتى ثاروا ثورتهم الكبرى فى يوليو سنة ١٧٨٩ ، ثاروا على الرق وعدم المساواة والظلم ، وثبتوا لحرب هذه الشرور ثباتا انتهى بهم إلى النصر وإلى القضاء على الاستبداد . ولم يكد يمضى زمان حتى أصبحوا طلقاء كالطير أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم ، لم يحفلوا لشىء ولم يترددوا فى شىء ، وإنما قذفوا بالماضى جملة ، ووقفوا بأنفسهم يدبرون أمرهم وينظرون ويقيمون بناء وطنهم على أسس جديدة تؤمّنهم من شرور الماضى ومساءاته .

أثبت الفرنسيون فى الواقع أنهم جديرون بالثورة التى أشعلوا نيرانها ، فقد عملوا فى جد وهمة يبعثان على الإعجاب فى تحقيق مثل عليا ظلت إلى الساعة أحلام فلاسفة ، وظهر فيهم عبقريون موهوبون فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فلم يغادروا ناحية من نواحى العمل إلا أنشأوا فيها شيئاً جديداً . بيد أن الحماس مضى بهم حتى جاوز الحد المأمون ، فأسرفوا فى التغيير ولم يعد يعجبهم شىء ، وكلما بنوا اليوم نظاما أصبحوا من الغد فهدموه ، وانقضوا على أصحابه فى قسوة المتعصب المتحمس ، فتواترت عليهم الأنظمة وملأت قلوبهم الحزازات ، واضطرب بهم الأمر ورفرفت طلائع الخيبة على هذا الانقلاب الإنسانى العظيم .

هناك تحرك الطمع فى قلوب الذئاب الضارية ، تحرك الطمع فى قلوب البروسيين وهزهم الشوق إلى قطعة من أرض فرنسا ، واستفاقت الغريزة فى نفوس النمساويين ومالت بهم الرغبة إلى نصيب من الوطن الفرنسى المضطرب ، وحسبوا أنهم لن يجدوا من يردهم عن إدراك هذا المطلب ، فالثوار كانوا قد هدموا الحكومة هدما ، وألغوا الملكية إلغاء ، وشردوا الأشراف تشريدًا ، ووقفوا فى منتصف الطريق يديرون الأعين فى خوف ورهبة لا يكادون يعرفون لأنفسهم مصيراً .

واستبان هذا للفريقين الطامعين ، فعقدا الخناصر على إنقاذ مآربهما معًا ، واتفقا على أن يسيرا معاً لحرب هذا النظام الجديد والقضاء عليه ، وجمعا من أجنادهم نفراً عزيزاً ، وأعدا جيشاً قوياً ، وأعلنا فى غير خشية أنهما سيتدخلان فى شئون فرنسا ، وزعم قادة الجند أنهم إنما ينهضون لإغاثة الملكية الفرنسية التى أصابها من نزق الثائرين أذى شديد ، وما هى إلا شهور حتى كانت الجيوش النمساوية البروسية تخطو على أرض فرنسا على مهل يقودها

الشيخ العجوز برنسويك حتى أدركت فردان ، وأصبح الطريق إلى باريس هيناً يسيراً .

روع الفرنسيون لهذا وملكهم الخوف ، وبرز من صفوفهم شبح طاغية من أذكى وأقدر وأقسى ما نعرف من صنوف الطواغيت ، ذلك هو جورج جاك دانتون : رجل وهبه الله من القدرة على البت فى التنفيذ ما لم يهبه لغير القليلين من الناس ، جمع السلطان فى يده وأعلن فى البلاد حكومة الرعب ، وأظل فرنسا كلها بخياله الضخم ، وجمع الناس حوله ومضى بهم من مذبحة لمذبحة ، ومن مغامرة إلى مغامرة ، حتى استقام له جيش مضطرب مهلهل لم تسبق إلا للقليلين من أجناده تجربة فى الحرب والقتال ، وكان جرىء القلب ثابت النفس حسن الظن بنفسه شديد الإعجاب بما آتاه الله من بلاغة وجلد ، فجعل يؤكد لمن معه أنه لن يكتفى بسحق المهاجمين ، بل سيفتح بلجيكا ، وسيصل بقواته إلى شاطىء الرين ، وصدقه الناس بين ذاهل فى لجة الحماس وغارق فى غياهب الخوف ! .

وأعلن دانتون « أن الوطن فى خطر » وارتفعت الراية السوداء فى جو باريس ، فأثار خفقُها فى نفوس الناس هما لاعجا ، وأُعلن التجنيد الإجبارى فتهافت الناس تهافتاً ، إذ لم يطيقوا أن يروا الوطن فى خطر وهم سكون ، وأخذت فرق المتطوعين تترى لتنضم إلى جيش المركيز مارى جوزيف دِلافاييت الصغير الذى كان يسير قدما ليلقى برنسويك المحنك وجيشه العظيم .

وأصيبت البلاد جميعها بالحمى ، وتجسم الخطر الخارجى أمام الناس ، ولم يكن لهم عهد بإدارة الحكومات ولا بقيادة الجنود ، فاشتد الضيق بهم وشملهم الخوف ، وتوالى الوزراء على وزارة الحربية ، فلم يوفق منهم أحد إلى حل المشاكل وتسكين الخواطر : تعاقب عليها ناربُون ودى جراف وسِرفَان وديمورييه ولاذْجَار ودابِنكور فى ستة أشهر ! وكانت البلاد على شفا الإفلاس : لا نعال ولا ملابس للجند ولا سلاح للحرب ، وإنما شعب هائج مضطرب يرى العدو مقبلا من الخارج ويتخيل شبحه فى الداخل ، فيزداد حاله سوءاً ، وتنتابه حالات من الرعب والعصبية لا يجد مخرجا منها غير الانقضاض على من تحوم حوله شبهة الخيانة وإسلامه للجلاد فى غير رحمة ، حتى سيطر على الناس الرعب وفقدوا شعور الأمن وارتدوا إلى حالة من الهمجية لم تعرفها الإنسانية فى أحلك أيامها .

وبسط زعماء اليعاقبة يدهم على كل أحد وفى كل شىء ، وجعلوا كلما تقدم العدو شبرًا زجوا فى السجون بضعة آلاف ممن يشتبهون فى وطنيتهم وفى ممالأتهم للملكية أو للعدو المهاجم ، حتى غصت السجون بمن تكدس فيها ، وحتى كلت شفرات المقاصل من كثرة ما قطعت من الرقاب ، والشبان والشيوخ المتحمسون فيما بين ذلك يتطوعون فى الجيش بالآلاف ، ودانتون يحشدهم حشداً ، ولافاييت يتلقاهم لا يكاد ما لديه من الملابس والمؤن يساعفه على قبولهم ، حتى أصبحت باريس وغيرها من مدائن فرنسا معسكرات .

ولو قد وقف الإنسان فى أى طريق من طرق فرنسا فى تلك الأيام ، لرأى سيول الرجال يسيرون خلف العلم المثلث الألوان يقصدون باريس وليون وريمس وغيرها من مراكز التطوع ينشدون المارسيليز ، وتكاد نفوسهم تنفذ من إهابها من فرط التوفز والحماسة . واستمر الحال على ذلك حتى أقبل أغسطس سنة ١٧٩٢ ، واشتد الحال سوءًا ، وخاف الملك على نفسه فاستسلم للجمعية العمومية ، ونهب الناس التويلر . ونظر لافاييت فى الأمر فلم يحتمل أن يرى هوان الملك ـ وهو الملكى الأمين ـ فترك قيادة الجيش وعبر الحدود وأسلم نفسه للأعداء ، وأصاب الناس من ذلك هول لا يوصف ، وسارت جموعهم فى شوارع باريس تهتف بسقوط لافاييت وتفتك بكل من حامت حوله الظنون .

ترى ماذا يفعل الفرنسيون وقد حُرموا حتى من القائد المحنك ؟ ترى ما عساهم صانعين إزاء هذا العدو الذى يطرق الأبواب ؟ هنالك نهض دانتون نهضته التى لن ينساها له التاريخ ، وأهاب بالفرنسيين أن يثقوا فى ديموريه ، فأسلمت القيادة إليه وعادت إليه ثقة الناس ، وانهالت سيول المتطوعين حتى عجزت الحكومة عن أن تدبر لهم ما يلزمهم للميدان ، وأسرع ديموريه إلى الشمال ليلقى العدو بمن معه من شراذم المتطوعين والحرس الوطنى واثقاً مطمئناً .

كان البروسيون قد اتخذوا الخط الواصل بين مِتْز ودَنْكِرك قاعدة لدفاعهم ، وتقدمت فرق منهم فى الوطن الفرنسى حتى قاربت باريس وتحصنت بتلال قريبة من المدينة الخالدة، وتريث برنسويك فترة عسى أن يوفق إلى إفهام الفرنسيين أنهم لن يستطيعوا الثبات أمامه وأمام جنده البواسل ، وجعل إذا تحدث وصف الفرنسيين « بالشراذم »

و«الغوغاء» و « قتلة الأشراف » ، وأخذ يسخر منهم ويبدى الرحمة والرفق بهم ، حتى لم يكن سامعه ليشك فى أنه مبدد هؤلاء الفرنسيين فى طرفة عين .

ثم بدا له فكتب إلى حكومة الجمهورية يحذرها من المساس بالملك ومن معه ، وينذر رجالها بكل شر إذا هم جرؤوا على المساس بشعرة من رأسه . ولم يكن هذا البروسى المخدوع ليستطيع إيذاء الملك وأسرته بأكثر من هذا الخطاب ، فقد كان الثوار قد أبقوا على الملك الطيب إيماناً منهم بطهارة يده وبُعده عن الاشتراك مع أعداء الوطن فى شىء ، وكان هو قد أعلن قبل ذلك سخطه على أعداء الثورة من المهاجرين والنبلاء من أمثال كونت دارتوا ، فأحبه الناس ومالوا إلى الرفق به ، فلما أذيعت الرسالة وَجد خصوم الملك من المتطرفين فيها تعلة يتعللون بها ويغرون الناس به ، وجرؤوا على المطالبة برأسه ، وأسلموه وزوجه إلى الجلاد .

وتحمس الفرنسيون حماسة لم يكن أحد يتوقعها ، فلم يقنعوا بموقف المدافع بل تقدموا على عجل حتى احتلوا منطقة تلال « فالمى » وتحصنوا فيها ، وأقاموا مدفعيتهم على مونت إيفرون ، وثبتت البقية الباقية منهم على تل فالمى نفسه .

وأقبل البروسيون تتقدمهم المدافع الضخمة وتتبعهم الذخائر التى لا تنفد ، وانصبت نيرانهم على الفرنسيين حامية ، ولكن هؤلاء ثبتوا لها ثباتا دهش له البروسيون أيما دهش ، وعجبوا لهؤلاء القوم الذين لا تنال منهم النيران ولا تزعجهم المدافع ، بل ما هى إلا ساعات حتى بدأت المدفعية الفرنسية ترسل النيران من تل مونت إيفرون ، وحتى أخذ مُشاتهم يتقدمون كلٌّ بما اتفق له من سلاح ، وأخذوا يهاجمون عمالقة البروسيين ويردونهم الواحد بعد الآخر ، ويزحزحونهم عن أماكنهم بين عينى برونسويك وسمع الدنيا كلها .

ورأى القائد البروسى مصارع جنده ، وتوارد على سمعه سخر الناس بهم ، وبصر بالفرنسيين يجتاحون الأرضين ويكادون ينزلون بجيشه الجليل كارثة لا يزول على الدهر أثرها، فآثر الانسحاب بجنده ، وانطلقت شراذم الفرنسيين فى أثرهم حتى أدركت الرين وانساحت فى سهول بلجيكا وبلغت هولندا . وأدرك أهل أوربا جلال هذه المعجزة الكبرى

التى تجرى بين أعينهم ، وصاح جيته أديب الدنيا : « يا قوم ! نحن على أبواب عصر جديد!» فأجمل بهذه العبارة ما حار أهل زمانه فى فهمه ، شأنه فى كل ما قال .

بهذه الوطنية العزيزة ثبت الفرنسيون فى فالمى ، وردوا العدو عن بلادهم مدحورا ، وقد كان الناس لا يشكون فى أن الفرنسيين منهزمون لا محالة ، وأن باريس واقعة لا ريب ، ولكنهم حينما فكروا هذا التفكير أخرجوا من حسابهم وطنيةَ الفرنسيين وقوتَهم المعنوية ونفوسهم التى اشتعلت بالوطنية اشتعالاً .

إن الفرنسيين قد أشرقت نفوسهم فى هذه الحقبة من تاريخهم بشعور روحى عظيم ، ملأ نفوسهم بقوة أغنتهم عن السلاح الوافر والخبرة الطويلة ، وكان برنسويك ينظر إلى هذا الذى يجرى تحت بصره وهو لا يكاد يفهم من أمره شيئاً ، وكان الإنجليز يتلقون الأخبار من خلف قنالهم ويتوقعون للفرنسيين كل هزيمة ، لأنهم كانوا يعيشون حتى هذا الزمان على أمل استمرار القارة الأوربية وأهلها فى الاضطراب والفوضى وسوء الحال حتى يجنوا من وراء ذلك الأموال ، فضايقتهم أخبار هذه الثورة وحسبوها جرأة لا تغتفر على الأوضاع السارية والنظم التى لا ينبغى أن يستبدل بها غيرها .

ولكن ذوى البصر من أهل ذلك الزمان لم يخف عليهم المعنى الجديد الذى ضمه انتصار فالمى رغم أنه تم بعد قتال قصير ، لأن الواقع أن برنسويك تعجل الانسحاب نجاة بجيشه من هزيمة يبقى على الدهر عارها ، ولو وثق من النصر لتقدم ودخل باريس ، ولكنه أحس أنه يواجه قوة لا تغلبها مدافعه ولا فنونه العسكرية ، ولا عماليقه ذوو الدربة ، إذ كان أمامه شعب بأسره يقاتل ، شعب من الجند البواسل تعمر قلوبهم قوة تجعل من كل منهم قائدا . فأين منهم جنده المدربون لا يتحركون إلا بأمره ، ويقاتلون فى سبيل شىء لايفهمونه ولا يهمهم تحقق أم لم يتحقق ؟ .

لقد كانت شرارة فالمى تمثل عصرا جديدا كما قال جيته ، وكان ذلك مفترق طرق فى تاريخ الإنسانية ومنعرجاً فى قضية البشر ، ولم يكن فى استطاعة برنسويك ولاكِلرْمان ولاغيرهما من قادة العصر أن يهزم العصر الجديد الطالع بفلول عصر قديم يجر ذيوله كما تجر الشمس الغاربة بقايا نهار ذابل من فوق الروابى والجبال .

كانت هذه رسالة الفرنسيين إلى الدنيا وأهلها ، وسيحفظها الناس عنهم فى طيات الخلود ، فقد كانوا أول من ذكر الناس بأن الحرية حق لكل إنسان ، وأن كل من يحسب من البشر ينبغى أن يطالب بحريته وينافح فى سبيلها ، وإلا لم يعد إنسانا ، وأن كل حكومة ينبغى أن تقوم على حرية الأفراد وإلا لم تكن حكومة ، وأن أمة من الأحرار تساوى عشرات من أمم غير الأحرار ، ولرعية حرة تفهم واجبها وتقوِّم الحاكمين عليها ، خير من رعية ذليلة مستعبدة لا تدرى إلى أين يُسار بها ، وينتهى أمرها ـ حكومة وشعبا ـ إلى زوال .

حياة أديب

أونوريه دى بلزاك

هلم بنا إلى دار هذا الأديب الفريد .. هذا هو شارعه ، وهذا هو منزله وأخيراً هذه هى حجرته تضطرب فيها شموعه ، وهذا هو يبدو لنا من نافذته مكبا على منضدته الصغيرة إنه يكتب ، إن يده لتجرى على القرطاس خفيفة كأن روحا خفيا يسيِّرها ، فيتناول الأوراق واحدة فواحدة ، ولا تكاد دقائق تنقضى حتى يكون قد فرغ من تسويدها بسلاسل من خطه المعجل الذى لا يكاد يقرأ لعجلته ، وكلما فرغ من واحدة ألقى بها على الأرض كأنه لايحفل لها ، وقد انقضت الساعات وهو مستغرق فى كتابته كأنما لا يدرك مما حوله شيئاً ، وكأنما هو يعيش فى سطوره لا فى دنياه ! .

انظر كيف ينهكه التعب من فرط الجهد واستمرار العمل ، حتى إن يده لتقف عن هذه الحركة الدائبة التى تتصل ساعات بأسرها ! ولكنه يريد أن يكتب ، بل لازالت أمامه أفكار وصور أخرى تتلاحق فى ذهنه ولابد له من تسجيلها ، فليتوقف هنيهة يستريح فيها ليعود إلى العمل من جديد .

فإذا وضع القلم فقد مضى إلى المنضدة الأخرى وأوقد النار ليضع إناء القهوة ، ثم يعود فيجلس على كرسيه منهكاً ، إنه ليتأمل الأوراق المتناثرة على أرض الغرفة ويتمنى لو استطاع أن يجمعها ، ولكنه مكدود لا يكاد يستطيع حراكاً .. ها هو ذا يلوى عنقه ليلقى نظرة على المرآة من خلفه ، فيطالعه شحوب وهزال ، فيملكه الخوف ولا يستطيع أن يطيل النظر ، وينثنى إلى الأمام يتأمل الأوراق التى لم تزل أمامه بيضاء ، ثم يسرع إلى القهوة فيشربها معجلاً ، ويعود إلى مجلسه فيتناول القلم ويقرأ آخر كلمة كتبها ثم يكتب التى تليها ويمضى خفيفا ، وتتناثر الأوراق على أرض الغرفة من جديد .

إن المشهد لفريد حقا ، فهذا الرجل الجالس يكاد يجمع فرنسا كلها فى ذهنه ، إنه لاينفق الدهر يتسلى برؤية الناس كما يفعل غيره ، ولكنه يرى الدنيا بعينيه ليطبع صورها فى ذهنه ، حتى إذا تقدم الليل عاد من سهراته الطويلة إلى داره وأخذ يستعرض ما تجمع فى ذهنه من صور الحياة ، ثم نفث فيها الحياة من روحه الفياضة وهو فى خلواته الساكنة التى نشهد الساعة إحداها . لقد مضت علينا ساعة ونصف ساعة وأوشك الصبح أن يطلع ونحن نتأمل هذا الرجل خلسة ، إنه ساهر يقظ مادامت باريس نائمة كأنه ملاكها الحارس ، فإذا استيقظت أذن لنفسه فى الراحة ومضى لينام .

هاهم أولاء أهل باريس قد نهضوا إلى أعمالهم ، وبدأت المدينة النائمة تتحرك فى مضجعها ، وها هو ذا عامل يأتى فيطرق باب صاحبنا فينهض ويفتح له الباب ويعود إلى مجلسه ليمضى فى الكتابة ، وينحنى العامل فيجمع الأوراق ويأخذها وينصرف دون أن يلقى بالا إلى الرجل المكب على أوراقه ودون أن يلقى هذا إليه بالا ، كأن أحدهما لا يعنيه ما يفعل الآخر ، ثم يرفع الرجل رأسه ، فإذا أضواء النهار تبدو ، فيضع القلم فى هدوء ويمضى إلى فراشه ويختفى خلف غطائه ويستغرق فى نوم عميق .

هلم بنا ، فقد نام بلزاك العبقرى ليصحو فى مساء اليوم التالى ، فإذا صحا أثناء النهار فلن نرى فيه إلا رجلا عاديا . لقد نام الرجل الذى يحرس باريس ويصورها ، ويعجب بها ويعايش أهلها ، وينفذ إلى أعماق نفسها ولا يرضى بها بديلا ، وصحت باريس التى تحب هذا الرجل وتعجب به ، وتردد اسمه وتشهد بعبقريته .

فها هى ذى مطابع باريس لا تكاد تكفى حاجة الناس من فنه وإنتاجه ..

وهذه هى الصحف والمجلات تقدم إلى قرائها فصولاً من قصصه ورواياته ..

وهؤلاء هم أهل باريس يلتهمون ما يقدم إليهم من ثمرات فكره ، ويتحدثون عنه ويعجبون به فى غير انقطاع ..

فهذا رجل لا يكاد يشعر بما حوله من فرط انصرافه إلى ما يقصه بلزاك عن الأب جُوزْيو..

وهذه فتاة تضطرب أنفاسها أسًى لآلام « أُوجنيه جراندیه » ..

وهذه هى المجالس الأدبية تتحدث عن « إهاب الأسى » ..

بل أكثر من هذا : هذه امرأة فى أقصى بولونيا ، تقرأ فى شغف كل ما يصل إليها من كتابات بلزاك ، وتلح على بائع الكتب أن يوافيها بكل ما لديه منها ..

إنها لتعجب بهذا القلم الذى يصور لها الناس فيبعثهم فى خيالها أحياء . فهذا جاك ، وهذا لوسيان ، وذلك رُستنياك ، وتلك إستر ، وهذه دِلفين .. كلهم من خلق بلزاك ، وهم فى خيالها أحياء كأنها رأتهم رأى العين ، وصاحبتهم من حياتها الأيام بعد الأيام ! .

إن إعجابها بالرجل ليبلغ مبلغاً لا تملك معه مشاعرها ، إنها تحبه وتعشقه وتمضى إلى وصيفتها فتسر إليها هواها ، ثم تخلو المرأتان إحداهما إلى الأخرى فتكتبان خطابا إلى الساحر البعيد .

ولكن فريقا من الناس لا يرضون عنه بل يسخطون عليه سخطا بالغا . ليسوا أدباء ولانبلاء ولا ممن يلقاهم الناس بالاحترام والتقدير ، إنهم المرابون الذين لا يرون فيه إلا مصرفاً يأخذون منه فوائدهم بانتظام ، ويدفعونه إلى الكتابة دفعاً ويرغمونه على سهر الليل، ويهدِّدونه بالسجن إن لم يفعل ..

وهو الآخر يكرههم ويسخر منهم ، ويتعمد الإطالة فى الحديث عنهم فى رواياته لتضحك منهم باريس ، بل لتضحك منهم الدنيا ، فلا تكاد إحدى رواياته تخلو من بخيل أو شحيح أو مُراب أو من أحد أولئك الأوغاد الذين لا ينجو من شرهم من يقع تحت رحمتهم ، ولا يرون للإنسان قيمة إلا بقدر ما يملكه من الذهب وما يحتجن من المال .

فهذا الرجل لا يكتب طواعية إذن ، إنه مجبر على ذلك ، إنه لا يتأنق تأنق تيوفيل جوتييه، ولا ينتظر الوحى حتى يأتيه على مهل مثل فكتور هيجو ، ولا يكاد يجد الوقت ليتحنن تحنُّنَ لامرتين ، أو ليذرف الدمع كما يذرفه ألفريد دى فِنْىْ ، ولا يسرف فى القراءة والدراسة إسراف أدولف هيبوليت تين ، لأن الوقت يعوزه ولأن الدَّين يثقل عليه ، وهو لهذا يصف ما يرى فى سرعة ودقة ، ويستلهم عينيه ولا ينصت كثيرًا إلى ما يقوله هؤلاء الأدباء

المتأنقون إذا اجتمع جمعهم فى صالون « جيرار » ، ولا يكترث لسخرهم وتندرهم به وبما يكتب .

إنه يكترث لشىء واحد : لباريس وأهلها ، يصفهم ويتحدث عنهم حديث العارف اللبيب المتفطن ، وإن تيوفيل جوتييه ليعجب من هذا عجبًا شديدًا ، ويقص على أصحابه كيف ذهب مع بلزاك إلى اللوفر ذات مرة ، وكيف انتهيا إلى تمثال فينوس ، فدار جوتييه حوله يعجب بروعة الفن وجلال المشهد وسحر الصخر الناطق ، ومضى يتفلسف ويتحذلق ، يشرح لبلزاك ما خفى عليه من نواحى الفن فى هذا التمثال الفريد ، ثم حانت منه التفاتة إلى بلزاك فإذا هو منصرف عن التمثال ومافيه من الفن ، مشغول بباريسية حسناء تتأمل التمثال ، إنه لا يغازلها بل يتفحصها من قمة الرأس إلى الحذاء ، لكى يصفها لقرائه إذا خلا إلى أوراقه ، ولكى يصوّرها لأهل عصره ولمن سيأتى بعدهم من أهل الأعصر المقبلة ..

لقد طالما ضحك تيوفيل جوتييهْ من ذلك وأضحك منه المتحذلقين المتفلسفين أمثاله ! ولَكَمْ رثوا لبلزاك وأسفوا على إنفاقه أوقاته فى وصف العوام وأصاغر الناس ، ولكم تمنوا أن ينصرف عن ذلك ويشاركهم فيما كانوا يقطعون الوقت فيه من فلسفات ينقطع النفس قبل أن يدرك مداها ، وفى صياغة عبارات حسنة تخلب اللب ولا تشغل النفس لقلة ما فيها من الحياة ! .

كم أسفوا لأن بلزاك لا يشاركهم فى هذه البهلوانيات ، وكم سخطوا عليه لما وفق إليه من إعجاب الناس وخلود الاسم بما كان منصرفا إليه من خلق وإبداع ! .

لقد غاب معظمهم اليوم فى ألفاف النسيان ، وبقى هذا الرجل الذى كانوا يعتقدون أنه بسيط : أونوريه دى بلزاك .

* * *

كان بلزاك يسمى نفسه « دكتورا فى العلوم والعلل المستعصية » ، وليس أصدق فى وصف هذا الرجل من ذلك التعبير الدقيق . كان طبيب عصره الذى يفحصه ويكشف عن أمراضه ويستبطن علله ، لم يكن ينظر إلى الماضى ، وما كان الغد ليعنيه ، بل لم يغادر فرنسا

بخياله أبداً . كان همه مقصوراً على شيئين : النظر والكتابة . يرى جيداً ، ويصف جيداً . يقدم لك الشخص ويرسمه فى براعة تخيله لك حيا يخطر ويتحرك أمامك ..

وإن أشخاصه ليكوّنون عالما كاملا ، هم ألفان أو ثلاثة آلاف فى أنماط متباينة وألوان متغيرة ، يتفرقون فى مسالك الحياة ولكنهم يجتمعون بين دفتى هذه « المأساة الإنسانية » الكبرى التى جمع فيها بلزاك كل كتبه . هم فقراء وأغنياء ، ورجال ونساء ، وصبيان وشيوخ، وهم ملائكة وهم أبالسة ، وهم هذا العالم الواسع الذى تعيش فيه عبقرية الأديب العظيم راضية . خلقهم ، ورعاهم ، وكتب مصائرهم ، وأسعدهم ، وأشقاهم ، ثم توفاهم ، ووقف يرثيهم ! .

لقد أهلك الرجل نفسه ليخلق هذا الخلق العظيم ، أضناه طول السهر وأضعفت عينيه الكتابة على ضوء الشموع . لقد كان فى شبابه بدينا ، فأصبح وقد أشفى على الخمسين هزيلا ناحلا كأنما قد نيف على التسعين . وخبا نور عينيه ، وكانا رسول الحياة إلى نفسه ، بهما كان يكتب . ثم أقبلت الأمراض ، فاستقبلها جسده ضعيفا متعبا . ثم أقبل ملك الموت ، فوقف أمامه صامتا لا يدرى كيف يمضى برجل كهذا إلى عالم الصمت والنسيان ، بعد أن أبدع هذا العالم الحافل من الناس . وإن مخلوقاته الألفين لتخلد من بعده فلا تدكرها المنايا ، وإن بلزاك ليمضى إلى لقاء ربه وأبطاله ينظرون إليه ، وهم لا يصدقون أن خالقهم يموت !.

ولم يكن الرجل ـ مع هذا كله ـ مصابا بالغرور ، بل لم يكن يرى فى نفسه هذا الأديب العظيم الذى ستخلد كتاباته أدهاراً طوالاً . كان ينظر إلى الأمام أبدًا ، ويرقب المستقبل بعين القلق ، ينتظر اليوم الذى تنتهى فيه ديونه وتنتهى معها آلامه ، فلا يعود يضطر إلى الكتابة هذا الاضطرار المجهد . ولكن ديونه كانت تتجدد ، لأنه كان مسرفاً لا يطيق المالُ صحبته : لا يكاد يصل إليه منه شىء حتى يتسرب إلى غيره من الناس ، كان يشترى التحفة النادرة بالمال المكسوب بسهر الليل وضنى الجسد ، فلا تكاد تستقر فى بيته حتى يسرع الدائنون ليضعوا يدهم عليها ويرغموه على بيعها بأقل المال ، حتى لقد اشترى آنية من خزف صينى غالى الثمن فلم يمهله الدائنون حتى يستمتع بها بعض الوقت وباعها بعد أربعة أيام !

كانت ديونه فى سن الثلاثين مائة ألف فرنك ، فأجهد نفسه ليخلص منها ، وأرهق نفسه إرهاقاً شديداً : كتب « هونورين » فى ثلاثة أيام ، وكتب « الغرام الأخير » فى ثلاثة أيام أخرى ، وأخرج غرة من أروع الغرر هى « الأب جوريو » فى بضعة أشهر ، و « نائب أرسى » فى بضعة أسابيع .

كان يعمل طول الليل وجزءاً من النهار ، ويغامر فى مشاريع اقتصادية رجاء أن يفوز منها بربح ضخم يسد منه ديونه ويستريح : افتتح مسبكا للحروف ، وافتتح محلاً لبيع الفواكه ، وأجهد نفسه إجهاداً لا يستطيعه أحد ، واتصل ذلك مدى عشر سنوات ، ثم نظر آخر الأمر فإذا الديون تضاعفت ، وإذا برقمها يزداد فيصبح مائة وسبعين ألفاً بسبب إسرافه الشديد وسوء تصرفه فى المال .

هنالك كف عن الكتابة ، ويئس من الدنيا بل فكر فى الانتحار ، وما يطيق هذا الرجل أن يجبر على العمل حياته كلها كأن عصا تسوقه ، وركبته هموم الديون وخشى أن تزيده الأيام غرقاً فيها ، ولم يجد أحداً ينقذه من المرابين والدائنين ، ولم يمسكه فى قيد الحياة إلا شعوره بأن عليه رسالة ينبغى أن يؤديها قبل أن يبارح هذه الدنيا : إنه فنان لا مندوحة له عن أن ينتج ، وأن الإنتاج ليصدر عنه طواعية كما تصدر التفاحة عن الشجرة ، ثم إنه مدين لا مفر له من أن يدفع ديونه .

لهذا عاد إلى العمل ليقضى عشر سنين أخرى فى هذا العذاب المتصل ، كان نزَّاعا إلى الغنى يحلم بالترف ، ولكنه كان إلى جانب ذلك يستطيع أن يقسر نفسه على العمل ، وكان يعرف كيف يقنع من حياته بالقليل إذا لم يكن لديه إلا هذا القليل ، فقنع بحياة ساذجة بسيطة فى غرفة صغيرة فى شارع مظلم ، وأخذ يعمل . واستعان على هذا الجهد بوحى من البولونية التى حدثناك حديثها فيما تقدم من القول .

كان زوجها قد مات وخلصت له ، فلحقت به فى باريس ، واستطاع أن يصحبها معه فى غدواته وروحاته ، فخفف هذا من آلامه ، لأنها كانت امرأة ذات غنى وجاه وفتنة ، وأطلق الناس عليه لقب « كونت دى بلزاك » فلم يغن عنه ذلك شيئاً ، وكأنما ألفت نفسه سخر الناس فأحب أن يعطيهم فرصة يسخرون بها منه إلى أبد الدهر ، فعقد عقودا كبيرة

مع الناشرين وأصحاب الصحف ، وأحب أن يخلص من الدين كله ، وأن يدَّخر مالا ليكون جديرا بزوجته الغنية المترفة ! .

كان يرجو أن يسدد كل ديونه فى خمس سنين ، وكان ينتظر سنة ١٨٤٨ ـ وهى آخر المهلة التى أعطاها لنفسه ـ بفارغ الصبر ليكون صاحب قصر منيف فى باريس ، وتحدث الناس فى ذلك وتفكهوا به ، وعجب هو من أمرهم ، وجعل يتساءل : كيف لا يستطيع ذلك وعقوده مع الصحف والناشرين خلال هذه السنين تبلغ نصف مليون من الفرنكات؟ ولكنه كان يخشى أن يموت قبل أن يدرك هذه الأمنية ، وكان على صدق فى هذا الإحساس المحزن .

ها هى ذى السنة الموعودة تُقبل ، وديونه على ما هى عليه ، إنه لا يطيق عن الإسراف صبرا ، لقد اشترى قصراً كبيراً ، واقتنى كراسى من طراز هنرى الرابع ، وابتاع صوراً لوَاتُو وأخرى من عمل دافيد ، وأعد العدة ليستقبل السعادة المرموقة ، ولكنه مسكين .. إن جسده ليرق ، وإن نظره ليضعف ، وإن قواه لتهبط حتى ترين المخاوف على قلبه ، وإن آلام الحياة لتحرمه الاستمتاع بلحظة من الهناء المرجو ، وعز عليه كل شىء حتى فقد لذة العمل! وقد كانت إلى الآن عزاءه عما يلقى فى الحياة من وَصَب .

مضت سنة ١٨٤٨ وتلاها عام متعب محزن ، ثم أقبلت سنة ١٨٥٠ ، وفى إحدى أمسيات أغسطس من هذه السنة اختفى هذا العبقرى الجليل من عالم الأحياء ، مخلفاً بعده مجلدا كاملا من وثائق الديون التى لم تدفع ، ومائة مجلد من القصص الخالد الذى لايموت. ثم يقبل الغد ، فتجتمع باريس كلها فى وداع حارسها الأمين ، يقف هيجو ليصف هذا المشهد الرهيب فى كتابه « المرثيات » فيشعرنا بجلال الراحل حقا ، ويصور لنا خسارة الدنيا فى هذا الرجل العظيم .

وكان بلزاك على رغم ذلك كله راضيا قانعا ، كان الضيق الذى يغمره يتردد عليه بين الحين والحين ، فيحتال لصرفه بما ركب فى طبيعته الصافية من طيبة وسذاجة . كان يضحك دائماً ويسرِّى عن نفسه أبداً ، ويوما زاره تيوفيل جوتييه فى قصر أنيق اشتراه خلسة من الدائنين ، فرآه جذلان طربا ، واستمع إليه ينبئه نبأ العقود التى أمضاها مع الناشرين

وأصحاب الصحف ، ونظر إليه يعرض عليه آنية بيته وأثاثه وحريره وذهبه فقال : « لابد أنك صاحب ملايين يا بلزاك ! » فسَرى الألم إلى نفسه ومضى يؤكد لصديقه : « ما أنا إلا بواب لهذا القصر ! لا شيء ملكى ، كل شيء مرهون بعسف الدائنين ! » .

لم يكن مغروراً ولا متكلفاً ، وإنما كان سهلا سَمْحاً ، شديد الرضى ولم يكن فيه إسراف مع النساء أو الخمر ، ولم يفضِّل مجالس الهوى على الكتابة أبدا . ثم إنه لم يقصد بكتاباته رضى ملك أو جود أمير ، ولو أراد لوفق إلى ذلك ـ كما كان أنداده ومعاصروه من الأدباء يفعلون ـ ولكنه لم يكتب عن الملوك أو الأشراف ، بل كتب عن السوقة والأوساط الذين نشأ فيهم وأشرب حبهم ..

ولم يكن يتكلف أو يدعى ، بل كان يرى ويصف ما يرى وصفاً بسيطاً قد يهبط إلى مستوى الركـاكة لبساطته . كان له خيال خالق خصب إلى حد لم نعهده فى واحد من الأحياء ، وتلك كانت علته ، لأن حياته أصبحت خيالاً فى خيال ، ولم يستطع أن يعيش فى حدود الواقع أبداً . كان الخيال يفسد عليه هدوءه واطمئنانه ، ومن هنا نشأت مصاعبه مع الدائنين وأصحاب الأموال .

كانت حياته كلها مشروعات يتخيلها وتهدمها له الحياة حجراً من بعد حجر .

وكانت حياته كلها خيالاً شقى هو به وسعد الناس به من بعده ..

ولم تكن عبقريته ثمرة الاطلاع والبحث بقدر ما كانت صورة الوحى والإلهام ..

فى سماء الأنغام

لودفيج فان بيتهوفن

خرج إلى الدنيا فى عنفوان الثورة الفرنسية ، فنفثت فى كيانه روحاً عجز عن حملها جسمه الضعيف ، وأفضى إلى زهمة الحياة فى قرن فياض زاخر تواترت فيه الثورات وازدحمت فيه العبقريات ، حتى خُيل للناس أن أوربا تكاد تتمزق من فرط ما اجتمع فى كيانها من نشاط وما فاضت به قلوب أهلها من نزعات . وكان بطبعه إنساناً رقيقاً مرهف الحس لا يكاد يمر به نسيم حتى يتأثر به كيانه ، فكيف وقد عبرت به عواصف تهز الفؤاد الجامد وتحرك النفس الموات ؟ ففاض قلبه بالأحاسيس وزخرت نفسه بالمشاعر الإنسانية حتى ضاقت بها .

وأخرجته الأقدار من والدين على طرفى نقيض : والد شديد ، قليل الخبرة بالحياة ، عنيف الطبع ، مريض العقل ، مسرف فى الشراب لا يكاد يفطن إلى ما ركبه الله فى طبع ابنه الرقيق من أصول العبقرية ، يضربه لكى يعزف ، ويقدمه للناس ويرغمه على العزف ويقول : «انظروا .. إنه فى السادسة ويعزف خيراً من موتسارت ! » كأنما كان الصبى ألعوبة فى يديه ، ولا يكاد يفطن إلى أن الفرق بين عبقريتى موتسارت وبيتهوفن عظيم ، فعبقرية موتسارت كانت سريعة النضج شديدة التوقد ، بينما كانت ملكات لودفيج فان بيتهوفن بطيئة النضج تحتاج إلى رعاية متئدة صبور حتى تنضج على مهل ، فلم يكن من الصواب أن يُقْهَر الصبى على العزف ولا أن يؤخذ بالشدة لكى يواصل دراسته .

ولقد أضرَّ به عبث والده به ضرراً بالغاً ، وترك فى كيانه الضعيف آثاراً لازمته طول حياته، وكيف لا يتأثر كيانٌ ضعيف مثل كيان هذا الصبى إذا كان أبوه يعود من المشرب مخموراً ، فيجر الصبى النائم من السرير جراً ويأمره بأن يجلس إلى المعزف ليتمرن ؟ وكان الصبى لصغر حجمه لا يستطيع أن يجلس إلى المعزف ، فكان يقف طول الوقت على قدميه

الناحلتين ، يغالب النوم والبرد ؛ وقد استمر هذا العذاب فى بعض الأحيان حتى مطلع الصبح .

وأما أمه فكانت مسرفة فى الرقة والحنان ، فالتقى فى كيان هذا الصبى طرفا الخلق الإنسانى من قسوة العاتى ورقة اللين المستكين . وكانت ظروف الأسرة إلى ذلك عاتية قاسية كان أبوه مغنياً فى فرقة القصر ، وكان يتقاضى أجراً متواضعاً لا يكاد يقوم بأود الأسرة، وكان إلى ذلك مسرفاً لا يكاد المال يستقر فى يده حتى يسرع به إلى الخمار ، فكانت الأسرة تعيش أبداً تحت ذل الفاقة المجهدة والرعب من الأب السكير . ولم يكد الصبى لودفيج يشب عن الطوق حتى أقبل عليه الفقر فطواه فى أردانه وأذاقه من مرارات الحياة وأوصاب العيش شيئاً كثيراً ، ولم يكد يخطو فى الحياة حتى بدأ يشعر بأعراض المرض تدب فى بدنه حتى لتحطم حياته تحطيماً ، ولكن الملكة الأصيلة لم تتأثر بهذا إلا قليلاً ، وكأن القدر رماها به لتصفو وتتجلى .

ومضى الفتى يرتقى فى سبيل الفن ويسمو فى أجواء الإلهام حتى أدرك مع فتوة الشباب شأواً لا يدانيه فيه فى عالم الفن إلا قليلون لا يزيدون على أصابع اليد ، فكان إذا جلس إلى معزفه ـ وهو يقارب العشرين ربيعاً ـ طوى الدنيا ونشرها بين أنامله ، وفاض عنها اللحن سائغاً شجيًّا ، وإذا استلهم وجدانه فقد مس النفس الإنسانية وهزّها هزاً عنيفاً ، ويُرْوَى أنه ذهب فى ربيع سنة ١٧٨٧ إلى فينا ليطلب الموسيقى على يد موتسارت ، فلم يكد هذا النابغة يسمعه حتى قال لمن حوله : « أصغوا إلى هذا الفتى ، فسوف تسمعه الدنيا كلها غداً! » .

* * *

كان أبوه مغنياً ، سيىء الخلق ، جافى الطبع كما قلنا ، وكانت زعامة الموسيقى قد انتهت قبيل مولده إلى موتسارت ، فتغنى بألحانه الناس ، ورددت أنغامه المعازف ، فدرجت عليها خطى الراقصين ، وارتفعت عن رواياته الموسيقية ستر المسارح وانسدلت على صياح الإعجاب .

ونظر يوهان بيتهوفن ـ والد لودفيج ـ إلى هذا المجد الموسيقى فامتلأت منه نفسه

وجاشت به مطامعه ، والتفت فإذا فتاه الصغير يشتدُّ من السادسة إلى السابعة ، وطمع بأن يبلغ بابنه الناشىء ما بلغه ليو بولد موتسارت بابنه العظيم وُونفانْج أماديوس موتسارت .

وقد بدأت أصابعه تجرى على المعزف فى إحكام ودقة ، فلم يطق أبوه الصبر ، وأحب أن يمضى به فى طريق النبوغ خبباً ، فراح يدفعه إلى المعزف قسراً حتى كان الصبى يعزف وإن دموعه لتنحدر على خديه ، وإن نفسه لتنفطر أسى وألماً ، فإذا فرغ من هذا الجهد المضنى أسرع يعدو إلى أحضان أمه الساهرة ، فارتمى بين يديها ليجهش إجهاش المروع الشاكى ، فتُفيض من نفسها على آلامه صبراً ، وعلى أعصابه هدوءاً وسكوناً ، ولا تزال تهدهده وتدلك أصابعه الصغيرة المتورمة بيديها حتى يدركه النوم فينام والأنغام تطوف بذهنه يخالطها صخب الأب المستبد وأنات الأم الحانية . ولو أن غيره مكانه لكره الموسيقى والعزف من ذلك الحين ، ولكن الأقدار كانت قد وهبته قبساً من نور النبوغ لازال يتوقد ويقوده إلى العزف وإلى الدرس حتى أدرك منه مبلغاً طيباً .

ولم ييسره الله أول الأمر إلى أساتذة ذوى خبرة ، ولكن الأقدار أرسلت إليه أستاذاً كريما هو جوتلوب نيف ، كان يعزف على الأرغن فى قصر أمير فورتمبرج ، فلم يلبث أن تنبه إلى استعداد الصبى ، فمضى ينميه ويقوّمه على أصول الفن الصحيح . ومن حسن الحظ أن كان الرجل من أهل الفن المخلصين ، كان من تلاميذ مدرسة سباستيان باخ ، وكان عارفاً بكل إشارة موسيقية كتبها هذا الأستاذ الجليل الذى مازال يجتهد حتى انتقل بالبيانو من معزف بسيط لا يكاد أحد من كبار الموسيقيين يهتم به إلى هذه الصورة التى هو عليها اليوم ، والتى أصبح بها سيد الآلات الموسيقية جميعاً ، وكان إلى ذلك رجلاً مثقفاً مفكراً ، فلم يقتصر فى تكوين تلميذه على مجرد العزف ، بل جعل الموسيقى فى نفسه فلسفة وروحاً ، فلا غرابة أن أصبح لودفيج فيلسوفاً موسيقياً ، يفكر بأنغامه ويصور فى قطعه الموسيقية بالألحان ما يصوِّره غيره بالكلمات .

ولم تكد تنقضى عليه سنتان وهو يجتهد فى تكوين نفسه وتأصيل فنه حتى انتظم فى فرقة القصر عازفاً حيناً ومديراً حيناً آخر ، وحتى توسم فيه ولى عهد فورتمبرج ماكس فرانتس النبوغ فعهد إليه فى قيادة الفرقة الموسيقية فى مسرح البلدة ومنحه راتباً صغيراً . وبدأ نجم

الفتى فى الصعود ، وبدأ يشعر بالرغبة فى الذهاب إلى فينا حيث يأخذ الفن عن موتسارت الموسيقى العظيم الذى أدرك الشأو وأصبح إمام الموسيقيين فى عصره وهو بعد فى حدود العشرين ! رحل لودفيج فان بيتهوفن الشاب إليه ليأخذ الفن عنه ، فوجده فى حُمَّى العمل لا يكاد يجد من الوقت متسعاً للعناية بهذا التلميذ الفريد ، ولكنه استمع إليه على أى حال، وأدرك أن نفسه تنطوى على ملكة موسيقية لها خطرها ، وقال فيه قالته التى رويناها .

وكان الألمان قد سَمَوْا فى ذلك الحين بالفن الموسيقى سُمُوًّا جعله فى الصف الأول بين الفنون الإنسانية الرفيعة ، وانتقلوا به من تنغيم يراد به تسلية الناس إلى تفكير يراد به التعبير عن المشاعر الإنسانية العالية ، فكان « جيته » شاعر الإنسانية يجلس إلى الموسيقيين ويبادلهم الرأى ويأخذ عنهم ويأخذون عنه ، وكانت كل بلدة تفخر بمن عندها من أهل الفن ، وترفع رأسها بهم ، فما كان فيها مثل سباستيان باخ ، أو جوزيف هايدن ، أو فيليبالد فون جلوك ، أو وولفجانج أماديوس موتسارت ، فهى أرفع المدن ومقصدُ الناس .

ولم يأت هذا الارتفاع الموسيقى عفواً ولا رهن المصادفة ، وإنما جاء نتيجة لانصراف نفر من أعظم أهل الأرض فكراً إلى هذا الفن وإفناء أنفسهم فى سبيله : لقد قضى سباستيان باخ حياته يكتب الأناشيد وينظم الألحان ، وأنفق هايدن حياته ينظم ويطوف الأرجاء يعزف منظوماته ، حتى أصبحت القطع الموسيقية قصائد نغمية كبرى يستمتع بها الذهن والأذن معاً . وتحمس الناس لهذا الفن الجليل حتى كنت لا تجد أباً إلا يتمنى أن يكون ابنه من النابغين من أهل الفن ، ثم جاء موتسارت فكأنما كان روحاً هبطت من سماء الفن ، من مجمع آلهة الفنون عند جبل بارناسوس إلى أرضنا هذه . عزف فى السابعة ، ولحن فى الثامنة ، وقاد الفرق الموسيقية فى الثانية عشرة ، وأنفق حياته القصيرة يعمل وكأنه شمعة تحترق : يخرج للناس فى كل حين ملحمة موسيقية تأخذ بمجامع الأنفس ، ويكتب مسرحيات موسيقية فيها من جمال النغم وحسن التنسيق وسمو اللحن ما لو اجتمع عشرات من الناس ما وصلوا إليه ، وهاجمته العلة من فرط العمل ، وأكل الداء رئتيه من طول العكوف على المعزف والأوراق ، فألقى القلم وهو فى الثالثة والثلاثين ، ومضى مخلفاً فناً بديعاً رائعاً سحر الناس وأطلعهم على جمال الموسيقى ؛ مضى والناس تنشد ألحانه وتتأثر خطاه فلم يبق بلد فى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا إلا تردد فيه اسم موتسارت .

وطلعت الناشئة الجديدة واسم الموسيقى الشاب يدوى فى أذنيها ، فلم يكن أحب إلى الشاب فى ذلك العصر من قيثارة يحسن التوقيع عليها أو معزف يقضى الوقت حانياً عليه، ودارت المطابع تطبع النوتات وتوزعها بالآلاف ، وعلا نجم مدرسى الموسيقى حتى أصبح تدريسها من موارد الرزق المأمونة ، وازدهرت فى البلاد مسامع الموسيقى ومسارح الأوبرات ، واتصل الجهد وتوالى الإنتاج حتى استقام الفن الموسيقى ثابت الأسس فى هذه البلاد ، ولعل هذا ييسر لنا فهم المكانة التى بلغها هذا الفن فى أوربا . إنها نتيجة جهد متصل وعمل مجهد ، شأنها فى ذلك شأن كل ما وصل إليه الغرب ؛ ولعل هذا أن يفتح عيون الشرقيين إلى أن العمل والتفانى فيه وحدهما هما عماد الحياة ، ولن يستقيم لشىء قوام إذا تناوله الإنسان تناول الشرقى المتساهل : إذ لم يأت الأمر مصادفة وبأقل كلفة فلا كان ، وإذا احتاج إلى تضحية النفس وإنفاق العمر فليبق مكانه ولا حاجة إليه . إن الشعوب الأوربية تصغرنا بآلاف السنين ، ولكنها بذلت من الجهد خلال عمرها القصير أضعاف ما أنفقنا فى عمرنا الطويل ، بهذا وحده انتهت إليها قيادة الدنيا وزعامة الناس .

* * *

ولكن الأيام لم تُنظر لودفيج إلا قليلاً ، إذ امتدت يد الأقدار فاختطفت أمه الحانية وهو بعد فى السابعة عشرة ، واستبدت آفة الخمر بأبيه فعجز عن العمل ، وهبط على عاتق الفتى المسكين حمل الأسرة . وقد قاسى من مصيبة أبيه بالخمر بلاء لا يحتمله إلا صبور كريم النفس مثله ، فقد كان الأب يسرف فى الشراب ويسقط فى الطريق أو يعربد حتى يقبض عليه الشرط ، فيضطر الابن إلى الإسراع فى خلاصه ، وساءت سمعة الأسرة وبرم بها أهل «بون » حتى فكروا فى إخراجها منها ، لولا توسط بعض ذوى الخير والجاه فى الأمر . ولم تلبث العلة أن اشتدت بالرجل المسكين فقضى بعد ذلك بزمان مخلفاً الفتى الناشىء يحمل على عاتقه عبئاً ثقيلاً ، وكان من علائم اقتداره أن نهض بالعبء ، وأنفق على أخويه حتى صار أحدهما كيميائياً والثانى موسيقياً . ولم يكن مع ذلك ضيقاً بالحياة ولا شاكياً منها ، بل مضى يعمل فى جد وإنتاج زاهر ، حتى ليدهش مؤرخوه لما أبدى فى هذه السن الباكرة من سعة القلب وطول الصبر وجلد العمل ووفرة الإنتاج .

انتقل إلى فينا بعد وفاة أبيه ، وأقام فيها من ذلك الحين معظم أيامه ، ولم يوفق فى معظم الأمر إلى الأساتذة الصالحين فى هذه البلدة ، ولكن عبقريته أغنته عن الأساتذة والموجهي ومضى فى حياته قادراً موفقاً . وساعفه الحظ ببعض العون فاستطاع أن يعطى دروساً فى الموسيقى أعانته على القيام بمطالب الحياة ، واتصل عن سبيل هذه الدروس بعائلات على شىء كثير من الثراء ، فخف عن نفسه الكثير من وعث الحياة وخشونة العيش ، واستطاع أن يجد وقتاً يتعلم فيه الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وبهذا رحبت آفاق الحياة أمامه وزاد ذهنه سعة وقلبه علماً .

وأخذ يقرأ فى الموسيقى وغيرها قراءة الشغوف النهم ، وأفضت به القراءة فى لغات شتى إلى رحاب المعرفة الواسعة ، فزادت ملكته خصوبة وسعة ، وتكشفت له أسرار جديدة ومعان من الجمال لا تتيسر للفنان إلا عن طريق القراءة والاطلاع ، وكان هذا كله يستحيل فى ذهنه إلى نغم ، لأن الله قد فطره موسيقياً صافى النفس رائعَ الملكة ، لا يرى الحياة إلا معزفاً تتردد فيه فلسفات نفسه الرحبة الشاملة ، فكان إذا لحن تذوق الناس فى موسيقاه ألواناً جديدة استوقفت أنفسهم وأسماعهم ، وأصغى إليه دوق فورتمبرج فى لذة وإعجاب ، وأيقن أن العناية كتبت له شرف رعاية هذا العبقرى الناشىء .

* * *

وتصادف أن مر جورج فريدريش هيندل ببلدة « بون » عائداً من إنجلترا ، فأقامت له البلدية حفلاً عزف فيه بيتهوفن فأعجب به إعجاباً عظيماً ، وحدَّث الدوق فى أمره ، وحصل له على إعانة شهرية تعينه على السفر إلى فينا للدراسة فيها ، فكان ذلك مفتاح الحياة لهذا العبقرى المجتهد ، فلم يلبث أن خف إلى فينا بتوصيات شتى من هيندل ، وكان الدوق قد طلب إليه « أن يدرس فَنَّ موتسارت على يد هيندل ! » ، وكانت تلك طرفة تندر بها أهل الفن فى فينا فى أوانها ، ولكن حوادث الأيام لم تلبث أن سخرت من الساخرين ، وأظهرت أن هذا الفتى لم يتلق فن موتسارت فقط ، بل تلقى فن الماضى الطويل كله ليبنى عليه فن الغد كله .

ومضى بيتهوفن إلى فينا يتتلمذ على من شاء فيها ، وكانت المدينة إذ ذاك غاصةً

بالموسيقى والموسيقيين ، وسعد الفتى حين رأى ذلك كله تحت تصرفه تتغذى منه ملكته كما يريد ، ولم يشأ أن يكون من أول الأمر تلميذاً لواحد من أساتذة الفن وشيوخه ، وزهدوا فيه هم أنفسهم بعد حين . ذلك أنه لم يكن تلميذاً طيعاً ، إنما كان شديد الإحساس بنفسه وبما يجول فيها ، وكان يعرف ما يريد ، شديد الإصرار عليه ، وكان من فرط اهتمامه بالفن عديم النظام كثير النسيان للنصائح التى يتقدم بها إليه شيوخه ، وكان إلى هذا عنيف النظام كثير النسيان للنصائح التى يتقدم بها إليه شيوخه ، وكان إلى هذا عنيف الطبع تصيبه نوبات هى أشبه بالجنون ، فازور عنه الكثيرون وانحرف عنه أساتذة الفن وشيوخه من أمثال ساليرى ألبر ختسْ بِرْجَرْ .

وتعددت الشكوى إلى الأمير ، فحبس عنه المال الذى كان يرسله إليه ، فلم يكد يحفل لذلك ، لأن الله ركب فى نفسه طبعاً مستقلاً لا يكاد يعتمد إلا على نفسه . وقد ثقل عليه هذا الحرمان أول الأمر ، ولكنه أبى أن يشكو ، واحتمل حياة الشظف فى صبر وانطواء على النفس آذاه وزاده عصبية وانصرافاً عن الناس . ومن غريب الأمر أن الناس أخذوا يقبلون على فنه رغم ذلك كله : كان يذهب ـ وهو فقير معدم ـ إلى أحد الناشرين الموسيقيين ، ويعرض عليه قطعة من قطعه ، فيصعد فيه الرجل النظر ويحدره ثم يقول له : « هات ، أرنا ما لديك ! » فإذا جرت يده على المعزف دهش الرجل وقال له : « وددت لو غيرتَ هذا وعدلت ذاك وقصرتَ هنا وطولت هناك ! إن الناس تريد هذا ونحن أعرف بما يريد الناس! » فيطوى أوراقه ويتجه نحو الباب قائلاً : « أنت أعرف بما يريد الناس ، ولكننى أعرف بما أريد أنا » ، ويمضى .

وكان من عجائب المقادير أن بعض الناشرين كان يذهب به الإعجاب بما سمع مبلغاً يُنسيه إصرار هذا الفتى وعناده ، فيشترى اللحن كما يريد المؤلف الفقير ! وتلك ظاهرة انفرد بها بيتهوفن بين موسيقيى التاريخ كله ، لم يسعد بمثلها باخ ولا عرفها موتسارت ولابرامز أو شوبان أو حتى فاجنر ! .

بيد أنَّ طول الشظف وإنفاقه معظم مكاسبه على أهله أورثاه ألواناً من الشذوذ ظل يقاسى منها طول حياته ، ولو نظر الإنسان فى أغوار نفسه يشهد تفاصيل حياته لاستبان له

أن الله قد طواه على قلب هو أحنى من قلب الأم الرؤوم ، ولكنه كان شديد الاعتزاز بنفسه بالغ التقدير لفنه ، وكان ينظر حوله فيجد ناساً لا يفهمون الموسيقى فهمه ، ولا يريدون أن يتركوه يفعل ما يريد .

فأما شيوخُ الفن فشأنهم شأن الشيوخ عامة : ينتهى بهم طول المراس والتجريب إلى لون من الجمود يصعب عليهم الانحراف عنه ، فإذا خالفهم فتى ناشىء كهذا عجبوا لأمره وأنكروه وأكثروا فيه .

وأما الشباب فكان معظمهم منافسين حاسدين لا يرضيهم شىء ،لأن الحسد يأخذ عليهم طريق الرضى .

وأما جمهور الهواة فالعبث أقرب إلى نفوسهم من الجد ، وهم لا يطلبون من كل من يتصدى لمرضاتهم إلا أن يهبط إلى مستواهم .

وقد كان بيتهوفن أعرفَ الناس بما لقى موتسارت على أيدى الناس أجمعين : لقد وهب الله موتسارت عبقرية لا يسهل تصور مداها ، ولكن الناس أذاقوه من مرارة الكيد والعبث والحسد ما أدنى أجله وما عجل به إلى الآخرة فقيراً محروماً ، هذا على رغم أنه كان لا يدخر وسعاً فى محاسنة الناس ومرضاتهم ، فما زاده ذلك إلا تعباً .

كان بيتهوفن يعرف ذلك فآلى على نفسه أن لا يخفض للناس جناحاً ، ولم يقرر هذا بعد تفكير بل وقر فى نفسه دون شعور منه ، من هنا جاء ذلك النفور الذى حسبه الناس غروراً وهذا الجفاء الذى كان يجبههم به كلما ثقلوا على نفسه ، فحسبوه فظاً قاسياً سيىء الخلق . وإن من رزأه الله فى أبيه وأمه على النحو الذى صورت لك ، ثم آتاه بعد ذلك كياناً ضعيفاً مجهداً مثل كيان بيتهوفن ،لا عجب أن يكون عصبياً مهتاج النفس ، فما بالك وقد ثقل على كتفيه حمل أسرة بأسرها ، وما بالك ولم يكن فى هذه الأسرة التى شقى فى سبيلها إلا جاحد للجميل كافر بالنعمة ! .

مضى الفتى فى طريقه يعينه بعض أصدقائه ممن لمسوا رقة نفسه ، وأخذوا يشدون من عزمه على المضى ، ولكن طباعه التى ورثها عن أبيه وعن ظروفه كانت تستبد به بين الحين

والحين وتؤذيه أذى شديداً ، كان إذا غضب اندفع مع الغضب اندفاع من لا يعرف أخاً ولاصديقاً ، وكانت ثقته بنفسه تشتد حتى لتبلغ به مبلغ المتغطرس الكافر بالنعمة ، وكان اضطراب حياته ورزقه يخيفه ويشغل ذهنه حتى كان ليطيل الوجوم أياماً ويبدو للناس إنساناً ثقيلاً بغيضاً .

وكان شاباً متوفز العواطف ، فمسه الحب مساً رقيقاً حيناً وعنيفاً حيناً ، وهتفت به العيون وعصفت بقلبه الجفون ، فاندفع وتألم فى مذاهب الهوى . ولم يكن وجهه بالقبيح ، ولكنه كان جَهْماً عظيم الخلقة لا تألفه الرقيقات ولا المترفات من بنات حواء ، وأبى عليه نزوعه بنفسه وإعزازه إياها إلا أن يحب من هن أعلى منه بين الناس وأرفع منه مولداً . ولو قد كان ثعلباً محتالاً لبلغ منهن ما يبلغه من النساء كل ثعلب محتال متواضع الذكاء ، ولكنه كان صادقاً صريحاً يحب فى عنف ، ويتكلم فى عنف ، فلم يكتب له التوفيق . وتحطمت غرامياته وصوحت آماله فى الهوى ، وتفرقت عنه الحبيبات وتركته يؤكد لمحدثيه أنه وإن كان قد أحب كثيراً وفشل كثيراً ، إلا أن أمره لم يفتضح مرة ولا جرى على اسمه على الألسن مشفوعاً بسخرية أو احتقار . وهذا كلام هو أقرب إلى طلب العزاء ! وقد عاش الرجل محروماً أو كالمحروم ، رغم أنه كان فى الذروة من أهل عصره تألق نجم وعظم مكانة ؛ وربما كان ذلك فى ذاته من عجائب الزمان ! .

فى هذه الأثناء كان نجمه فى صعود وكانت ملكاته فى نمو ، كان لا يكف يؤلف الألحان ويضع الأنغام ، يتأمل الدنيا ويصغى إلى صوت نفسه ووحى إلهامه ثم يسطر صدى ذلك كله . ولم يعرف الفن الموسيقى الصحيح ـ بعد باخ وهيندل وهايدين وموتسارت ـ من قاربه فى إحكام النغم ودقة المعرفة بألوانه وقوانينه ، وقد سما بالموسيقى الخالصة التى لا يصاحبها غناء إلى أوج لم يدانه فيه أحد قبله ولا بعده . وقد كان يظل يكتب السطر الواحد أياماً وليالى لا يكاد يستقر على نحو يرضيه ، وكانت نفسه متفتحة لوحى الطبيعة الصادقة وكان ذهنه قديراً على صياغة ما يتلقى صياغة محكمة بديعة تهز النفس إحكاماً وصدقاً وعمقاً .

ولعل الكثيرين لا يعرفون من موسيقاه غير هذه السيمفونيات التسع التى جمعت الفن الموسيقى كله على نحو ما جمعت كتابات جيته الأدب والفن والفلسفة جميعاً . فى حين أن

له من الآثار الفنية ما يعدلها أضعافاً ، لأنه لم يغادر لوناً من ألوان الفن الموسيقى دون أن يكتب فيه ويكثر ويجيد . ومن غرائبه التى ينفرد بها أنه لم يخلف قطعة واحدة فيها ركاكة ، بل كل إنتاجه جيد رصين محكم ، وكل نغم عنده يحمل من المعنى أكثر مما يصل إليه ذهن السماع والمفسرين ، وقد كان لفرط ما يتجمع فى نفسه من المعانى يطلقها فى الأنغام يَزْحم بعضها بعضاً ، فأنت تسمع فى مطلع السيمفونية الروضية (السادسة) أنغاماً رقيقة ضاحكة من الناى الخشبى يجتمع فيها صفو الطبيعة ونداء الراعى ومناجاة الحيوان البرى الطروب ، ثم تعقبها هتفات قصار خفاف تتناوبها الآلات واحدة بعد واحدة فيخيل إليك أنها تصور تعابث الحملان أو مناجاة الطير أو هتاف الناس ، وهكذا تزدحم فى كل عبارة موسيقية عشرات المعانى .

وقد كان هو نفسه لا يفسر النغم بل يدع الناس وشأنهم معه ، وهو لم يطلق على واحدة من سيمفونياته الفريدة اسماً بعينه ، بل سماها باسمها الفنى بحسب مكانها من النغم . وأما قولنا : « الإيرويكا » أو « الباستورال » أو «سميفونية الأقدار » فتسميات مفسرين أرادوا تقريب المعانى الموسيقية للناس ؛ هذا إذا استثنينا السيمفونية التاسعة فقد أهداها هو بنفسه إلى المسرة لأنها كانت صدى لقصيدة فريدة للشاعر فريدريش شِلَر عنوانها «إلى المسرة An die Freude » ، وهى ـ فى بُعد مداها وتجاوب أنغام الهاتفين بلحنها وتناوب الترنم بين أصوات النساء والرجال ـ أقرب إلى أن تكون صلاة إنسانية شاملة ، فيها مناجاة لله وشكر للخالق وشكوى من ويلات الحروب وسعادة بسيادة السلام بين أهل الأرض أجمعين .

ومن منا لم يُلق بسمعه إلى هذا الموسيقى العظيم وهو يرسل المطر ، ويسير السحاب ، ويبعث البرق ، ويصوِّر الزهر ، ويهمس همس النسيم ، ويردِّد هتاف الطير السابح ؟ ومن منا لا يعجب بهذا النحو الفريد فى تصوير ذلك كله ؟ وإنك لتتأمل كيف يصور العاصفة فلا تجده يحدث لك صخباً تشترك فيه القوارع والطبول وتتعاون على إيذاء السمع وإنما يتصاعد بأصوات القيثارات ويعنف بمسِّها على الأوتار ويُصحِبُها أبواقاً تدَوِّى ، فتستشعر العاصفة فى نفسك دون أن تنزعج نفسك هذا الانزعاج الرخيص الذى يلجأ إليه ذوو الملكات الفقيرة ممن يضعون الألحان المصاحبة لروايات السينما .

وقد كان بعض الموسيقيين قبل بيتهوفن يلجأون إلى هذا النوع الرخيص من وسائل لتأثير فى السامعين ، فكانت أوبراتهم صخباً كلها كما ترى فى الأوبرات النابلية [1] ، فجاء هذا الأستاذ الكبير فأعاد النغم إلى جماله وحفظ عليه جلاله ، وحمله المعنى المراد دون انحراف به عن رِنَّته وانسجامه ، وعلم الناس كيف يكتبون موسيقى تصويرية ، بل علمهم كيف يتفلسفون بالأنغام .

ومن منا فكر فى هذا الجهد الشديد الذى بذله بيتهوفن ليخرج لنا هذه الألحان البديعة التى يخيل للإنسان وهو يسمعها أنها مقبلة من عالم آخر ؟ ومن منا يذكر أنه كان لا يزال يراجع ما يكتبه ويصححه ويعدله ويعيد كتابته ، ثم يتركه فترة من الزمان ليعود إليه مراراً أخرى قبل أن يذيعه فى الناس ؟ يقولون إن مراجعاته للحن الواحد كانت تبلغ عشرات المرات ، وأنه لفرط اهتمامه بموسيقاه كان لا يذيع شيئاً ولا ينشره إلا مرغماً ، وأنه كان إذا أسلم لحناً بعد طول العناء لم يسلمه لأنه يرضى عنه كل الرضا ، بل لأنه كان يتعب من طول التغيير والتبديل ويقف من هذين عند حد لا يقبل الزيادة .

وكان لفرط إيمانه بالفن لا يكاد يكتب شيئاً إلا إذا صدر عن إحساس صادق ونفس حفزتها عاطفة أو هيَّجها شجن ، فلم يكن إذا طلب التلحين يجلس إلى معزفه ويأخذ يجرب ، بل ينتظر لحظة تتحرك فيها نفسه ، فإذا طال به الانتظار خرج إلى الرياض والغابات يستوحيها ويستدنى فى أعطافها فيضَ النفس المتأثرة .

وكانت أوفر ساعات إلهامه فيضاً هى ساعات هياج الطبيعة : كان ينتظر حتى تغضب السماء ، ويبرق البرق ، ويُدَوّى الرعد ، وينهمر المطر مدراراً فيمضى فى وسط العاصفة وماء المطر يتساقط على رأسه ويتحدر على ثيابه ويبلل جسده حتى ليمس عظامه ، فتسرى الرعدة فى بدنه وتهتاج نفسه ، ويأخذ يشعر بالنغم يتردد بين أذنيه وقلبه ، فينقلب مسرعاً إلى داره ، ويجلس إلى معزفه وتمضى أصابعه تترجم وحى نفسه ، ثم يمسك القلم ويمضى

---

(١) نسبة إلى نابولى . وهى نوع من المسرحيات الموسيقية نشأ فى نابولى ومنها انتشر فى نواحى أوربا جميعاً .

يكتب ، وكلما جرب شيئاً واستراحت إليه أذنه كتبه فى عجلة الحريص على ألا تفوته همسة من هذا السيل الدافق ، وتنقضى الساعات وهو يكتب حتى تكل يداه ، وتراه خادمته فى نصبه هذا فتسرع إليه بشىء من النبيذ يدفىء به عظامه ويندى به فمه ، فإذا بلغ من الكتابة مطلبه ألقى القلم وخرج يتمشى .

ويعود بعد ساعة ، فربما وجد الخادم قد احتاجت إلى شىء تنظف به بعض الآنية فلم تجد إلا ورقة من الأوراق التى سجل فيها أنغامه طارت بها الريح إلى الأرض ، فأخذتها الخادم تحسبها بعض المهملات ! فتهتاج أعصابه ، ويمضى إلى الحان مغاضباً ، فإن وجد صاحباً له أفضى إليه بذات نفسه وسُرِّى عنه ، وإلا بقى الساعات وحيداً مقطب الوجه مجهد الفكر .

لا عجب إذن أن يبلغ بيتهوفن بالتلحين الموسيقى مداه ، كانت موسيقى الآلات إلى أواخر القرن السابع عشر مجردَ مصاحبةٍ لإنشاد المنشدين أو توقيعاً لأقدام الراقصين ، وكان الناس قد شعروا من أواخر القرن الثامن عشر بأن الآلة الموسيقية ينبغى أن تستقل بنفسها وألا يكون عزفها مجرد مصاحبة أو توقيع ، ومن ثم أخذوا يتركون الآلات ذات الصوت الضعيف ـ كالعود ـ ويقبلون على الآلات القوية الصوت ـ كالبيانو ـ أو البعيدة الرنين ، كالقيثارة والنفير بأنواعه .

وكان صوت البيانو أولَ الأمر يخرج من ضربات ريشات على الأوتار ، فاستعاضوا عنها بالمطارق ، فقوى الصوت وامتلأ وأصبحت إصبع اليد إذا مست إصبع البيانو دوى لذلك صوت رنان ملىء دقيق . وجوَّد الإيطاليون صناعة القيثارة وتفننوا فى بناء صَدْرها وإحكام وضع الأوتار عليه حتى أصبحت أقدر ما تكون على إخراج كل نغم إخراجاً دقيقاً . فإذا اجتمع البيانو ذو المطارق والقيثارة بأحجامها المختلفة ، فقد ثبت أساس الموسيقى الحديثة وأصبح التعبير بها عن كل مطلب ميسوراً .

وكان باخ وهيندل قد أفادا من ذلك وحررا النغم من أواصر الغناء والرقص ، ولكنهما لم يجعلا الموسيقى الخالصة تعبيراً صريحاً عن أفكار ، فجاءت موسيقاهما ـ على جمالها ـ مجرد تراكيب موسيقية دقيقة تروع النفس والأذن ولكنها لا تشغل الذهن . وكان هايدن قد خطا

بهذه الموسيقى الآلية خطوة كبرى حين جدد السيمفونية ونسق أنغام الآلات وجعل منها وَحدة ، حتى أصبح الأوركسترا ـ على كثرة آلاته ـ يعتبر آلة موسيقية واحدة . ثم أقبل موتسارت بما آتاه الله من فيض العبقرية المشتعلة وفيض النغم السيال ، وبدأ « يفكر » بالأوركسترا : يكتب « موسيقى ليلية » ، ويصوّر « أحزان نفس » ؛ ولكن الموت عاجله وهو فى ريعان شبابه وعنفوان إنتاجه .

وأتى بيتهوفن ، فكأنما تسلم الرسالة واعياً أنَّ عليه أن يسير بها فى طريقها المقرر المرسوم : فصل بين الآلة والصوت ، وجعل النغمة فكرة ، تخطر برأسه الفكرة أولاً ثم يترجمها إلى نغم ، فأنت إذا مضيت تقرأ إحدى نوتاته الموسيقية قرأت كلاماً موسيقياً منطقياً مسلسلاً مفهوماً . ومن ثم لا غرابة أن يسمى الناس مجموعة النوتات المرتبطة ببعضها بعضاً « كلمة » ، ومجموعة الكلمات التى تكون لَحْناً مستقلاً « موضوعاً » Thema ، وكل لحن قائم بذاته « دافعاً » Motiv ، ومجموعة الدوافع أو الأفكار « جملة » أو فقرة Satz .

أصبح من الميسور إذن أن يفكر الإنسان بالنغم وأن يتكلم ويكتب به ، بذلك خطا هذا الفن ـ الذى لا زلنا نعتبره دعابة وتسلية ـ إلى مستوى الفنون الإنسانية العالية التى لا يقدر على الإلمام بها وتجويدها إلا من أوتى استعداداً فكرياً وقوة ذهنية يمكنانه من فهم التفكير النغمى بالضبط ، كما لا يستطيع فهم التعبير بالشعر أو التعبير بالألوان إلا من حباه الله بالاستعداد الفنى ويسرت له ظروفه فرص الدرس والتجويد .

وانقسمت الموسيقى من ذلك الحين إلى موسيقى رفيعة عالية هى موسيقى الفكر الجليل والعاطفة المهذبة العالية ، وموسيقى رخيصة هى التى يترنم بها صبية الشوارع وتنشدها غانيات الهوى المبتذل ويخرجها واضعو الموسيقى لأقدام الراقصين والراقصات ؛ وليس يستطيع فهم الأولى والاستمتاع بها إلا الذكى المثقف المرهف الطبع ، كما لا يفهم أشعار جيته وأبى العلاء إلا كل إنسان عالى النفس واسع الذهن . ومن عجب أنك تجد الآلاف عندنا يسُلِّمون بأنه لابد من صبر ودرس طويلين حتى يفهم الإنسان كلام جيته وأبيات أبى العلاء . ولا نجد فيهم إلا من يعزف عن بيتهوفن ، ويقول : « إننى لا أفهم موسيقاه ! » غير مُسَلِّم بأن الاستماع إلى بيتهوفن يستلزم درساً طويلاً وصبراً ومعاناة وتعويداً للأذن ، لأن

موسيقاه ليست مجرد تنغيم عذب مريح ، بل تفكير مجهد ؛ ومن طلب الحسناء لم يُغلها المهر .. كما يقولون .

إلى بيتهوفن يرجع الفضل فى معظم ذلك التحول الحاسم فى تاريخ الموسيقى الأوربية ، فانفتحت أمامها سبل من التعبير وآفاق من السمو ، يسّرت لعشرات من العبقريات الإنسانية أن تجد فيها أسلوباً ميسّراً للتعبير والوصف ، لا يقل عما يسعد به الأدباء والشعراء من وسائل الإفصاح عن الأفكار بالكلام المنظوم وغير المنظوم ؛ وما من موسيقي ممن نُعجب بهم فى القرن التاسع عشر أو فى قرننا الحالى إلا وهو بعض فضل بيتهوفن على الإنسانية ، وسيظل اسمه إلى أبد الدهر عَلماً على النغم الرفيع واللحن السامى البديع .

ومن عجب أنه ـ على رغم ذلك الاجتهاد فى التجويد والبحث عن القالب الموسيقى السليم لكل فكرة ـ كان مكثراً لا مقلاً . ففى السنوات العشر التى انقضت بين ١٧٩٣ و١٨٠٣ ـ وهى سنوات شبابه الحافلة بالآلام ، وفيها شعر بضعف السمع ـ فى هذه الفترة كتب الخمسين عملاً الأولى من ديوان أعماله الحافل ، ومن هذه الخمسين نجد « السمفونية العاطفية Sonate Pathe'tique » ، ولحن « ضوء القمر Mondscheinsonate » ، وست رباعيات للقيثارة ، والسيمفونيتين الأوليين ، وعدداً من القطع الكبرى للبيانو يصاحبه الأوركسترا كله ، بينها أعظم قطع البيانو قاطبة وهى المسماة Drittes Klavier Konzertin c-mll » وهذه كلها آثار فنية موسيقية خالدة وضعته عند معاصريه فى صف هايدن وموتسارت ؛ أى أنه استطاع أن يجمع تراث الفن كله بين يديه وهو فى حدود الثالثة والثلاثين .

ثم مضى بعد ذلك يضيف لَبنات جديدة إلى الفن الموسيقى الإنسانى ، فابتداءً من القطعة الثالثة والخمسين من ديوان أعماله ـ وهى « لحن فالدشتاين »[1] ـ نجد فن بيتهوفن المكتمل الناضج ، ثم تتابع إنتاجُ الغُرر بعد ذلك فى سرعة فائقة وكمال يحير النفس ومارأيك فى بدائع من أمثال الأباسْيناتا ، وقطعه للبيانو مع الأوركسترا (ج دُور)، ورباعيات

(1) Klaviersonate c, op 53

راسُّومُوفسكى الثلاث ، ولحن القيثارة المعروف فى فيديليو ، ومقدمة كُوريولان ، والسيمفونية الخامسة ؛ كلها تتابعت فى نسق واحد وإبداع جليل استرعيا أنظار الناس جميعاً وأسماعهم إلى هذا العبقرى الصَّناع ، الذى يطرب الدنيا ويهز الأفئدة وهو مع ذلك حزين النفس مروع مما يعترى سمعه من ضعف متصل يحرمه الاستمتاع بموسيقاه !.

* * *

وكأنما ساء الأيام أن ترى هذا العبقرى لا يكاد يكترث لما تُثقل عليه به من متاعب الأسرة ومرارة الحرمان ، فقد ظل رغم ذلك مرحاً سعيداً يعمل عملاً متصلاً وينعم مع صحبه والمعجبين به بأوقات طيبة تعوض عليه بعض ما كان يلاقى ، فأدرك الأيام ذلك الحسد من العباقرة والسعداء الذى أحسَّ به الإغريق منذ فجر الإنسانية وعبَّروا عنه فى صور شتى، فأقبلت تفجعه فى أعز ما يملك وهو سمعه الذى يصله بالحياة ! .

وهل كانت الحياة فى حسابه إلا أنغاماً يفيض بها قلبه ويسمعها بأذنيه ؟ فكيف إذا غشَّى السكون سمعه وقعد به الصمم عن سماع أنغامه ؟ كيف يتصل بالحياة ويأخذ منها ويعطيها ؟ بل كيف يعيش بين الموسيقيين ويعزف للناس ويدير الأوركسترا وهو لايسمع ؟ .

هنا كانت مأساة حياته الكبرى : بدأ بيتهوفن يحس ضعف سمعه وهو فى حدود الثلاثين ، وكان إذ ذاك فى عنفوان عمله وإنتاجه ، فأخذ ينكر ضعف سمعه ويكابره ، ولكنه لم يلبث أن استبان أن هذا الضعف حقيقة لا سبيل إلى الهرب منها ، وزاد فى قلقه أنه كان يزيد على الأيام . ولو قد أتى هذا الضعف نتيجة للإجهاد لاستطاع تلافيه بالراحة ، ولو أتى نتيجة لمرض لأمكن علاجه أو إيقاف تقدمه على الأقل ، ولكنه أتى نتيجة لضعف داخلى فى أعصاب السمع ، لم يعرف أطباء ذلك الزمان له علاجاً ، وقد مضى بيتهوفن يستشير الأطباء ويعرض عليهم نفسه ، فلم يستطع واحد منهم تعرف السبب الحقيقى لهذه الكارثة .

واستمر الضعف يتزايد ، وأخذ السكون يشتد حول الموسيقى العظيم ، فزاد شعوره

بالوحدة واعتزال العالم ، حتى انتهى به إلى الصمم التام فى سنة ١٨٣٠ ، أى قبل وفاته بسبع سنوات .

وربما خفف وقع هذه الكارثة أنها أتت على مهل ولم تهبط مرة واحدة ، فلو أنه فقد سمعه إثر حادث أو نتيجة لمرض عنيف لربما ذهب ذلك بعقله وأطفأ شعلة نفسه ، ولكنه أقبل متئداً يتزايد مع الأيام حتى اعتاده الرجل واستكان له آخر الأمر .

ولو أن ملكة بيتهوفن الفنية لم تكن بهذا الكمال والصفاء لما استطاع الاستمرار فى التلحين والإنتاج ، ولكنه كان قد وصل عند الثلاثين إلى درجة من النضج الفنى جعلته يتصوَّر الموسيقى ويكتبها دون حاجة كبيرة إلى سماعها ؛ ومن دلائل ذلك أن إنتاجه بين سنتى ١٨٠٨ و١٨٢٥ زاد واتصل حتى بلغ من الوفرة والعظمة مبلغاً لم تسجل الإنسانية مثله لموسيقى آخر فى مثل هذه الفترة ، فكان يُخرج فى العام الواحد الثلاث والأربع من غرره الخالدات ، فبين سنتى ١٨٠٨ و ١٨١٠ مثلاً فرغ من السيمفونيتين الخامسة والسادسة ، وأخرج درة من درر البيانو (كونسرت البيانو الخامس Es مؤلف رقم ٧٣) وسبعة عشر عملاً آخر .

وكان شعوره بالسعادة على أوفى ما يكون فى هذه الفترة ، فقد كتب فى سنة ١٨١٠ يقول : « إنه ليخيَّل إلىَّ أننى سأسجن يوماً ما لفرط ما أدركه من الشهرة ! إن الحظ السعيد يسعى فى أقدامى وإن ذلك ليخيفنى ، إننى لأخشى أن يكون ذلك نذير شر جديد مقبل ! » والواقع أن صراعاً كان يحتدم فى نفس هذا الرجل العظيم ، كان يشعر بأن الحياة تريد أن تصرعه وتمشى على جدثه كما فعلت بغيره ممن سَمَوْا إلى أوجه ، فكان يحاربها ويشتد فى حربها ويحاول أن يثبت لتيارها رغم كل شىء ، وكانت تنتابه من اليأس والحزن نوبات تزعزع فى نفسه الثقة حتى كاد يقتل نفسه خلال إحداها .

وكان سِرُّ هذا الضيق الذى كان يثقل على صدره بين الحين والحين أن الحياة لم تأذن له بفرصة واحدة كاملة من السعادة برغم كل ما بذل : غاصت غرامياته وغرقت فى بحر الحياة وظل وحيداً ، وتخوَّنه أهله وسرقوا ماله وأنكروا فضله وآذوه فى كل عزيز لديه ، واعتلت صحته حتى كان لا يستطيع الاستمتاع بطعام طيب أو بنوم هادىء ، ثم انضاف إلى ذلك

كله هذا الصمم الرهيب الذى كان يزيد عوامل اليأس ودوافع الموت فى نفسه .

وجاهد بيتهوفن ذلك كله جهاداً متصلاً ، وكانت آلام نفسه كلما زادت زادت معها حماسته فى العمل وزاد إنتاجه رقة وصفاء وحساسية ، ففى سنة ١٨٠٢ أخرج للناس السيمفونية الثانية المسماة « بسيمفونية الأقدار » التى لايكاد الفن يجد لها عديلاً فى الصفاء ولا فى الرقة ولا فى كمال النغم وعمق التفكير ، ولو أن الإنسان أحب أن يستنتج منها حالته النفسية لاستنتج أن يكون الرجل فى أحسن حالاته وأرضاها ، ولكن الواقع أنه كان فى أتعس حالاته وأوغلها فى الشقاء ، فقد كتب فى السادس من أكتوبر سنة ١٨٠٢ وصية يودع بها الناس ويقول : « أيها الناس ! يا مَن تحسبون نفسى محملة بالعداوة والعناد وكراهية البشر ... كم تخطئون فى حقى ! إنكم لا تعلمون سرَّ ما يبدو لكم منى وأسبابه لقد كانت نفسى منذ طفولتى أميلَ ما تكون إلى اللين والرقة ، ولقد حاولت تحقيق ذلك مااستطعت ، ولكن الدهر رمانى منذ ست سنوات فى جحيم لا مخلصَ منه ، وقد بذلت جهدى لأنجو من ذلك ولكننى لم ألبث أن ارتددت بسبب ما مُنيت به من سوء حال سمعى . إن شيئاً واحداً يحول بينى وبين قتل نفسى .. هو الفن ! إن الفن يمسكنى فى قيد الحياة ، وليس فى استطاعتى أن أبارح هذه الحياة قبل أن أتم ما أشعر بأننى قادر على إتمامه أيها الناس ! لو قُدِّر لكم ذات يوم أن تقرأوا هذه السطور فاذكروا أنكم لم تكونوا عادلين معى ، وليتعزَّ التعساء منكم بما جرى لواحد منهم حاول رغم كل عقبات الطبيعة أن يجد لنفسه مكاناً بين الفنانين والناس المحترمين .. ولكن لابد مما ليس منه بد ! إننى أتعجل الطريق إلى الموت فى سرور ... » .

إلى هذا الحد بلغ يأسه ومرارته بالحياة فى لحظة فاض فيها إلهامه وإنتاجه حتى عُدَّ أعجوبة من أعاجيب الزمان .

بيد أننا لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير وقع كارثة الصمم فى نفسه ، فقد احتملها الرجل صابراً متجملاً ، وزاد على آلامها إنتاجاً وعملاً . وقد حاول أول الأمر أن يتغلب على ماوضعته فى طريق حياته من عوائق ، فمضى يدير الفِرَق الموسيقية ويعزف فى المسامع ، ولكنه لم يلبث أن أحس أن ذلك عسير عليه بل مستحيل ؛ وانتهى به الأمر إلى التسليم

بالانصراف عن الإدارة واكتفى بالعزف ، ثم انصرف عنه كذلك واكتفى بالتأليف . وقد استعاض عما فقده من لذة العزف والإدارة بزيادة الاتصال بالناس والاستمتاع بالحديث إليهم ، ولم يكن يسمع ما يقولون بل كانوا يكتبون له كل شيء ، وكان هو يتحدث ويشرب فى لذة ظاهرة ، وقد أصاب من اجتماعه بالناس هذا ومن حديثه إليهم ومن زياراتهم له أنساً خفف من عزلته وآلامه ، فرقَّت حياته نوعاً وصفت نفسه أحياناً ، وعاد يحب الحياة قبيل وفاته أكثر مما كان يحبها فى عنفوان شبابه وأيام اكتمال صحته .

* * *

واتصلت آلامه على هذا النحو إلى آخر أيام حياته ، وكلما تقدم به العمر وزادت به وطأة الصمم اشتد ميله إلى الشراب والجلوس مع الناس فى المشارب والحانات ، ولم يصل به الأمر إلى حد الإدمان ، ولكنه أضر بكبده ، وقد كان يشكو ضعفه منذ حين . وفى العام الذى أخرج فيه للدنيا سيمفونيته التاسعة المعروفة بأنشودة السلام ، والتى لا زال الناس يرددونها كلما اشتدت بهم الخطوب أو اجتاحتهم الحروب ، بدأ مرض كبده يظهر فى شكل محزن منذر بالخطر ، وانضاف بذلك إلى متاعب هذا العبقرى الجليل عنصرٌ جديد لعله كان أشد ما عرف فى حياته ، فإن الكبد المريضة لا تزال تفسد على صاحبها أيامه وتهبط عليه بالأوجاع حتى تسود فى عينه الحياة ؛ وكان بيتهوفن بين أن يهجر المشارب جملة ويعتزل الناس ويسلم نفسه لوحدته وآلامه ، وبين أن يمضى إلى الحان ويجلس إلى أصحابه ساعات ينسى فيها متاعبه ثم يعود إلى بيته آخر الليل بكبد مُتَضرِّمة ! فظل يواتر بين هذين الوَيْلين خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته .

وحدث فى أول ديسمبر سنة ١٨٢٧ أن ذهب يزور يوهان أخاه فى جنايكزنبرج لكى ينظر فى أمر ابن أخيه كارل ، ولم يشقَ إنسان كما شقى بيتهوفن بأقاربه جملة وبكارل هذا خاصة وكان أخوه يوهان رجلاً قليل الخير لا يكاد يشكر للموسيقىّ العظيم جميلاً ، ويبدو أنهما اختلفا فى أمرٍ فمضى عنه بيتهوفن مغاضباً ، وركب فى عربة مكشوفة والمطر ينهمر ، فلم يصل إلى داره فى فينا إلا وقد ملأ البرد رئتيه وأصابه فى مقتل . وقد جاهد المرض جهاداً شديداً ، ولكن النزلة كانت أشد مما يحتمل ؛ وقد قلت حدة المرض بعد بضعة أسابيع ، فما

كاد يشعر بشيء من التحسن حتى بدأ يتحدث عن سيمفونية جديدة دارت خطوطها الرئيسية برأسه ، سيمفونية عاشرة لم يأذن له المرض فى كتابة سطر واحد منها ، ثم بدأ يخطط فى نفسه « أوراتوريوم » ـ أى مشهداً موسيقياً ـ عن داوود وشاءول !

وكان الأطباء قد أذنوا له فى أن يتسلى ببعض المطالعة الخفيفة ، فإذا به يطلب هوميروس وبلوتارك وأفلاطون وأرسطو لكى يغذى ذهنه المضطرب المشوق إلى المعرفة ! وأقبل عليه زواره جمعاً بعد جمع ، فكان على عهده أيام تسكت عنه المصائب مرحاً لطيفاً . وعاد الأملُ إلى قلوب الناس فى إبلاله وعودته إلى العمل ، ولكن الاستسقاء عاد إلى حِدته الأولى ، وامتلأ صدره وجلده بالماء حتى استحال عليه الكلام .

وفى الثالث والعشرين من مارس سنة ١٨٢٧ زاره الأطباء ، واستشعر من هيئتهم قلة الأمل ، فلم يكادوا يخرجون من عنده حتى نظر إلى عائديه وردد آخر عبارات أغسطس على فراش الموت : « صفقوا أيها الأصدقاء لقد انتهت المهزلة !.

« Plaudite amici, comoedia finita est

وفى الساعة السادسة من مساء السادس والعشرين من مارس سنة ١٨٢٧ صعدت روحه إلى بارئها بعد احتضار مضنٍ دام قرابة اليومين .

* * *

أكان الرجل سيىء الخلق حقاً ، أكان مصاباً بالجنون حقاً ؟ الحق أن الدنيا لم تظلم عبقرياً بمثل ما ظلمت هذا المسكين ، فقد تَقَضّى شبابه بين آلام الفقر والحرمان وعقوق الأهل وضعف الجسد وكراهة الناس له . وفى هذا الوقت نفسه كان جيته يتقلب فى مهاد النعمة ويتنقل من رعاية أمير إلى حب فاتنة ، يقضى الشتاء فى « بلاد الليمون » (إيطاليا ، وهكذا كان يسميها) وينفق الصيف فى غابات ألمانيا وينعم بإعجاب المعجبين . كان بيتهوفن يرى ذلك ويدركه منه شيء من الحسد ، ولكنه كان يتمالك نفسه . وليت جيته نفذ إلى أغوار نفس هذا الإنسان العظيم !.

لقد التقى العظيمان فى تربتز فى سنة ١٨١٢ : دهش جيته أول الأمر ، وكتب إلى زوجته

يقول : « لم أر فى حياتى فناناً أكثر انكماشاً ولا أوفر نشاطاً ولا أغنى داخلاً من بيتهوفن . إننى أفهم تمام الفهم كيف كان ، لابد أن يصبح عجيبة من عجائب الدنيا » . وكان يسير مع بيتهوفن فى الطريق العام بعد ذلك بأيام ، وأقبلت الأسرة المالكة فى عربتها ، وتنحى الناس لها عن الطريق ، وتنحى معهم جيته ورفع قبعته باحترام وحيا الدوقَ الكبير رودلف والقيصرة ، أما بيتهوفن فقد بقى مكانه وسط الطريق ولم يرفع قبعته للتحية إلا بعد أن حياه الدوق والقيصرة ! فأنكر جيته من بيتهوفن هذا التصرف ، ورأى فيه تصلباً وعناداً وشذوذاً لا معنى لها ، وشابَ علاقاتهما لون من الجفوة ، وكتب جيته بعد ذلك بقليل إلى صديقه تْسِلتر : « لقد تعرفت إلى بيتهوفن فى تِربِتْز ، ولقد أذهلتنى مواهبه ولم ألبث أن تبينت أنه شخصية شرود ليس لها الحق فى أن تشكو من أن دنياها شىء كريه لأنها لا تعمل شيئاً يجعل الحياة محتملة لها أو للآخرين ! » .

هكذا أبى جيته أن يقرَب هذه النفس الكبيرة المعذبة أو يفيض عليها حبه وحنانه اللذين أفاضهما على كل ما فى الوجود ، ولو فعل لوجد لبيتهوفن من آلامه مخرجاً . والواقع أن جيته لم يكن ليستطيع فهم بيتهوفن لأنه كان فناناً من طراز آخر : جيته يعبث بالحياة ويسخر منها ويجرب كل ما فيها ، وهو يقبل على ذلك كله فى شغف الفنان المتطلع إلى كل شىء ، الذى يريد أن يعرف كل شىء ، أما بيتهوفن فقلبه معلق بالمثل الأعلى فى كل شىء، لا يأذن لنفسه فى لذة إلا إذا أجازت الأخلاق الاستمتاع بها ، وإلى هذا التزمت المجهد يرجع السبب فى حرمانه من المرأة ، وما استتبعه ذلك من شعوره بمرارة الوحدة والعزلة عن الناس .

كان بيتهوفن يرى ما يمرح فيه جيته من نعيم ، ويتسامع بغراميات شيلر وببعد صيته ، ويرى شبح نابليون حيثما سار ، وكان يشعر أنه ليس بأقل من هؤلاء ملكة ولا عبقرية ، فكان يتأمل ماهو فيه من الجهد والحرمان والمرض ، فتثور نفسه ويشعر أن الدنيا تظلمه ولاتريد أن تعطيه نصيبه . ولكن هذا الشعور لم يؤدِّ به إلى كراهية الناس أو إلى كراهة واحد ممن ذكرنا ، لأن أساس نفسه كان طيباً كريماً ، وكان فى نفسه رقيقاً عطوفاً لا يكاد فى حالات صفوه يغضب على أحد .

حكوا أنه كان يقضى بعض ساعات النهار فى مقهى صغير يؤلف ويقرأ ، فلاحظ أن فتى وفتاة يلتقيان فى نفس المكان ويقضيان معاً فترة من الزمن فى مناجاة كل يوم ، ثم لاحظ بعدئذ أن الفتى كان يأتى بعد ذلك ويجلس وحده حزيناً كئيباً ، فنهض إليه يسأله عن حاله ، فإذا فتاته قد خاصمته ، فما كان من الموسيقى الكبير إلا أن حمل رسالة اعتذار من الفتى إلى الفتاة ، ومازال بهما حتى عاد بينهما الود والصفاء ! ...

ولم يكن أعطف منه على من هو أصغر منه فى عالم الفن ولا أكثر تشجيعاً . لقد أطرى كيرُوبينى ، وهنأ روسينى على توفيقه فى « حلاق إشبيلية » ، حتى كارل ماريا فون فيبر ـ الذى ظل زماناً طويلاً يطلق لسانه فى بيتهوفن ويزعم أنه لا يفهم موسيقاه ـ لقى عنده قبولاً طيباً كان له أعظم الأثر فى نفسه ؛ بل كان يعرف أن فلاناً يناله بالسوء فلا يمنعه ذلك من إكرامه والعطف عليه إذا لقيه . أما مايقال من أنه لم يحسن لقاء فرانتس شوبرت ، وأنه لم يمد له يد المساعدة فغير صحيح ، وقد استحال على بيتهوفن أن يساعده ، لأن شوبرت كان خجولاً ، ولم يجرؤ على زيارته مرة أخرى . وقد سمع بيتهوفن شيئاً من موسيقى شوبرت وهو على فراش المرض فقال : « حقاً إن نفس شوبرت هذا تضم قبساً إلهياً ، وكان لا يفتأ يسأل عنه بعد ذلك .

إن قصة حياة بيتهوفن إنما هى قصة الفن المعذب فى الأرض .. قصة كل قَبس إلهى يؤتى به للناس .. إنها قصة بروميثيوس وقبسه الذى شقى به وأنار به للناس . وقد أحس هو ذلك ، وكتب قطعة موسيقية حول مأساة بروميثيوس [1] .. وقصة حياته هى قصة الأنبياء وذوى الرسالات الكبرى ، ممن تضيق بهم الأرض وينفر منهم الناس ، وتهبط عليهم المصائب جماعات يستدعى بعضها بعضاً ، لا يعرف الناس فضل هذا الطراز من قادة البشر إلا حين تفارق أرواحهم الأرض وتمضى إلى الملأ الأعلى ..

حدثوا أن اللحظة التى شهدت ختام حياة بيتهوفن شهدت عاصفة عنيفة اجتاحت فينا

---

(1) Musik zum Ballet, Die Deschopfe des prometheus (op.)

وهزتها هـزاً ، فكان النُّعاة ينتقلون بالخبر المحزن فى ظلال العاصفة وفى رعب الرعد القاصف ، فكأنما مادت الدنيا بأهلها لوفاة هذا الإنسان الجليل .

وفى اليوم التالى ـ وهو الخامس والعشرون من مارس سنة ١٨٢٥ ـ اجتمعت فينا كلها ووقفت حاسرة الرأس خاشعة النفس تشيع الرجل العظيم إلى مرقده الأخير ، حيث يدرك الراحة التى لم يجدها فى هذه الدنيا ، ووقف واحد من أكبر أدباء الألمان ـ هو جُرِلبارتسر ـ يلقى تأبين الفقيد ..

وفى غمار المشيعين وقف شاب شاحب الوجه مجهد النفس واكف الدمع يشهد بيتهوفن العظيم داخلاً إلى عالم الخلود ، ويتحفز لتسلم رسالة الفن الموسيقى عنه للسير بها إلى الأمام ، ذلك كان فرانتس شوبرت .

محرر العبيد

أبراهام لنكولن

ترى ما الذى يرفع فى نفوسنا من مقام هذا الرجل ؟ ما الذى يضعه منها هذا الموضع الرفيع من الحب والتقدير ؟ أهذه الهيئة الجادة الجافية ؟ أم هذه الروح الصافية ؟ .. أم هذا التاريخ الطريف الحافل بالخير والحق ؟ أم هذه النفس العامرة بالحسنات والفضائل ؟ أم هذا الانتقال الغريب من الخمول الكامل إلى الشهرة الباهرة ، ومن الفقر المدقع إلى مركز الرياسة العظيم ؟.

لو قد كان سر عظمته أحد هذه فحسب لكفاه ، ولَحَق له أن يتخذ مكانه فى أرفع درجات الإنسانية ، فما بالك وقد جمع ذلك كله ؟ وما بالك فى رجل اشتركت هذه العوامل كلها فى تكوينه ، وتعاونت كلها فى صناعته وصياغته ؟ وما بالك وقد استقل عليه مواطنوه مكانه من الناس فرفعوه إلى مكان القديسين ، وقد رأوا فى جماع صفاته وحسنات حياته ما يجعله قديساً لا بشراً عادياً ، ومثلاً أعلى يحتذى لا إنساناً .

ولد فى كوخ خشبى ذى ثلاثة حيطان فى غابة فسيحة على مقربة من هاردْنكو فى ولاية كِنتكى فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، وكان أبوه حطاباً فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولم تحتمل أمه مصاعب الحياة فى هذه الحال القاسية ففارقت الدنيا وهو بعدُ فى لفائف الطفولة يعانى من شظف الحياة ما يعانى . لقد نشأ جاهلاً لا يزينه علم ولا ثقافة ، وظل يعانى من هذه النشأة الوضيعة الخاملة حتى أخريات أيامه ! تلك هى الحقيقة الصريحة التى يفاخر بها الأمريكيون ويجعلونها إحدى آيات عظمته وبينات عبقريته ، لأنه فى رأيهم نموذج للعبقرية الصافية الساذجة التى تثبت نفسها بنفسها وتجدُ مكانها على رغم قلة المال وقلة العناية والوسائل .

ولم يكن إلى ذلك بالخارق الذكاء ولا الدؤوب المتفانى فى العمل ، إنما كان يبدو لمن يراه رجلاً بسيطاً عادياً لا يكاد يميزه عن آلاف الرجال حوله شىء . ولم يكن كذلك من الطامحين إلى المجد والعظمة ، الذين لا تمنعهم وضاعة المنبت من طلب الأمر العظيم والصمود له ، وإنما كان رجلاً بسيط المطامع يكاد من يراه يظن أنه لا يرجو شيئاً . ولكن الأساس الوحيد العظيم الذى قامت عليه حياته كلها هو الخلق : خلق ثابت متين يحسّ بقوة الحق ويلزمه ويتكلف كل وَصَب فى سبيله ، ويتحرى الصدق فلا تؤخذ عليه فى حياته السياسية كذبة واحدة . وكان لسذاجته لا يحتال على الفضائل ولا يتحلل منها ـ كما يفعل عامة الناس ـ ثم يحاول بعد ذلك أن يجد لتصرفه تعليلاً ، إنما كانت الفضيلة عنده وحدة لاتتجزأ ، وكان الصدق عنده قانوناً ثابتاً لا يجوز الانحراف عنه لأى سبب من الأسباب .

حكوا أنه تولى الدفاع فى شبابه عن رجل بسيط فى قضية ، وكان فقيراً يكاد لا يكسب عيشه إلا بمشقة ، إذ كان ذلك فى بدء اشتغاله بالمحاماة . فبينما هو فى المحكمة يترافع ، وبينما الاتهام يتحين الفرص ويحاول ليجد السبيل إلى إثبات اتهامه ، وبينما الجمهور معجب ببلاغة لنكولن الذى كان يرد رداً مفحماً على كل تهمة ، إذ به ـ أى لنكولن ـ يتبين أنه لايدافع عن الحق ، وأن موكله مجرم حقاً وأنه قد خدعه ، فلم يكن منه إلا أن انصرف إلى داره وكتب إلى القاضى يعلن إليه ما انتهى إليه ، ويتنازل عن القضية ويعتذر عما كان منه من إتعاب المحكمة والناس .

ثم إن شعوره بالإنسانية كان شعوراً كاملاً دقيقاً قلَّ أن يصل إليه فيلسوف أخلاقى يبحث ويدقق ويتحرى ، كان الناس عنده سواسية لا يزيد أحد منهم على أحد فى حقوقه عند الجماعة الإنسانية : قد تكون أذكى من فلان أو أرفع نسباً من فلان ، ولكن ذلك لايعنى أنك إنسان وهو غير إنسان ، وذلك لا يعنى أنك تفضله أو تمتاز عليه فى الحقوق ، بل إن ذلك لا يبيح لك أن تحسب نفسك أرفع منه مكاناً ... وله فى ذلك القصص العجيب الذى لا يروى مثله إلا لذوى الرسالات الإنسانية أو الإيحاءات السماوية ، فقد مر بزنجى خامل فحياه ، فلامه نفر ممن معه وقالوا له : « تكون رئيس الولايات المتحدة ثم تبادر بتحية زنجى ! » فقال : « أكنتم تريدون أن أنتظر حتى يبدأ هو بالتحية ، فيقول الناس إن رئيس الولايات المتحدة أقل أدباً من ذلك الرجل ؟ » .

وعن هذا الشعور الدقيق بمعنى الإنسانية صدر شعوره بالرحمة ورقة قلبه التى لا نكاد نجد لها شبيهاً فى أمثاله من قادة الشعوب ، فقد كان لا يطيق أن يرى عانياً أو جريحاً إلا سارع بنفسه لتضميد جراحه . حكوا أن سيدة شابة موسرة ركبت فى قطار أثناء الحرب الأهلية ، فوجدت القطار غاصاً بالجرحى ، فأنفت من البقاء فيه ، فبينما هى ضجرة تتأفف إذ بها تجد رجلاً طويل القامة واللحية منصرفاً إلى علاج الجرحى ، ينتقل من واحد إلى واحد حاملاً إناء الماء وأدوات التضميد لا يكاد يسمع أنة جريح إلا جرى إليه وأخذ يعالجه ، ولم تلبث السيدة أن عرفت أن هذا الرجل هو رئيس الولايات المتحدة كلها أبراهام لنكولن ، فأدركها الخجل مما بدر منها ، وأقبلت تضمد الجراح معه وهى تشعر بالسعادة . وهكذا كان الرجل يربى شعبه ويعلمه الإنسانية والرحمة دون أن يقصد إلى هذا قصد المتكلف الذى يتعالى على الناس لشعوره بأنه معلمهم ، أو لأنه يعلمهم مالا يعلمون .

وخطب مرة خطاباً هزَّ القلوب وأقام البلاد وأقعدها ، واجتمع مجلس الشيوخ ليوفيه حقه من الشكر والإعجاب ، وكان ذلك فى أعقاب معركة عنيفة بين الشمال والجنوب كُتب للشمال فيها النصر ، ولكن خسائر أهله فاقت حدّ الاحتمال . فبينما الرجل خارج من داره إذ بصبى يجرى ويصطدم به من فرط السرعة ، فيرفعه الرئيس عن الأرض ويسأله إلى أين يقصد ، فيذكر الصبى أنه ذاهب لإحضار محام يكتب لأبيه وصيته ، ويسأله الرئيس عن أبيه ، فيذكر أنه جندى فقد بصره فى المعارك الماضية ، وأنه يريد محامياً يرتب له أموره فى هذه الحال الجديدة التى صار إليها ، فيمضى معه الرئيس دون أن يعرفه بنفسه .

حتى إذا انتهى إلى غرفة المريض وجده ساكناً يردد كلمات خطاب لنكولن العظيم ، ويجد فى هذا الترديد أجمل العزاء ، وينظر الرئيس فإذا على سرير المريض صحيفة فيها الخطاب التاريخى ، فيفهم أن أحداً من الناس كان يقرأ له فيها ، وأن دخوله ـ أى دخول الرئيس ـ قد قطع عليه هذه اللذة ، فكتب للمريض ما أراد على اعتبار أنه محام عادى ، ثم سأله إن كان يريد أن يتم له قراءة الخطاب ، ومضى يقرأ . ثم انصرف عن الصحيفة ومضى يتلو بقية الخطاب عن ظهر قلب ، لأنه كان محفوراً فى صدره ، ولمحت زوج المريض ذلك ،

وخامرها الشك فى أن هذا هو لنكولن نفسه ، وسألته فى ذلك ، فأجاب بكل بساطة مخاطباً الجندى :

ـ أنا أخوك وزميلك لنكولن ، تجدنى فى خدمتك متى أردت ، كان الله فى عونك وأحسن جزاءك يا بنى ! .

هكذا يكون بناة الأوطان ..

ولقد بلغ من خشونة أيامه الأولى وقسوتها عليه ، وبلغ من شدة ما عانى خلالها أنه كان يتأذى من ذكراها ، لأنها تعيد إلى نفسه مشاعر مؤلمة لم يكن ليستحبها . وخلفت هذه الحياة القاسية فى نفسه نوعاً من الحزن الشامل الشديد ، كان يدفعه إلى نزوات كالجنون فى بعض الأحايين . وقد كثر عليه ذلك أيام شبابه ، أيام كان يعيش فى قرية سبرنجفيلد طالب قانون بسيط أو حطاباً محروماً أو عاملاً على مركب فى المسيسبى ، فكان يقضى نهاره يحمل الأثقال وينفق زهرة شبابه فى أتفه الأعمال . فى هذه الحقبة من تاريخه كان يصاب بلون من الذهول والسأم من الحياة ، حتى لقد فر ليلة زفافه واختفى دون أن يعرف أحد السبب فى ذلك ، وظل بقية حياته عرضة لحزن كامن دفين يتحرك عليه ويشتد على نفسه بين آونة وأخرى ، فكان يعتصم من ذلك بالعزلة والتأمل .

ولكن هذه النشأة الوضيعة أثَّرت فى حياته تأثيراً عظيماً من ناحية أخرى ، وأضفت على سيرته كلها لوناً من العظمة والقداسة لم يكن يتاح له لو أنه درج فى مهاد النعمة وتقلب فى مراتب العز . فقد كان عليه فى مستهل حياته أن يصارع بيديه ليعيش ، وأن يشقى ليبقى لنفسه صفاءها وطهارتها ، كان عليه أن يعمل بيديه ، حطاباً أو ملاحاً أو حامل أثقال ، فاحتمل كل ذلك وانتصر عليه . حتى إذا جد الجد بعد ذلك بسنين ، وتطلبت أحوال بلاده رجلاً قوياً يكشف عنها البلاء ، ويرد عنها السوء ، تقدم واثقاً مطمئناً ، وقد وجد نفسه مستعدة كاملة العدة للصراع والنضال . لقد أورثه صراع حياته قوةً استخدمها فى صالح أمته وبنى وطنه .

قضى الفتى فى هذه الحياة القاسية سنين طويلة يملؤها الشقاء ، وكان قانعاً كل القنوع راضياً كل الرضا بما يكسبه من قوت بعد طول الجهد ، ولكن نفسه كانت عطشى وإن كان

جسده راوياً ، وروحه جَوْعَى وإن رضى جسده بهذا الشبع الضئيل ، فبدأ يلتمس للنفس العطشى رياً فى القراءة والاطلاع ، وللروح الساغبة شبعاً فى دراسة القانون . ومن ثم أخذ فى أوقات فراغه ـ وما أقلها ـ يقرأ ويدرس ويبحث وينقب ، وكم لقى من سخرية رفقائه ، وكم قاسى من سخط رؤسائه ! فلم يكن ليرضيهم أن يروا هذا الفتى النحيل مضطجعاً على كومة من التبن ، أو على السلم الذى يصعد به إلى أعلى المخزن يقرأ فى كتاب قانون ، أو يدرس فى كتاب تاريخ . كم نهره الرؤساء وكم ركبه الرفقاء بالسخرية ! .

ولكنه كان لا يحفل لهم ولا لأحاديثهم ، وإنما كان يجد فى قوانينه ودراساته وأحلامه عزاء عن ذلك أى عزاء . وماذا يهمه إذا طرده اليوم هذا الرئيس الجاهل ، أو سخر منه هذا الشاب العابث ؟ وإنما المهم عنده هو أن يتبين لنفسه الفروق بين قانون سويسرا وقانون إنجلترا ، وأحب إلى نفسه من ذلك كله أن يسألها : لماذا لا يعدِّل تشريع اللّنويس إلى هذه الصورة اللطيفة التى تتراءى له فى دستور فرنسا ؟ .

وهكذا استحال الفتى شيئاً فشيئاً إلى شخص خيالى حالم يعيش بفكره بعيداً عن الناس ويتسامى بخياله إلى أعلى ذرى الفكر الإنسانى وإن كان مقامه بين أحقر الناس وأحط الطبقات . إنه ليسعى فى أن يكوّن من هؤلاء الرفقاء العابثين فرقة نظامية ، أو جمعية ذات أغراض مثالية ، وإنه ليسمى فرقته « فرقة فتيان كلارى جروف » ولا يزال بهم يدربهم ويتعهدهم لعمل عظيم ، حتى إذا قامت الحرب بين ولايته وزعيم الهنود الحمر المسمى بالصقر الأسود سنة ١٨٣٢ ، وجد الناس فى هذا الفتى شخصاً غريباً نافعاً ، وأعجبوا به إذْ رأوه فى فرقته الصغيرة يكسب فى هذه الحرب نصراً وتقديراً لم يتاحا لأحد سواه .

إلى هنا كانت دراسته فى القانون قد بدأت تفى عليه بعض الرزق ، فيسر له ذلك بعض مشاق حياته ، واستطاع أن يشارك تاجراً فى مخزن بضائع رجاء الهرب من آلام الفقر ومضانك الخصاصة الملحة . ولكن سوء الطالع حل به ، فأفلس فى التجارة إفلاساً حمله بالديون ، وهرب زميله ، وكادت أموال الدائنين تضيع ، فما كان من لنكولن إلا أن تعهد بسداد الديون كلها : ديونه وديون زميله ! قام بذلك وأجهد نفسه فيه إجهاداً شديداً ، ولو

أن إنساناً آخر كان مكانه لتنصل من المسئولية وسدد نصيبه وحده ؛ ولكن ما قولك فى رجل لا يعرف من الحياة إلا أنها أخلاق ، ولا يعرف فى الأخلاق تحللاً أو تهاوناً أو تعللاً ؟

وأحسن الله عزاءه عن هذه الخيبة ووفقه إلى رضى مواطنيه ، فانتخب عضواً فى المجلس التشريعى لولاية اللنويس ، وكانت شهرته فى المحاماة قد بدأت تجرى على الألسن ، وكسَب له شرفُ المعاملة واستقامة الخلق تقديرَ الناس ، فعينته الحكومة وكيلاً للبريد فى بلده الأصيل « نيو سالم » ، ووفقه الله كذلك فى المحاماة حتى أصبح أرفع أهل اللنويس شأناً ، وانتخب عضواً فى المجلس الأمريكى سنة ١٨٤٧ .

كان يوم دخل المجلس يحسب أنه مستطيع خدمة بلاده وتحقيق مبادئه على أهون سبيل ، ولكنه روّع إذ وجد أن هم الأعضاء منصرف إلى الخطابة وإلى المناقشات الفارغة والبلاغة التى تستدر الإعجاب وتنتهى عند التصفيق . ولم يكن بطبعه رقيقاً ولا مصقولاً ، ولم يكن يحرص على الإعجاب أو على التصفيق ، فانصرف عنه زملاؤه ، وما من رأى أبداه إلا قوبل بالإهمال أو بالاستهجان ، وما من طلب قدمه أو فكرة ألقى بها ، إلا انصرف عنها النواب وكأنهم لا يفهمونها ، فلم يطق على هذه الحال صبراً ، وهبط عليه اليأس ، فصبر على مضض حتى إذا فرغت دورة نيابته لم يرشح نفسه مرة أخرى .

وعاد إلى المحاماة وقد أطلق طول المران لسانه ، وأفاض طولُ التجريب بيانَه ، وبدأت مهارته الخطابية تتجلى ، فتحدث الناس بهذا الخطيب الصادق الفياض . فلما كانت سنة ١٨٥٤ وأقرَّ المجلس الأمريكى اقتراحاً بإبقاء الرق فى الولايات الجنوبية ، عقد الرجل اجتماعاً عظيماً فى « بيوريا » وألقىٰ فيه خطاباً رناناً ، هاجم به هذا القرار ، وأعلن فيه سخطه على الرق ، فلم يبق إنسان فى الولايات المتحدة إلا استثارته كلمات لنكولن ، ولم يبق فى الوطنيين إنسان لا يضع هذا الرجل فى سويداء نفسه والمكان الأرفع من ثقته وتقديره على أساس أخلاق هذا الرجل ، وبمبادئه ، ولتحقيق مثله العليا نهض الحزب الجمهورى من جديد ، وأخذ الناس ينصرفون عن الديموقراطيين وزعيمهم ستيفن دوجلاس ، إذ لم يكن هذا الأخير إلا رجلاً أنيقاً لطيف المجلس كثير الحديث ، لا يعنى مما يقول شيئاً ، ويحاول أن يكسب الحياة بخداع الناس .

أخذ الناس يلتفون حول لنكولن ويؤيدونه فيما ذهب إليه ، ومن هذا الحين كتب للولايات الأمريكية الواقعة بين كندا والمكسيك أن تتجه اتجاهاً إنسانياً واحداً ، وكانت قبل ذلك تسير فى حياتها حسب مصالح أهلها المادية الواضحة ، وما كان ذلك إلا لأن لنكولن أراد ذلك .. لأن رجلاً واحداً ذا عزم وفضيلة أراد أن ينشىء عصراً جديداً .

ثم رشح نفسه سنة ١٨٥٨ عن اللِّنويس لمجلس الشيوخ ، فنهض له شيخ الولاية القديم وخصمه العتيد ستيفن دوجلاس ، فلا عجب أن اشتد الصراع وحمى الوطيس بين الرجلين ، ولا عجب أن صارت المعركة الانتخابية بينهما حدثاً شُغِل به معاصروهما وأحدوثة لازال ذكرها باقياً إلى اليوم ، ولا عجب أن يفوز دوجلاس بسبب ما لجأ إليه من أساليب الدعاية والتمويه على الناس ، والناس فى كل مكان أغرارٌ يخدعهم الكلام المونق ، ولاعجب أن يشهد الأعداء قبل الأصدقاء رغم هذه النتيجة أن لنكولن أصبح ـ بفضل هذه المعركة وبخطاباته وكلماته وبقوة بيانه وسلامة حجته ـ شخصاً قوياً رفيعاً ، يحبه الأمريكيون جميعاً على السواء ، وبان فى الأفق أن المستقبل يسعى إليه . ثم جاءت انتخابات الرياسة ، وألح عليه أنصاره ومحبُّوه أن يتقدم ليخوض غمارها ، فتردد ، ولكنهم ألحوا عليه فقبل ، ولم يكد يفعل حتى اكتسح منافسه ستيفن دوجلاس اكتساحاً تاماً .

* * *

ويريد ربك أن تتعقد الأمور ، وتتداعى الويلات ، وتتواتر المصائب بعضها فى إثر بعض فى مطالع ر ياسة لنكولن ؛ كانت هذه الأمة الأمريكية إذ ذاك ناشئة ، ولم يكن كيانها قد قام على أسس ثابتة ودعائم متينة ، كان هذا الصرح الذى أقامه الأبطال من أمثال واشنطن وآدمز وهملتون فى حاجة إلى دعائم أخرى تشده وتقويه وتعيده إلى أصوله المعنوية التى أرادها له منشئوه ، وكان تاريخ الولايات المتحدة قد خطا خلال نصف قرن خطوات لم تكن تخطر لأحد فى حسبان : أخذت البلاد تعمر ، والثروات تنمو ، وموارد الرزق تتفتح ، وانهال على البلاد سيل المهاجرين ، كل يبذل قصاراه فى جمع المال ، ونشأت الولايات واحدة بعد واحدة ، لكل منها نظامها وقوانينها ، لا تكاد إحداها تحرص إلا على نجاح أهلها .

وكانت ولايات الجنوب معجلة لا تكاد تتريث فى استغلال مزارع بلادها الواسعة ، فجلبت العبيد ، وأخذ أهلها يفلحون بهم الأرض ؛ اشتروا هؤلاء العبيد بالمال ومضوا يعاملونهم كأنهم بعض المتاع ، وخالفهم أهل ولايات الشمال فى ذلك لأسباب إنسانية واقتصادية ، وأخذت الولايات تزاحم بعضها بعضاً وتنافس بعضها بعضاً ، حتى خيف على الوحدة أن تتفكك ، بل تحدثت بعض الولايات فى ذلك ، وبدا للعيان ألا مندوحة عن عمل جديد حاسم يقرر أساس الوحدة من جديد ، وأن الأمر يتطلب رجلاً من طراز واشنطون حتى تعود الأمور إلى نصابها وتأمن الجمهورية الوليدة على مستقبلها كدولة موحدة آمنة الجوانب .

وكان الجنوب قد أثرى من الزراعة وغَنِى بوفرة الخير ، وكان يأبى على الشمال أن يتدخل فى شئونه حتى كادت ولايات الجنوب أن تكون أمة مستقلة قائمة بنفسها تتحدى الشمال فى أنفة وكبرياء ، فما العمل ؟ لقد أعلن مجلس الجمهورية الأمريكية يقوده لنكولن أنه ينوى مقاومة الرق ، فبكرت كارولينا وأعلنت أنها لا تسمح بإلغاء الرق فى بلادها لأن ذلك يهدد مصالحها الاقتصادية ، إذ كان الكثير من أهلها من ذوى الأملاك العريضة يزرعونها بأيدى العبيد بأقل نفقة ، ولو ألغى الرق لزادت الأجور وكثرت عليهم النفقات ، وأبدى مندوبوها من الحمق والجهل ما أفزع الرئيس الجديد وهو بعدُ بباب الرئاسة لم يستقر فيها ، فما العمل؟ .

هل يترك أولئك الراغبين فى الانفصال عن الاتحاد ينفصلون ويكونون لأنفسهم دولة قائمة بذاتها ؟ فإذا تم ذلك ونشأت دولة معادية فى الجنوب فماذا يكون المصير ؟ تكون عداوة مستمرة بين الحيَّين وتستمر الحرب بينهما أبد الدهر ، ويصبح العالم الجديد كهذا العالم القديم الذى لا يكاد أوار الحرب يسكن بين دولاته بسبب تعددها واختلاف وجوه النظر بينها . ذلك ما رآه لنكولن بفطرته الهادية ، وذلك ما توقعه وأحب أن يتلافاه حينما شبك يديه فوق صدره ، وقال لمن حوله بهدوء : « أيها السادة .. إن أهل الجنوب يسيرون نحو حتفهم ، وهم إخواننا ومن واجبنا إنقاذهم ! » فلما سئل : « كيف ؟ » قال : « نحاربهم حتى يعودوا إلى الصواب ! » .

وكانت الحرب ، ولم تكن يسيرة ولا قصيرة الأمد ، إنما كانت كفاحاً عنيفاً قاسياً بذل الجانبان فيه من الجهد مالم يكن أحد يتوقعه ، وامتد لهبها وتعدد ضحاياها حتى ظن الناس أنها آخرة هذه الجمهورية الوليدة ؛ وبُذلت فى أثنائها المحاولات للوصول إلى حل «معقول» يُجاب فيه الجنوب إلى بعض مطالبه ويقنع فيه الشمال ببعض شروطه ، ولكن لنكولن لم تفزعه هذه الخطوب ولم تصرفه عن الهدف البعيد الذى كان يقصد إليه . إن الحق عنده لايتجزأ ، والواجب لا يقبل المساومة ، وقضايا الأوطان لا تقبل التهاون . إن ما يعرضه الناس عليه يهدد سلامة الوطن الأمريكى ، فلابد من السير فى الكفاح إلى نهايته ، ولو لم يبق آخر الأمر إلا أمريكى واحد يرفع راية الوحدة ويوقع قرار إلغاء الرق عن الشعب جميعه، فهذا الواحد خير من ملايين نصفها يتيه فى الضلال ونصفها لا يكاد يستطيع السير فى طريق الحق .

ولم يكن لنكولن قاسياً ولا متطرفاً ، ولم يقد هذه الحرب قيادة العدو الذى يريد أن يمحو خصمه بأى سبيل ، بل قاد الحرب قيادة الأب الحانى الذى يرد ابناً ضالاً له عن الضلال فى شىء من الحزم ، وقد استطاع بهذا أن يكبح جماح الحرب ويردها عن الحمق والتطرف ، واختطَّ لنفسه خطة اللين والإقناع حتى يتغلب على هذه القوى المتراصة التى حشدها أهل الجنوب أمامه لا تتردد ولا تتراجع .

كان يستدعى كلاً من وزرائه على حدة ويفاوضه ويجادله حتى يكسبه إلى جانبه ، حتى استطاع أن يفوز بتقدير ألدّ خصومه وأعظم أنصار الجنوب فى حكومة الاتحاد وهما سِيوَرد ونشيز ، وكانا شيخين فانيين لا يريان فى الرق أمراً كبيراً ولا جريمة تستنكر ، ولا يفهمان أن معارضة الجنوب فى هذا الأمر معناها تفكك الاتحاد الأمريكى وانفصام عراه ، وكانا يسألان فى بساطة : « وماذا يحدث لو أبيح الرق فى ولايات الجنوب ؟ » فكان لنكولن يجيب « يتخذ الجنوب سياسة أخرى ونظاماً اجتماعياً آخر غير الشمال ، ويأتى يوم لايبقى فيه أى لون من التفاهم بينهما ، وهنا ينفصلان إلى الأبد ، وينفرد بهما الأعداء إلى الأبد ، وينفرد بهما الأعداء كلاً على حدة ، وتتهجم عليهما ذئاب فرنسا وضباع إنجلترا ونمور إسبانيا ، ويتصدع البنيان العظيم ويهوى كأن لم يغن بالأمس ! » .

هكذا كان الرجل يقنع زملاءه حتى كسبهم إلى صفه ، وحتى استطاع أن يقنعهم بضرورة الاستمرار فى الحرب مع الجنوب كلما ضعفت نفوس بعضهم ومالت إلى التفاهم . وكان لنكولن إلى ذلك خبيراً بالرجال قديراً على فهمهم وتقدير كفاياتهم ، فرشح جرانت قائداً لجيش الشمال ، وقد تعب تعباً شديداً حتى أقنع زملاءه بالموافقة على هذا التعيين ، ولكن الأيام أثبتت زكانته وتوفيقه فى هذا الاختيار ، إذ وجد الناس فى جرانت أعظم قائد عسكرى أخرجته الولايات المتحدة حتى قبل الحرب الأخيرة .

أظهر لنكولن خلال هذه الحرب بطولة وثباتاً يضعانه فى الذروة بين الأبطال وقادة الإنسانية . لم يكد الأوار يشتد ولم تكد الهزائم تتوالى على الجنوب حتى أسرع رجاله يطلبون الصلح بشروط يسلمون فيها ببعض الأشياء ويحتفظون بالبعض الآخر ، فأبى لنكولن ذلك وأصر على التسليم التام ، حتى تم له النصر ، فملك الجنوب رعب عظيم ، وحسب أهله أن الرجل منزل بهم الويلات ، ولكنه أثار الدهشة والإعجاب حين عفا عن الجنوب ، لم ينزل به عقاباً ولم يصب عليه وبالاً ، بل كان أحنى عليه من أنصاره وأحب له من جنوده . ذلك أنه قطعة من أرض الوطن ، وأهله بضعة من فؤاده ، وقد كانوا ينافحون عما كانوا يحسبونه حقاً ، والآن قد فهموا وعادوا إلى الرشاد بعد أن حاقت بهم الويلات وألمت بهم المصائب ، ففيم عقابهم وفيم الانتقام منهم ؟ وما الخير فى انتقام تمليه سورة طائشة ولذة وضيعة ، ثم لا يعقبه بعد ذلك إلا ضغائن تتأصل فى النفوس ، ويتوارثها الأعقاب ولا تلبث أن تثور وتعرض حياة الوطن للخطر من جديد ؟ لا ثارات ولا عقوبات ، والعطف على الأخ الهزيم أولى ، وسلامة الوطن ووحدة بنيه خير من لذة شخصية أو انتقام رخيص .

لم تكد الحرب تضع أوزارها ـ وكم للحرب من أوزار ـ حتى أعلن عفواً عاماً وسلاماً شاملاً ، وأقبل بنفسه يضمد جراح أهل الجنوب ويصلح ما أفسده الكفاح من أرضه ومرافقه ، وحاول بعض أهل الشمال المعارضة فردّه إلى صوابه وألزمه بالتقدم للمعاونة بنفسه .

هناك أدرك الأمريكيون أى رجل هو لنكولن ، أى زعيم هو ، وأى مثل أعلى يكون !

فالتفوا حوله واستمعوا لما يقول ، فإذا به يحمل المجلس على أن يمنح الجنوب أربعمائة مليون من الدولارات ليعوّض بها ما خسر من أراضيه وبلاده ! .

ترى أكان يعفيه أعداؤه من المشنقة لو أن النصر كُتِب لهم ؟ لا ! وكان هو يعرف ذلك ، ولكن الخوف لم يملك نفسه ، وأثبت للتاريخ أنه أسمى من هذه المشاعر ، وبرهن على أنه أبو الأمريكيين جميعاً ، وأنه أبر الناس بهم .

أأنا فى حاجة إلى أن أخبر القارىء بعد ذلك أن الرجل انتخب للرئاسة مرة أخرى سنة ١٨٦٤ ؟ وهل أنا فى حاجة إلى التعقيب على هذه الحياة وتفصيل ما خفى من أسرار جمالها وشرح بدائع هذه النفس والإبانة عن فضلها ؟ أظن أنك رأيت فى القليل مما قصصت عليك كفاية تغنيك عن الإطالة ، وما يحتاج الحق الواضح إلى أكثر من مجرّد الإشارة ، وفى مجرد النظر ما يكفى عن طول الشرح ، وفى هذا الذكر العابر ما يوحى بالعبرة ويدل على العظمة . وإنما أنا بحاجة إلى أن أذكر للقارىء أن الله رضى عن لنكولن وأنه كتب له الشهادة ، فبينما هو جالس فى مقصورته فى المسرح مع زوجته ونفر من أصحابه إذ بالباب يفتح من ورائه فى رفق ، وإذا أنفاس مضطربة تتردد من خلفه ، ثم إذا رصاصة تبرق وتستقر فى ظهر الرجل فيسقط صريعاً .

أتحب أن أجمل لك فضل هذا الرجل على بلاده ؟ إذن فانظر صورة الولايات المتحدة ، هذه البلاد العظيمة التى تراها بين كندا والمكسيك ، هذا العالم العظيم الذى يفيض بالقوة والجد والنشاط ويقود مصائر العالم اليوم ؛ هذا الشعب القوى وهذه القارة الكاملة وهذه الحضارة الزاهرة ، وضع لنكولن أساسها من جديد بعد أن كادت تتداعى ، وبعد أن كادت تتفرّق كغيرها من الدولات ...

أوتوفون بسمارك

انظر إليه طويلا ، وتأمل قسماته مليا ، وأرسل البصر إليه مصعدا محدِّراً ، فأنت مفيد من ذلك شيئا كثيراً ، وأنت مدرك من التأمل كيف يبدو الإنسان والشيطان فى لمحة واحدة، ثم ألق بالك إلى حياته وأمعن الفكر فيها ، ولا تدع يوما من حياته إلا عرفته ، ولا تترك ناحية من نواحيه إلا ألممت بها إلماماً دقيقا ، فإنك مدرك من ذلك كيف يجعل الله الخير والشر فى نفس واحدة ، وكيف يرسل الله النعمة والنقمة عن كف واحدة ! .

ثم استمع إليه كثيراً ، وتفطن إلى ما يلقى إليك ، لا تفوتنك منه كلمة فى السياسة ، ولاحديث له فى الاجتماع ، فأنت مدرك من ذلك كيف يجتمع الخيال والواقع فى قلب واحد وفكر واحد .

ثم دع التأمل وانصرف عن القراءة ، وأغمض عينيك وحاول أن تتمثله فى خيالك ، وأن تلتمس موقعه من نفسك ونصيبه من إعجابك وتقديرك ، فأنت مدرك قدره ولكن فى غموض ، وأنت مستشعر الحب له والإجلال نحوه ولكن فى إبهام ، وكأن هناك ضبابا يكتنف الرجل ويقف بك عن أن تراه واضحاً جليا ، أو كأن هناك جانبا مستسرا من الرجل ـ لا تكتمل صورته بغيره ـ ينقصك ويستعصى عليك ، وينأى عن الفهم والإدراك .

ثم تناول خريطة ألمانيا وضعها إلى جانب الصورة وقلب البصر بين الاثنتين ، فإذا الغموض ينجلى ، وإذا المقارنة بين الرسمين تفضى بك إلى الرؤية النافذة شيئاً فشيئاً ، وإذا أنت تدرك أنه لا فرق بين صورة الرجل وخريطة ألمانيا القديمة ! .

فهذا الجسم القوى العظيم هو ألمانيا فى اتساعها طولا وعرضا ، وهذا الوجه البارز الملامح الواضح القسمات بهذه العيون الزرق وهذه الأهداب الطويلة ، وهذا الشارب

الضخم وهذه الهيئة الجليلة الرزينة ، ذلك كله ألمانيا ببحيراتها الزرق وأنهارها الكثيرة وغاباتها الحزينة وهيئتها الجليلة الرزينة ، وهذا الرأس الكبير ، هو الفكر الألمانى الذكى العميق .

بل إن صورة الرجل وصورة وطنه لتزدادان شبها كلما أمعنتَ فى تعمق نفس بسمارك وتعمق النفس الألمانية ، فهذا الإنجيل الصغير الذى يلازم الرجل يمثل حرصَ الألمان على الإنجيل وعنايتهم به ، فليس بين أمم الأرض أمة هى أقرأ للإنجيل وأفهم له وأشد عناية به من الألمان ، بل هم انتهت بهم هذه العناية إلى إيجاد إنجيل جديد ومسيحية أخرى ، هما إنجيل لوثر ويروتستنتية لوثر ، وهم مع هذا الدرس للإنجيل ليسوا أشد المسيحيين تديناً ، بل يكادون يكونون أبعدهم ضلالا ، لأن طول الدرس وكثرة التأمل تنتهى بالإنسان إلى الحيرة واضطراب الرأى ، وكذلك كان بسمارك يحمل الإنجيل فى ثيابه ، ويقرأ فيه إذا خلا إلى نفسه ، ثم تبدر منه بعد ذلك بدوات هى أبعد ما تكون عن الإنجيل وروح المسيحية ، فإذا ذهبت تناقشه فيما فعل أقنعك بأنه لم يصدر فيما فعل إلا عن إيمان خالص صاف ، ومضى يثبت لك ذلك بنص هنا وتأويل هناك .

وهكذا نستطيع أن نفهم هذا الرجل ، وبغير ذلك لن نهتدى فى فهمه إلى الكثير ، لأن هذا الرجل تمثل وطنه فى كيانه حتى صار هو وهذا الوطن شيئا واحدا ، فما من خالجة خالجت أفئدة الجرمان ـ منذ ظهروا على مسرح التاريخ قبل المسيح بنحو قرن ـ إلا تردد صداها فى نفسه وظهر أثرها فى أعماله . فقد احترب الرومان والجرمان قبل المسيحية واستمرت الخصومة مع الأعصر ، وأخذت فى كل عصر لونا جديداً ، ولقى الجرمان الهزيمة تلو الهزيمة من الرومان ومن ورثوا حضارة الرومان وتقاليد الرومان ، حتى إذا جاء بسمارك تجددت المعركة فى أيامه وقادها أحسن قيادة ، وجمع الألمان وأدرك لهم الثأر على ممثلى الحضارة اللاتينية ، وشفَى ما بأنفسهم من الحقد على جيرانهم فى الغرب من يوم قادهم شرلمان وأنزل بالجرمان من المذابح مالا ينساه التاريخ ، وأقام لهم مكانهم الجدير بهم بين الأمم .

فلنمض فى دراسته على هذا الأساس ، فسنرى أننا نوفق فى هذه الدراسة توفيقا

مشكوراً، وسنرى أنه من اليسير علينا أن نفهم لماذا خطا إلى النجاح قدما، ثم انحدر إلى السقوط بعد ذلك مسرعا ، ونحن نعلم أن هذه هى حال ألمانيا فى تاريخها القديم والحديث طفرات سريعة إلى ذروة المجد وسقطات سريعة إلى درك الانحلال . تلك سيرة الهوهنشتاوفن ، وقصة الهوهتسُلرن ، وتلك حياة بسمارك نفسه ، وتلك قصة الألمان جميعاً منذ فجر التاريخ إلى أن يأذن الله فيطوى الأرض ومن عليها .

* * *

نحن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فى عصر ثورات الشعوب وأحلام الأمم بالدساتير التى كانت تكتب لتنسى وتظهر لتختفى ، وتبدو للأحرار وكأنها « سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » .

كانت أوروبا تضطرب بأفكار الحرية والمساواة ، وكانت الشعوب ترنو إلى هذه الغايات الجميلة العسيرة التحقيق دون أن تهتدى إلى السبيل إليها : تلك إيطاليا برجالها وجماعاتها وشعبها المفرق القلق المضطرب ، وهذه فرنسا بأهلها الثائرين أبدا الساخطين أبدا ، وهذه البلقان بدو يلاتها الناشئة وشعوبها التى تستفيق من نوم طويل وتقبل رويدًا رويداً نحو لون غامض من اليقظة والوعى ، وهذه بلجيكا ناشئة وليدة ينوشها الفرنسيون تارة ويهددها الألمان تارة أخرى ، وإسبانيا بشعبها الساخط الذى لا يرضيه شىء ، ثم هو لا يريد أن يحرك ساكنا ليصلح أى شىء ، وهذه مصر تعدو نحو الحضارة والحرية عَدْوا ومن خلفها ثعالب الإنجليز والفرنسيين يجرونها إلى الوراء جراً ، وهكذا .. فى كل ناحية هاتف للدستور، وفى كل ركن بطل من أبطال الحرية . وهؤلاء هم أساطين العصر ورجاله يتشيعون للحرية ويفنون فيها فناء ، يكتبون فيها حينا ، ويدْعون إليها حيناً ، ويحاربون فى سبيلها حينا ثالثاً ، ويعلنون على المستبدين والطغاة حرباً لا هوادة فيها .

وقد وفق هؤلاء الأحرار إلى النصر فى بعض الميادين ، وفشلوا فى ميادين أخرى ، ولكنهم لم يفشلوا كما فشلوا فى ألمانيا .. إذ أن ملوك بروسيا كانوا ينفرون نفورا شديداً من البرلمان والدستور ، فهذا ملكها فردريك وليم يصارع الشعب صراعا عنيفاً ، ولكنه ينتهى إلى شىء يقرب من التسليم ، وها هو ينظر نتيجة انتخابات ١٨٦١ فى ألم وحسرة أن كانت الأغلبية

مع حزب التقدم ، الذى كان ينادى بضرورة قيـام حياة دستورية صحيحة فى البلاد ..

أيقن فردريك وليم أن لا محيص له عن التسليم للشعب بهذا الحق ، فنادى وزيره ألبرخت فون رون وحدثه فى الأمر وشكا إليه مخاوفه ، وأكد له أنه يرى طاعة الشعب والنزول على رأيه لونا من الهوان غير خليق بالملوك ، فأشار عليه وزيره بالالتجاء إلى السيف ، ولكن الملك خشى مغبة ذلك ، ولم يجرؤ عليه ، لأنه كان رغم هذا العناد محبا للشعب حانياً عليه وكان يرجو أن يجد مخرجا غير هذا الذى أشار به الوزير . واتجه ذهنه إلى البحث عن رجل آخر غير فون رون هذا فيه سياسة ولين ، وفيه حزم وعنده بعد نظر ، فخطر بباله أوتو فون بسمارك سليل بيت شريف يملك ناحية لاونبرج من قديم الزمان ، وكان إذ ذاك وزير بروسيا فى باريس . وسأل ألبرخت فون رون عنه فأعجب الوزير بحكمة مسلكه وفطنته ، وأكد له أن بسمارك هو الوحيد الذى يستطيع أن يخرج بالملك والمملكة من هذا الحرج ، فلم يكذِّب الملك أن أمر باستدعائه على عجل ، فخف الرجل إلى برلين مسرعا ، فما كان يستطيع التأخر وهذه برقية يقول له المستشار فيها إن فى التأخر خطراً .

لم يكـد بسمارك يصل حتى سلـم له الملك زمام الأمور وعهد إليه بالوزارة خلفا لهوهنلوه، وكان الموقف يتطلب الإيمان والحزم والكياسة : الإيمان بما تريد والحزم والكياسة فى تنفيذه . وكان بسمارك يؤمن بالاستبداد بالأمر وترك البرلمانات ، ويعتقد أن مناقشاتها عبث لا طائل تحته ، بل كان يرى أن الانفراد بالأمر لون من الوطنية ، لأنه كان يشعر أن التشيع للديمقراطية تشيع لفرنسا عدوة بروسيا وتقليد لها ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن طاعة الملك من طاعة الله ، ومن هنا كان شديد العطف على رجال الدين لأنهم كانوا يلحون على الناس فى امتداح الملوك وذوى التيجان . ثم إنه كان إلى ذلك سليل أشراف أثرياء « خدموا البلاد أكثر من الهوهنتسلرن ، كما قال هو نفسه لفرديك وليم ذات مرة ، فكان ميله للاستبداد عقيدة لا مجرد حيلة وسياسة ـ كما كان الحال مع مترنخ وأشباهه من ثعالب الساسة ـ وإلى هذا الإيمان العميق يرجع السبب فيما شاب استبداده من عدل وتحرٍّ لصالح الوطن وقصد لخير الناس .

وكانت ألمانيا فى ذلك الحين مضطَرباً متنافراً تسوده الفوضى ويشيع فيه الفساد ، ولم

يكن أحد يتصور أن تنضم ولاياتها وإماراتها بعضها إلى بعض لتتألف منها كلها دولة واحدة . لأنها ـ أى الولايات ـ قد نشأت على الاستقلال، فلم تعد ترضى بالدخول فى طاعة أحد ، ونمت كل منها وتطورت على حدة ، وكانت تعتبر نفسها دولا قائمة ، وكان الأمراء متمسكين بحقوقهم وألقابهم تمسكا شديداً بالغاً ، ولا سبيل والحالة هذه إلى إرغامهم على الاتحاد تحت لواء ملك واحد . ثم إن معظمهم كان لا يرى لأحد من ملوك بافَريا أو سكسونيا أو بروسيا أو أباطرة النمسا فضلا عليهم ولا امتيازاً ، إنما هم جميعاً ملوك سواسية كبرت دولهم أم صغرت ، امتد لهم الملك أو ضاق بهم السلطان .

ولكن أوتوفون بسمارك كان إنساناً غريباً ، كان يتطلع بعينه عشرات السنين إلى الأمام . وكان يرى أن السياسة العالمية سائرة نحو التكتل ، فإن كل جنس ينبغى أن يتحد ليدرأ عن نفسه عدوان الجنس الآخر ، وكان يرى أن أمر الجرمان ضائع لا محالة إذا أصر أمراؤهم على التفرق ، ومن حولهم الفرنسيون يسيرون فى طريق التوحد التام ، والصقالبة مجموعون إلى لواء القيصر فى بتروغراد . وكان يرى بعين البصيرة أن الصراع واقع لاشك بين هذه الكتل الجنسية العنصرية فى المستقبل القريب أو البعيد ، وكان يفكر جاداً فى تحقيق هذا الحلم الذى يهزأ منه الناس . وهذا جانب من بسمارك أحبُّ ألا يخفى علينا ولانعبر به دون تعليق، فإن السائد الشائع عن هذا الرجل أنه كان واقعياً ولا يذهب مع الخيال ولايؤمن بالأحلام ، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه . فقد كانت له أحلامه وتحليقاته مع المنى ، ولكنه كان يعرف كيف يجد السبيل لتحقيق الأحلام ، وكان قديرا على تهذيب أجنحة المنى حتى لا تضِله وتطير به كلّ مطار .

والحق أن بسمارك كان ذا خيال بعيد ، وعاطفة مشبوبة ، وفكر بعيد المطامح ، وكان يصدر فى سياسته الدقيقة وخططه المدبرة عن تصور واسع وعاطفة قوية ، فجعلت نفسه تدفعه إلى تحقيق أمانيه ، فأصر عليها ومضى يخلق المناسبات السانحة لتحقيقها ، وجعَل يمهد لذلك فى أناة وتمهل ، حتى إذا سنحت له الفرصة ظنها الناس فرصة عارضة وهى وليدة التدبير الطويل ، وكان إذا تهيأت له الظروف عمل فى سرعة متناهية فيفوز بما يريد فى ضربة واحدة أو فى ضربتين ، ولكنها كانت ضربات « المعلم » كما يقولون ، وراء كل منها

من الخبرة والتفكير والتجربة والحساب مالا يدركه المؤرخ لطول أمده واسترسال مداه .

ثم إن سياسته كانت لونا من الفن ، فلم يكن يسوس الأيام والحوادث على أسلوب واحد مل ، من الشدة المتصلة ، أو الخداع المتوالى ، أو الكذب المرسوم ، أو خداع الجماهير الذى لا يلجأ إليه إلا كل سياسى طارىء على التصدى لخدمة الشعوب والسياسات . بل كان يمازج بين هذه جميعاً فى ظرف ولباقة يدعوان إلى الإعجاب ، حتى لقد كان من العسير توقع أعماله وتصرفاته ، وكانت لهذا أشبه بالأعمال الفنية الجليلة . وكانت تهديه إلى ذلك كله فطرته السليمة ووطنيته المتوفزة ، ويصورها له خياله الصناع الصافى ، ويعينه على بلوغها إيمانه بضرورتها وثقته فى قوته وقوة بلاده ، وتدنيها منه سرعة إلى الحركة وقصد فى العمل ، فهو من غير شك أقرب أهل السياسة إلى أهل الفن ، وذلك هو موضع الجمال فى سياساته وأساليبه .

ثم إنه كان إلى ذلك كله حريصاً ذكيا ، فلم يكن يجرى مع الخيال إلى أشواطه البعيدة التى لا تنتهى ، بل كان يقف به عند حده المعقول ، ثم يصوغه فى صورة ثابتة معينة ثم يقصد إلى تحقيقها . فلم يكن كغاريبالدى مثلا ، ولا كأحد من سياسىّ الشرق فى العصر الحاضر : يتخيل فيسرف فى الخيال ، ويتصور فيغالى فى التصور ، ثم يفيق أخيراً على الخيبة القاسية حين يرى الهوة الواسعة بين الخيال والواقع ..

وكان واسع الحيلة : يلتمس كل سبيل ، ويركب كل مركب ، ويمضى فى كل طريق ، ويميل من جانب لجانب لا يكاد يتأخر عن شىء يشعر أنه يؤدى به إلى ما يريد .. يصالح الروسيا فى يومه ليضمن حيادها فى حربه مع النمسا ، ثم يصبح من غده ـ بعد أن يتم له النصر على النمسا ـ فينقلب على الروسيا ، ويأخذ يناوشها من جديد ، وهكذا ..

ذلك أنه كان لا يشغل باله بأكثر من شىء واحد ، يوجه إليه كل جهده ويلتمس كل سبيل لتحقيقه ، لاتكاد تفوته صغيرة أو كبيرة مما يلزم لإنجازه إلا احتراس لها . وكان منظماً فى كل شىء ، وكان يدخر كل شىء لحينه ، ويشترط النظام فى كل سبيل يطرقها . يدخر الصداقات ، والعداوات ، والرسائل ، والأسرار ، والأقوات ، والذخائر ، والقوات ليستعمل كلا منها فى حينه ..

فإذا حانت ساعة العمل رأيت خطواته فى نظام وترتيب محكم ، ربما جعلك إحكامه تشك فى أنه من تدبير رجل واحد ! .

وقد فطن إلى مواهبه دزرائيلى السياسى الإنجليزى الأشهر ، إذْ استمع إليه يتحدث ـ قبل أن يصبح مستشارا للدولة ـ فأنصت إليه طويلا ، ثم قال لمن حوله بعد أن خرج : «احذروا هذا الرجل ، إنه يعنى ما يقول ! » . وكان دزرائيلى هو الآخر داهية يلاحق بسمارك فى مضامير السياسة ومجال المنافسات ، وقالته تلك تكشف لنا عن ناحية من نواحى بسمارك ، فقد كان على خياله البعيد لا يتحدث إلا بالممكن منه ، وكان على عاطفته المشبوبة لا يتحدث إلا قليلا ، فلم يتورط فى عمل ولم يخرج به لسانه عن القول المأمون مرة واحدة ، وتلك مرتبة فى ضبط النفس لم يؤتها فى التاريخ إلا القليل ، وربما رجع إلى ذلك الفضل فى أنه استطاع أن يخلق من فوضى بلده وحدة منسقة .

ثم يزعم الناس بعد ذلك أن كل حجر وضعه بسمارك هدمه الزمان ! وأن كل غاية رمى إليها انتهت بالشعب الألمانى إلى كارثة قاصمة ، وأن هذا الشعب كان أسعد حالا وأكثر خيرا قبل أن يتحد وتقوم له هذه الوحدة التى ملأته غروراً وخرجت به عن حدود العمل السلمى الحضارى الذى كان مطمئنا إليه قبل أن تظهر فى الوجود ألمانيا الكبرى هذه . وذلك صحيح من بعض وجوهه ، وكلما تقدمت الأيام بنا تبينا أن تمام الوحدة الألمانية كانت إيذانا بشقاء متصل لهذا الشعب .

ولكن بسمارك لا يمكن أن يعد مسئولا عن الأخطاء التى وقع فيها مواطنوه من بعده ، لأن الرجل كان يريد الخير الخالص لهذا الشعب الألمانى الكبير ، كان يشعر فى نفسه بنقائض شعبه ، وقد اجتهد فى بيانها وتنبيه الألمانى لها حتى لا يدركهم الفشل فى حياتهم السياسية . وإن من يقرأ مذكراته ويقارنها بمذكرات الأمير فون بيلوف خليفته فى مستشارية الرايخ ، ليتبين أن بسمارك كان يعرف مواضع الخطر التى تهدد الألمان ، وأنه لن يكف لحظة عن بيانها والتنبيه عليها .

لقد نصحهم بمحاسنة الروس والعيش معهم فى سلام ، وأكد لهم أن سلاماً فيه شىء من الخسارة مع الروس خير من حرب فيها شىء من الكسب ، لأن الروس أقوياء ، ولديهم

من موارد القوة ما يعادل ما لدى الألمان ، ثم إنهم ـ أى الروس ـ لن يتأخروا عن التحالف مع الإنجليز والفرنسيين ، وبهذا تقع ألمانيا بين المطرقة والسندان ! إلى هذا الخطر نبه الرجل موطنيه ، فتصور أنهم وقعوا فيه فى حربين متتاليتين خرجوا منهما بهزيمتين ساحقتين ! ولو أنهم ساروا على هدى بسمارك لما أصابهم شر .

وهذه حقيقة تعلى قيمة الرجل وتكشف لنا عن ناحية من نواحى عبقريته ، فإننا لنعرف أن الألمان شعب الخيال ، وأنهم لا ينجحون فى أحيان كثيرة لأنهم يطلبون مطالب وعرة لاتتحقق إلا بإدارة عبقرية وسياسة ذكية قادرة ، وأنهم لو تركوا لأنفسهم لشطح بهم الخيال واسترسلوا معه حتى يطول بهم الطريق وتكل أجسادهم من اضطراد الجهد ، فلا تلبث سفينهم أن تتحطم ..

هكذا حدث للألمان أيام الأباطرة الأُتُّونيين خلال القرن العاشر الميلادى ، حينما خدعهم اجتماع القوة فى أنفسهم فأرادوا كسر شوكة البابوية وسيادة ألمانيا وإيطاليا ، أضلهم هذا الحماس وأنساهم ما كان للبابوية إذ ذاك من سلطان قاهر على النفوس ، ولم يتنبهوا إلى أن العالم المسيحى لا يرضى عن هزيمة البابوية وضياع سلطانها من الوجود ، فلم يكادوا يبدأون الحرب معها حتى وقف الناس إلى جانبها ، فتشجعت وأخذت تحاربهم بسلاح الدين حتى تخلى عنهم الناس ولحقتهم الهزيمة والمذلة .

وتلك قصة ألمانيا أيام فردريك الأكبر وحرو به التى لا تنتهى ، ولو أن فردريك اكتفى بنصر واحد أو بنصرين لسلم ولسلمت ألمانيا معه ، ولكن النصر أغراه وأوسع له فى مجال المنى ، فمضى من ميدان لميدان حتى كلت قواه وتألبت الدنيا عليه ، وانتهى أمره بهزيمة قاصمة، وقضى ما بقى له من الأيام فى ظلال الخيبة والندم .

وهذا حالها أيام الحرب العظمى مما يعرفه الناس ، وتلك مصيبتها على يد هتلر ، فإن الذى لا شك فيه أن هذا الرجل بدأ بدءاً طيبا ، واستقبله العالم استقبالا حسنا ، ولكن التوفيق أضل سبيله ، وتوفزَ القوة فى شعبه خدعه عن حقيقة الحال فيما حوله ، فاستهان بالإنجليز واستهان بالروس بل بالدنيا كلها ، ومضى يضرب شمالا ويمينا ، وخرج عن

الطريق المعقول الذى بدأ به ، فلم يكن له مفر والحالة هذه من هزيمة ما نظن أن شعبا فى التاريخ منى بمثلها .

اذكر ذلك كله ثم انظر كيف استطاع بسمارك أن يوجه هذا الشعب أحسن توجيه ، وأن يجد من خياله ومن نشاطه وأن يحصره فى عالم الواقع ، فسما به فى عشر سنين إلى المكان الأرفع بين دول العالمين . فلا لوم على بسمارك إذن أن كوّن هذه الوحدة وأقامها كالطود فى قلب أوربا ، وإنما اللوم على الطبيعة الألمانية المضطربة التى تفسد عليها الروح العسكرية - كل شىء ، ويدفعها اعتدادها بنفسها إلى أحرج المواقف وأشد الأزمات استحكاما . وإذا كان بسمارك مسئولا عن سقوط ألمانيا فى الحرب العظمى ، لأنه - كما يزعم بعض المؤرخين - قد وضع بذور هذه الحرب خلال حياته ، فمن المسئول عن اضمحلالها فى أواخر أيام الأتونيين وعن انحطاطها بعد فردريك الأكبر ؟ .

الواقع أن الإنسان كلما تأمل تاريخ ألمانيا استبان أن التاريخ لم يرزق هذه الدولة إلا رجلا واحدا فهمها وفهم أوربا ، واستطاع قيادتها بنجاح ، ذلك هو بسمارك . ولو أنه استطاع أن يبقى فى مكانه إلى آخر حياته لوقى ألمانيا والعالم شرور الحرب العالمية الأولى ، لأنها فى الواقع نتيجة سياسة ولهلم الثانى وحدها ، وقد حاول بسمارك أن يوجه هذا القيصر كما وجه سلفه ، فأبى وسار فى طريق خاطىء ، وأصر على عداوة الإنجليز وإخافة الروس .

وكان بسمارك يرى بعينيه شرر الحرب العالمية وهو فى منفاه يقضى أخريات أيامه ، ولكن ما الحيلة والأقدار تأبى إلا أن تسير الشعوب فى الطريق التى خطها لها علام الغيوب ؟ .

* * *

وبعدُ ، هل أنت فى حاجة إلى أن أقص عليك حياته وأعماله ؟ وأن أشرح لك سياساته قبل مواقع سادوا وسيدان ؟ وأن أصف لك كيف وفق إلى تحقيق الوحدة الألمانية رغم العواصف والمصاعب التى لا تنتهى ؟ أظن أن هذا مطلب عسير لا نوفق إليه فى هذا الحيز الضيق ، وبحسبنا أن نراه فى سن الثمانين بعيداً عن السياسة والعالم ، وقد اختلف مع القيصر فتخلى عن عمله وتركه يفعل ما يشاء ، ثم انكفأ إلى أراضيه فى بوميرانيا حيث استطاع أن يخلو إلى نفسه بعد هذه الحياة الحافلة المضطربة ، وهنالك نلقاه وحيداً ...

ها هو ذا جالس على مقعده الخشبى فى الغابة المحيطة بداره ، إنه لا يفكر ولا يُطْرِق شأن الغاضب اليائس الحاقد ، وإنما يقرأ فى الكتاب المقدس . لقد عجزت السنون والسياسة عن أن تفسد عليه عقيدته فى الله وفى المسيحية ، إنه منصرف إلى القراءة انصرافا لا يحس معه شيئاً مما حوله ، ثم ها هو يكتب على هامش الكتاب كلمات قليلة ثم يعود للقراءة ، ثم يضع الكتاب ، وينظر إلى الكلب الأسود الضخم الرابض تحت قدميه ويداعبه مترفقا ، ثم ينهض ويمضى إلى الدار هادئاً متئداً ..

ترى ماذا كتب فى هذا الكتاب ؟

لقد جعل بين كل ورقتين من ورق الكتاب ورقة بيضاء ، وعلى هذه الصفحة سجل ملاحظاته وخططه ، فكأنما كان الرجل يرسم السياسة وهو يقرأ كلام الرسل ، وكأنما تلهمه كليات الرسل خطط السياسة وحكمة الحياة . ومن الواضح المعروف أن سياسته لم تكن كلها فى صفاء حكمة الرسل ، وأنها اختلفت عنها فى كثير ، إذ لم يكن له بد وقد تعرض للسياسة من أن يحيد عن قواعد الدين والأخلاق .. ومن غريب الأمر أن الكثير من خطوط هذه السياسة سجله الرجل فى الكتاب المقدس نفسه ! وذلك من غرائب النفس الإنسانية، وذلك ما أردت قوله حين قلت لك فى مطالع حديثى : إن الله قد جمع فى هذا الرجل الملاك والشيطان .

ثم تعال نتتبعه لنرى ما عساه أن يصنع إذا خلا إلى نفسه فى الدار ..

ها هو ذا فى حجرته ، إنه يركع لله ويمسك الصليب ، وتنحدر من عينيه الدموع ، ثم يصلى لله ويدعو لألمانيا ! .

الملاك فى صورة إنسان

فلورانس نايتنجيل

قال : إلى الأمام يا فرسان الطليعة !

اهجموا على المدافع ...

فى وادى المنون ...

وكرت هذه المئات الست على ظهور الجياد ،

ليس شأنهم إلا أن يجاهدوا وأن يموتوا .

لقد ركبوا إلى وادى المنون ...

هؤلاء الستمائة !

كيف يخمد ذكرهم على كر الزمان ،

أو ذكر الهجوم الباسل الذى قاموا به ،

واستحقوا به إعجاب العالمين ؟

مَجّدوا الهجوم الذى قاموا به ..

مَجّدوا فرسان الطليعة !

هذه المئات الست من النبلاء !

ولكن الناس لم يمجدوا فرسان الطليعة هؤلاء ، إلا بعد أن أجهزت عليهم الجروح والحميات والأمراض وأكلهم التراب . وظلت أبيات الشاعر اللورد تنيسون هذه كلاما

بديعاً يترنم الناس به فى بلاد الإنجليز وهم غارقون فى كراسى الجلد الوثير تحيط بهم هالات من الدخان ، أما الأبطال فكانوا يتساقطون تحت نيران المدافع وتدوسهم سنابك الخيل ، وتمضى الساعات وهم فى التراب يتلوون من آلام الجراح ، ثم تقبل عربات خشنة تجرها البغال ، فيرفعهم الرجال ويضعونهم عليها كأنهم بعض المتاع ، وتنطلق العربات تضطرب بهم وتخلع عظامهم وهى تسير فى الطرق الوعرة الصخرية إلى المعسكر على مقربة من بَلاكْلاَفا . وهناك تضمد جراحهم بخرق بالية قذرة ، ثم يُرسلون مرة أخرى إلى ميناء صغيرة يحملون منها على ظهور السفن إلى أشقودرة على شاطىء البحر الأسود المقابل . وإليك وصف هذه الرحلة البحرية الشاقة التى كان « الأبطال » يقومون بها كما يصفها ليتون ستريتشى كاتب التراجم الإنجليزى المعروف :

« كانت السفن تقطع هذه الرحلة فى أربعة أيام ونصف فى الأوقات العادية ، ولكنها كانت تستغرق فى زمان حرب القرم وأهوالها غير العادية بين أسبوعين وثلاثة . وكانت تسمى لهذا « الرحلة الوسطى » أى رحلة ما بين الحياة والموت ، وكانت هذه التسمية حقا ، إذ كان الجرحى والمرضى يكدسون على أسطح السفن تكديسا ، وكان بينهم رجال قطعت أرجلهم ، ورجال بين أنياب الحمى ، وآخرون أهرأ الصقيع أرجلهم أو أيديهم فتحجرت وأخذت تموت . وكان الكثيرون منهم يقاسون ويلات الدوسنطاريا أو الكوليرا ، وكانوا يستلقون على الخشب دون أسرة ومن غير أغطية ، بل من غير ملابس فى بعض الأحيان ، فكان يموت منهم أثناء هذه الرحلة أربعة وعشرون من كل ألف ، وكانت جثثهم تلقى فى الماء . وربما كان هؤلاء أسعد حظا من أولئك الذين يصلون إلى أشقودرة ، فقد كان النزول إلى البر عنيفا مؤلما . فإذا كان الجو مضطربا بقى الرجال فى السفن أياما أخرى يعانون آلام المرض وسكرات الموت ، فإذا أُنزلوا إلى البر بعد ذلك كان لا بد أن يحملوا بضعة أميال حتى يصلوا إلى أقرب مستشفى ... » .

وأى مستشفى ! إليك وصفها كما ننقله من كتابات المس فلورانس نايتنجيل : « لم تكن لتوجد فى المستشفى فى أشقودرة ملابس نظيفة ، ولم يكن على المرضى إلا خرق ملطخة بالدماء . كان المستشفى فى أول أمره ثكنة للجنود ، تحتها أقبية تفيض بالأقذار ، وكانت

الريح تمر فى هذه الأقبية ثم تندفع إلى الغرف التى يرقد فيها الرجال . وكانت الجراح والأمراض والزحام وسوء التهوية تزيد الجو تسمما ، وكانت الحجر ملأى بالفيران والحشرات ، وكانت الأرض سيئة ، وكان كل شىء ناقصاً أو غير موجود : الأثاث ، وأبسط الآنية اللازمة للتنظيف ، وكل ما يليق بالكرامة الإنسانية أو يوفر الراحة ... » .

ووصف ليتون ستريتشى هذا المستشفى بقوله : « وماذا كان المرضى والجرحى يجدون فى هذه المستشفيات ؟ كانت الحاجة والإهمال والفوضى والشقاء ـ فى كل شكل وفى كل درجة ـ تملأ الممرات التى لا تنتهى ، وكل أجنحة الثكنة الواسعة التى حُوِّلت على عجل وبدون إعداد إلى مأوى رئيسى لضحايا الحرب . وكانت الرائحة كريهة إلى درجة لا توصف . لم تكن هناك أسِرة كافية ، وكانت أغطية الأسرة من الخيش ، وكانت خشونتها قاسية إلى درجة أن الجرحى كانوا ينفرون منها ، وكانوا يرجون أن يُتركوا فى ملابسهم . ولم يكن هناك شىء من الأثاث اللازم لغرف النوم ، لا مناشف ولا صابون ولا غرف نوم أو أدوات لتنظيف الأرض والحجر ، بل لم تكن هناك أطباق . وكان الضوء ينبعث ضئيلا . وكان الوقود دائما قليلا ، ولم يكن المطبخ معداً ولا كافيا ، وكانت المغسلة شيئاً مضحكا ، أما الأدوات الطبية فلم تكن أحسن ولا أوفر ، لم يكن هناك شىء من الأدوية ولا الأدوات التى تلزم للعلاج!» . هكذا كان مصير الأبطال الذين تغنى بمجدهم الشاعر المتخيل ، الذى لم يكن همه إلا إذ كاء حماسة الحرب فى قلوب الشباب بمثل هذا الشعر لكى يذهبوا إلى هذا الجحيم ! ولم يكن حال جنود حرب القرم أشقى من غيرهم من الجند فى كل ميدان ، بل ربما كان هؤلاء أحسنَ حالا ، فقد جرت عادة الناس فى ذلك الزمان أن يذهب الجندى إلى الميدان فلا تهيىء له حكومته إلا وسيلة الحرب : السلاح والبارود . فإذا سقط أو جُرح كان مصيره بين يدى الأقدار وحدها ، وقد يكون جُرحه بسيطا أو قد يصاب بمرض عارض ، فلا يزال الإهمال يزيد علته حتى يقضى عليه . وقد حكوا أن نابليون مثلا كان يخَلف وراء جيوشه آلاف الجرحى لا يكاد يحفل بهم . وأن مصير معظم هؤلاء كان الموت الرهيب بين الغبراء والسماء ، إلا إذا ساق لهم القدر لصا يجهز على الجرحى منهم ليسرق ما معهم ، أو وحشا ضاريا من وحوش الفلاة يريحهم من آلامهم .

لنجدة هؤلاء خفت المِسْ فلورانس نايتنجيل .

* * *

كانت حتى الثلاثين من عمرها تحيا حياة كل فتاة إنجليزية ذات جمال وحسب ومال ، وكان أبوها المستر وليم شُور نايتنجيل سيداً غنيا يملك أرضا واسعة عند إمْبلى فى هامشير ، وكان سعيداً كل السعادة أن يجد ابنته فلورانس أجمل فتيات الأسرة ، وكان لا يشك فى أنها ستصبح أكثر الفتيات حظا ، وأن المقادير لا تلبث أن تيسر لها الرجل الكريم ذا الحسب والمال ، وكانت ابنته مرحة طروبا يتحدث بجمالها الفتيان .

ولكن فتاته فلورانس خيبت رجاءه .. لقد أقبلت عليه ذات يوم ، وأعلنت إليه أنها ستهب حياتها لخدمة المرضى ! وعجب الرجل كيف تفكر فتاة زاهرة مثلها فى احتراف تلك المهنة « المهينة » وكان احتراف التمريض فى ذلك الحين (١٨٥٠) عاراً أو ما يشبه العار ، وكانت الفتيات المسكينات أو اللاتى أضلهن الشيطان إذا قسا عليهن الزمان ووقعن تحت طائلة القانون يخيرن بين السجن أو خدمة المرضى ، وكن يرغمن إرغاما على الخدمة فى المستشفيات ، فكن لا يفتأن يحاولن الفرار أو سرقة المرضى ، وربما سأل الطبيب عن إحداهن فوجدها تترنح من فرط الشراب فى أحد أركان المستشفى . لهذا كان المجتمع الإنجليزى لا ينظر إلى الممرضات نظرة إكرام ، وكان تفكير فتاة مثل فلورانس نايتنجيل فى احتراف التمريض تفكيراً شاذاً جريئاً ، يحط من قدر الأسرة الكريمة ويهبط بسمعتها فى أنظار الناس .

ولكن الألمان كانوا ينظرون إلى التمريض نظرة أخرى ، كانوا يعتبرونه خدمة دينية جليلة لا تصبر على مكارهها غير النفس الكريمة المتدينة ، وقد افتتحوا له المعاهد وأخذوا يدربون الفتيات عليه بما عرف عنهم من دقة وتنظيم لكل شىء ، فاتفق أن وقع فى يد المس فلورانس نايتنجيل كتاب طريف هو التقرير السنوى لمعهد فُلِيدْ نَر أكبر معاهد التمريض الألمانية ، فمضت تقرؤه فى اهتمام ظاهر ، وألقت بعيدا ذلك الكتاب التافه الذى أهداها أبوها إياه لتقرأ فيه لكى تتهذب بتعاليمه وتعرف ما ينبغى أن تفعله وما لا ينبغى أن تفعله حتى تصبح فتاة رفيعة خليقة بمجتمع الأغنياء والسروات . وعجب أبوها لهذا وأنكره

عليها، ومضى يسألها فيه فقالت : « سئمت يا أبى هذه الحياة التافهة ! سئمت أحاديثكم الأرستقراطية عن اللورد ملبورن ، وكيف أن النوم يغلبه فتنحنى رأسه وينام والملك يتحدث سئمت الحديث عن الأمير ألبرت ومهارته في البلياردو ، ومللت التمدح بجمال عقد هذه السيدة أو تلك ، سئمت هذا الكذب وكرهت منكم الخداع والسخر من الناس فى أقفيتهم، سئمت هذا كله وأريد لنفسى شيئا خيراً منه وأكرم !» .

ولم يستطع أحد أن يردها عما أرادت . لقد أجمعت رأيها وأخذت الأهبة للعمل الشاق الذى قررت أن تكرس له حياتها ، واستطاعت آخر الأمر أن تذهب إلى ألمانيا لتدرس فن التمريض على الهر فْلِيدْنَر مدير المعهد . فلم تكد تقدم نفسها إلى الرجل حتى أنكر هيئتها الأرستقراطية وأكد لها أنها لن تصبر على مشاق التمريض ومتاعبه بسبب مزاجها الرقيق وكيانها المترف ، فجعلت ترجوه أن يختبرها وأن يمضى معها فى الدرس ليرى ما يكون من أمرها ، فلم يكد الرجل يفعل حتى استبان أنها أقدرُ من رأى على خدمة المرضى وما تفرضه على القائمين بها من أعباء .

فلما فرغت من درسها هذا وعادت إلى إنجلترا حيث عينت مديرة لمصحة خاصة بالنساء فى شارع هَارْلِي فى لندن . وكان القائمون بالأمر فى المصحة أفرادَ طائفة بروتستنتية متعصبة تأبى أن تمرض كاثوليكيا أو يهوديا ، ويزاولون العمل فى تساهل وتهاون ، يحسبون أنهم يتفضلون على المرضى إذا ناولوا أحدهم كوبة ماء ، فلم تكد هذه الإنسانة الجليلة تدخل المصحة حتى غيرت الأمور رأسا على عقب .. تناولت جَرْدل الماء بيد والممسحة باليد الأخرى ، ومضت تمسح الأرض كأنها خادم مأجورة ! فلم تكد المرؤوسات يرينها حتى خجلن من أنفسهن ومضين يتسابقن إلى التفانى فى العمل ، ومضت هى تضرب لهن المثل فى الصبر والاحتمال : تضمد الجروح وتظل ساعات إلى جانب مريضة يائسة تشد عزمها وتقوى نفسها ، وتنهض فى غلس الليل ولما تنم إلا قليلا لتقدم الماء إلى مريضة أجهدها العطش ونامت عنها ممرضتها .

وعرفت فلورانس كيف تكون قاسية حينما تكون القسوة هى المخرج الوحيد ، كانت تلطم المقصر على وجهه وتحرم المهمل من مرتبه وترغم العاصى على احترام النظام . وأرادت

هيئة الإدارة ألا تقبل يهوديا أو كاثوليكيا فصاحت : « أيها القوم ... إننا بشر والبشر إخوة وسواسية ! » ، وما زالت تغالب هذه النفوس المريضة حتى علمتها الإنسانية وأرغمتها على قبول المرضى دون تفريق ، وكتبت إلى صاحبة لها تشرح لها ذلك كله . وتقول فى آخر الخطاب : « اللهم احفظنا من التعصب ومن الخداع السيىء ! » .

وكان رؤساء المستشفى يسخرون منها ويعجبون من إصرارها على التضحية وشغفها بالعمل . كانت تقضى الساعات إلى جانب سيدة فقدت بصرها وفشل الأطباء فى إعادته إليها ، وكانت هذه السيدة مشرفة على الجنون ، وأشار السادة الأطباء بنقلها إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ولكن فلورانس أبت ، وأقامت إلى جانب السيدة تهدىء نفسها وتحسن عزاءها وتسرى عنها حتى اطمأنت وثاب إليها الرشد وعاد إلى قلبها البشر . وكانت تمريوما فى حجرة فإذا قطعة من الحديد الساخن تكاد تنقض على طفل مريض ، فأسرعت واستقبلتها فى يديها غير مبالية بما يصيبها فى سبيل الطفل العليل . ولقد زارتها الروائية المعروفة المسز جاَسْكِل ، فلم تملك إعجابها ومضت تقول : « يبدو أن الله يقودها فى كل خطوة من خطواتها ، كما كان يقود جان دارك » .

ثم أقبلت أنباء حرب القرم تترى ، وأخذت الصحف تنشر التفاصيل عما يرزح الجنود تحته من البلاء . وأخذت العيون تتطلع إلى إنسان ملأ الله قلبه حباً للناس وعطفا عليهم ، وكتب الكاردينال ما ننج فى التَّايْمزْ يؤكد أن الحالة تحتاج إلى إنسان شجاع كريم مؤمن ، ثم تساءل : لماذا لا تكرس فلورانس نايتنجيل نفسها لهذا العمل ؟ .

وكانت فلورانس تنتظر مثل هذه الإشارة بصبر نافد ، فقد كانت نفسها تتفرق حسرات لمصاب هؤلاء الجنود المساكين ، وكانت تود لو أتيحت لها فرصة العمل على تخفيف ويلاتها وآلامهم ، ولكنها كانت تخشى رجال الجيش . وهل كان إنسان يجرؤ على أن يتقدم إلى الضباط العظام بمثل هذا الاقتراح ؟ أنْ تذهب آنسة إنجليزية إلى ميدان الحرب المروعة وتعيش بين الجند وتقوم بالخدمة والحراسة فى مستشفياتهم ! هل تأذن وزارة الحربية ذات التقاليد القديمة للمس نايتنجيل بأن تتدخل فى شئون الجيش فتصدر الأوامر وتحشر أنفها فى أمور لا تخص إلا رجال العسكرية وحدهم ؟ .

ولكن إشارة الكردينال شجعتها ، فكتبت إلى السير سيدنى هِرْبَرت وكيل وزارة الحربية ـ وكان صديقاً لأسرتها ـ خطابا رقيقاً تعرض فيه خدماتها ، وتؤكد له أنها وصاحباتها اللاتى سيذهبن معها لتمريض الجند سيقمن بنفقات أنفسهن ، وأن الدولة لن تتكلف لهن شيئاً ثم قالت وكأنها ترجو خيرا لنفسها وحدها : « هل تتفضل أنت ـ أو أى شخص آخر ـ فتحدث وزارة الحربية عن مؤهلاتى ؟ . أرجو أن تقول لهم : هذه ليست سيدة أرستقراطية بل هى ممرضة حقيقية » .وضحك رجال الوزارة ، وقال بعضهم وهو يفتل الشارب الضخم وينفث الدخان فى الهواء : « دعوا هذه السيدة الصغيرة تمثل دور الممرضة ، ستنتهى المسألة كلها إلى فشل من غير شك ، دعوها تمضى لسبيلها » .

وقد مضت ..

حملتها السفينة فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٤ إلى شبه جزيرة القرم ، وقد لقيت الأمرين طوال رحلتها من عناد زميلاتها الممرضات اللائى أتين معها ، وجعلن يتبرمن من مشاق السفر وأهوال البحر ويتخوفن من مضانك العمل الذى ينتظرهن ، فلم تصل الآنسة الكريمة إلى أشقودرة حتى سقطت مريضة . ونظر الشامتون وأعداء المرأة إلى بعضهم بعضا فى سرور ، ومضوا يهنئون أنفسهم على ما آتاهم الله من بعد النظر والنفاذ إلى أعماق الأمور ، وهز الدكتور هول رئيس الأطباء فى معسكرات القرم رأسه فى عجب وقال: «إن إقدام هذه السيدة على هذا العمل شىء مضحك » ! ومضى ينعتها «بالعصفورة» سخرا وتهكما . وتلقف الضباط والأطباء هذه السخرية منه ومضوا يرددونها ويؤلمون بها سمع الملاك الذى أقبل ليخفف آلامهم .

ولم تكد فلورانس نايتنجيل تبدأ العمل حتى فوجئت بالتعقيدات الإدارية والإجراءات الحكومية تكاد تشل حركتها شللا . كانت قد شحنت سبعة وعشرين ألف قميص للمرضى من لندن وأرادت أن تتسلمها ، فأبى مدير المخازن ، وقرر ألا تفتح الصناديق إلا إذا أذنت له لجنة فى ذلك . وطال الأمر واللجنة لا تنعقد ، والمرضى والجرحى يتألمون من قذارة ما عليهم من الثياب ، وأخذت المس نايتنجيل تطرق الأبواب فلم ينفعها ذلك شيئا ولم تُفتح الصناديق وتوزع الملابس إلا وقد هلك من البرد كثير من المرضى . وضاق صدرها

بتلك التقاليد ، فلم تكد الشحنة التالية تصل حتى أمرت مساعداتها بفتحها دون إذن اللجنة المقدسة ، ففتحنها ، ووزعن الملابس على المرضى ومدير المخازن فاغرٌ فاه دهشة وإنكاراً وهو يقول : « قضى الأمر ! أصبحت مقاليد الأمور بيد الكلاب والنساء ! » .

ثم أقبلت تطالب المسئولين بتحسين طعام المرضى ، لأن « المريض ليس وحشاً ضاريا حتى تلقى له العظام وفتات الطعام .. إنه فى حاجة إلى طعام نظيف حسن الطبخ فاتح الشهية » . فهزت الإدارة رأسها وقالت : « أيتها الآنسة ، إن ميزانية الجيش للذخائر وآلات الحرب لا للحلوى ! » وقال لها أحد الضباط ساخراً : « أيتها العصفورة ، لماذا لاتقدمين الحلوى من مالك الخاص ؟ » فقالت فى هدوء : « ولم لا ؟ » . وأخذت تنفق من مالها إنفاقا، ماضايقتها الإجراءات الإدارية إلا أنفقت ، حتى أفنت مالها أو كادت .

وتحدثت « التايمز » بذلك ، وفتحت باب الاكتتاب فأقبلت التبرعات تترى ، وحاولت إدارة الجيش أن تضع يدها على المال ، فقال مندوب الصحيفة : « أيها الضابط ، هذا المال للآنسة نايتنجيل ، دعوها تفعل به ما تريد ! » . وتسامع اللورد ستافورد رِدكليف سفير إنجلترا فى القسطنطينية بذلك فقال : « وددت لو أنفقوا هذا المال فى مطلب جدير بالإنفاق!» ، فلما سئل عن هذا المطلب الجدير بالإنفاق قال : « نبنى كنيسة أنجليكانية فى القسطنطينية ! » .

وتحسن حال المرضى ، وخفت بلوى الجرحى بفضل هذه الإنسانة الكريمة التى كان الضباط الأصحاء يسخرون منها ويسمونها « العصفورة » ، فإذا جرحوا ولزموا الأسرَّة لم يعدلهم فى الحياة عزاء غيرها ! كان المرضى يعبدونها عبادة ، كانت تقضى الليل كله ساهرة تلبى من يناديها ، وكان الجريح يفيق من نومه فإذا هى تمسح البلاط إلى جانب سريره بالماء والصابون ، ولقد يناديها واحد منهم فتسرع إليه تحسبه فى مشقة ، فإذا أقبلت رجاها أن تجلس ليملى عليها خطابا لأمه ، فلا تزيد فلورانس على الابتسام وتجلس فى صبر وأناة ، وكان كبير الأطباء الدكتور هول لا يفتأ يصيح : « إنها تفسد علينا أجلاف الجند » ، فكانت تقول : « هذا ما أريده .. أريد أن أفسدهم أجلافا لأردهم ناسا » .

وحدث أن طلبت إنشاء مغسلة لملابس المرضى ، فصاح مدير مهمات الجيش : « هذا

أمر يتطلب إنشاء إدارة كاملة . ليغسل القادرون من المرضى ملابس غير القادرين ، ثم لماذا تريدين غسل ملابس الجرحى ؟ إنهم جنود والجنود ذوو خشونة ! » . فلم تحفل به واستأجرت منزلا من مالها ، وأقامت فيه مغسلة كاملة ، فسعد الجرحى بملابس نظيفة دائما، وصاح مدير المهمات : « ومن أين لنا نفقات غلايات الماء والصابون ؟ » فأجابت : «اقتطعها من نفقات البارود ، أنت رجل ذوفَهم ! » ، وأنشأت فرقة لحياكة ما تمزق من الملابس ، فلم يعد الجند يرقدون فى خرق مهلهلة . وكتب سيدنى هربرت وكيل الحرب : «إن فلورانس نايتنجيل تكسو الجيش البريطانى ! » .

وأقبلت جماعة من الفتيات الإنجليزيات من إنجلترا ليعملن معها وهن يحسبن الخدمة معها تشبه الخدمة الاجتماعية التى تعودنها فى بلادهن : بيع زهور فى الحفلات والاستقبالات! فلم يكدن يصلن حتى قالت لهن : « استرحن جيداً الليلة يا آنسات ، فإذا أصبحتن مضيتن معى إلى المغسلة ! » فتصايحن : « إلى المغسلة ؟ » فسكتت وهى تعلم أنها خيبت رجاءهن ، فقد أتين يحسبن عملهن يقتصر على الترفيه عن الضباط ومرافقتهم ، فإذا بهذه الآنسة تسوقهن إلى المغسلة ليقضين اليوم فى أقسى ما تقضى فيه امرأة يومها .

وعجب قادةُ الجيش أن وجدوا جندهم أوفرَ شجاعة وأكثرَ قدرة على متاعب الميدان ، كان أحدهم لا يبالى أين وقع منه رصاص الأعداء ، ما دامت الآنسة نايتنجيل هناك فى المستشفى ، تضمد الجرح وتخفف العلة .. وعجب القادة من ذلك ، وجعلوايكابرون فى فضل هذه الآنسة الشجاعة ، ولكنهم اعترفوا به وأقروه آخر الأمر . وكانت هى تعانى من تثبيط الهمة ما تعانى ، وتلاقى من إنكار الناس قيمة عملها ما تلاقى ، فلا يكاد ذلك يصرفها عن العمل ، بل ربما زادها فيه حباً وعليه إقداما .

وحينما اشتد اللجاج بينها وبين المشرفين على شئون الجيش ، سألت : « كم كانت نسبة الموتى من الجرحى قبل أن نبدأ هذا العمل ؟ » فقيل لها : « اثنان وأربعون فى المائة » . فقالت : « والآن اثنان وعشرون فى الألف ، هل يكفيكم هذا ؟ » .

وكان ذلك حقاً . بعد ستة أشهر من هذا النضال المتصل ساد المستشفى النظام . لم يعد جريح ينام على الأرض أو تتعفن جروحه تغطيها قطع الخيش الغارقة فى الدم ، وأصبح

الطعام لا يقدم وجبات خشنة غير منتظمة ، بل فى أوقات معينة ، وأشرفت المس نايتنجيل بنفسها على توريد الأطعمة فقطعت يد السراق والمستغلين فتضاعفت قيمة المال المخصص للطعام ، وأخذت تدبر للمرضى كتباً يقرأونها فى الأسرة ، وأنشأت للجند صندوق توفير ، فأنكر عليها الرجال ذلك وقالوا : « إن الجندى حيوان لا يعرف الاقتصاد!»، فكذبت ظنونهم ، وأرسلت إلى إنجلترا واحداً وسبعين ألفاً من الجنيهات اقتصدها هؤلاء الجنود وأرسلوها إلى أسرهم ! .

وانتهت الحرب ، فلم تعد فلورانس نايتنجيل إلى بلدها . بل بقيت تشرف على مرضاها شهوراً أربعة حتى برىء آخرهم . ثم حزمت متاعها وعادت إلى بلادها قريرة العين بما فعلت ، وقررت الحكومة استقبالها استقبالا عسكرياً ، فتخلفت عن الموعد لتعود إلى بلدها فى سكون وتواضع ، وقالت : « لا أريد أن تكرمونى .. أريد أن تفهمونى » .

عادت إلى إنجلترا فى يوليو سنة ١٨٥٦ ، وأخذت تتحدث عن سوء حال المستشفيات عامة ومستشفيات الجيش خاصة ، فتعجب وزير الحربية الجديد لورد بانمْيوُر من هذه الآنسة التى لا تريد أن تهدأ ، وتساءل عما يدفعها إلى هذا الجنون المتعب ، وجعل يرجو الناس أن يطلبوا إليها أن تُخْلد إلى الراحة ، فقد انتهت الحرب وعاد السلام . ووافقه أصحابه على ما قال ، وأقبل الناس عليها يرجونها السكوت ، فقالت : « لقد طار رأسى وقُلمت أظافرى من طول ما كافحت ، فلماذا تهاجموننى بهذه الحدة ؟ » . ويئست من رجال الدولة فمضت تخاطب الشعب ، وكتبت كتابها « ملاحظات عن التمريض » وترجمته بنفسها إلى معظم اللغات ، وأشرفت على طبعه ونشره حتى أوصلته بيدها إلى بعض البيوت، وهكذا أسمعت صوتها العالم كله . وتحرك الناس لصوتها ، وإذْ تحرك الناس أفاق رجال الحكومة وأخذوا الأمر مأخذ الجد ، واضطر اللورد بانمْيوُر إلى الموافقة ، فأنشئت مدارس التمريض ، وأنشىء المستشفى العسكرى .

وذهبت مرة تنظر فى مشروع مستشفى جديد كما رسمه المهندسون الحكوميون ، فعجبت واستولى عليها الغضب وصاحت : « هذا ليس مستشفى ، إنه قصر أنيق . نحن لا نريد أن يعجب الناس بمهارة المهندس وتفننه بل نريد أن نريح المرضى ! » ، وكتبت خطاباً تطلب

تغيير الرسم ، فلم يملك اللورد بانميور نفسه أن قال : « ما لهذه الآنسة والبناء ؟ إنه شأننا» فقالت : « بل هو شأنى ! » وما زالت حتى دخلت على رئيس الوزراء اللورد بالمرستون ، فلبثت معه ساعات طويلة ، وخرجت وقد أقنعته بصحة رأيها ، فكتب من فوره إلى اللورد المغرور يرجوه إيقاف العمل ويؤنبه على الاهتمام بظاهر الأمر دون باطنه ، ويعجب كيف لا يفهم أن أهم ما فى الموضوع هو راحة المرضى لا وجاهة البناء

وبنى المستشفى كما رسمته فلورانس نايتنجيل ! .

* * *

واستمرت تعمل بعد هذا جاهدة فى تحقيق ما ارتسم فى خيالها من مثل عليا . احتضنت المريض والجريح والمعوز ، ومضت تحارب فى مقدمة جيش التعساء لتفوز لهم من الأغنياء والأصحاء والحاكمين بما يخفف عنهم آلام المرض وشرور الفاقة ، كان لا يمر شهر إلا قام بفضلها مستشفى أو أنشىء ملجأ أو تكونت هيئة للبر والخير . ولم تكن بالطبيبة ، ولكن إحساسها بآلام المرض جعلها خيراً من كل طبيب ، كانت أكثر الناس إحساساً بآلام المرضى وأقدرهم على تخفيفها ، وكانت لا ترفض لمريض طلبا : تضمد له الجرح ، أو تناوله الماء ، أو تقرأ له فى كتاب ، أو تدعو عازفا يعزف له الموسيقى . تقوم بذلك كله فى صبر وحلم وحب حتى لقد ارتفعت فى أعين الناس وفى حساب التاريخ إلى مقام القديسات . وكانت الملكة فكتوريا تتتبع جهدها فى إعجاب بالغ ، وكانت تقول لمن حولها : « كم أود لو تعرفت إلى هذه التى ضربت مثلا رائعا لجنسنا » . وقد أسعدت الظروف الملكة العظيمة بالتعرف إلى المس نايتنجيل ، فقدمت إليها قلادة كريمة تعبيراً عن شكرها وتقديرها ، وأرفقت الملكة بالقلادة براءة قالت فيها : « أنا أعرف أنك على علم بالتقدير الكبير الذى أكنه لروح التفانى المسيحى الذى تجلى فى أعمالك خلال هذه الحرب الكبيرة الدامية ، ولست أحتاج إلى أن أكرر على مسامعك كيف كان إعجابى بك حارا وتقديرى عظيما لخدماتك التى تعدل الخدمات التى قام بها جنودى الأعزة الشجعان ، الذين كان لك شرف التخفيف عنهم على هذا الأسلوب الرحيم » .

ولم تحظ امرأة إنجليزية أخرى من الملكة العظيمة بمثل هذا التقدير .

وناء جسمها تحت الجهد المتصل الذى بذلته أعواماً بعد أعوام . وإن من وقف مثلها وحيداً أمام جبال من العقبات ـ بعضها عدم الفهم ، وبعضها العناد والإصرار على تقاليد يتمسك بها ناس هم أكثر أهل الأرض حرصا على التقاليد ، وبعضها السخرية بامرأة تحاول أن تصلح الرجال وأن تدلهم على الطريق الأحسن ـ إن من وقف يكافح كفاحها لا يكاد يضعف ولا يستريح ، لحقيق أن يدركه التعب يوما ، ويميل إلى راحة ضن بها على نفسه زمانا بعد زمان .

وكان من أغرب خصالها نفورها من الشكر والتكريم وغير ذلك مما تألفه الطبيعة الإنسانية الضعيفة وتميل إليه ، ولقد ظلت طوال حياتها تنفق على عملها من مالها الموروث وتعيش على ما بقى منه ، وكان آخر ما تبقى لها بيت فى شارع ساوث فى لندن ، كانت تعيش فيه بعد أن بطلت حركة ساقيها وعجزتا عن حملها ، كانت تجلس على مقعدها على سطح هذا المنزل تستقبل زوارها ، وما كان أكثرهم بعد أن أدركتها الشهرة وثبت بعد نظرها كان فيهم الوزراء والسياسيون وقادة الجيوش والشعراء والنبلاء ، ثم كان فيهم الفقراء والمعوزون والمرضى ، أولئك الذين تصدت لخدمتهم بكل ما استطاعت من جهد حتى أفنت فى سبيلهم عمرها وصحتها ، وكانت لا تزال النهار كله تقرأ ما يرد عليها من الأوراق وتفحص ما يقدم إليها من المشاريع وما يتوجه به الناس إليها من الشكاوى . وكانت إذا خرجت بها خادمتها إلى الحديقة محمولة على كرسى ذى عجلات ، تهافت الناس عليها وتدافعوا يريدون أن يستطلعوا وجهها الكريم أو يمسوا طرفا من ثيابها . لقد بلغ حب الناس لها مبلغ العبادة .

ولم تفقد أبداً الشعور بمسئولياتها أمام الجنس البشرى المعذب ، وكانت تقول : « Femina sum إنما أنا امرأة ! وعلى هذا فأنا معنية بكل ما يمس أبناء الأسرة الإنسانية » . كانت ـ وقد تخطت الثمانين من عمرها ـ لا تزال تعمل بذهنها ، وبما بقى لها من قوة بدنها بنفس الهمة التى كانت تعمل بها فى شبابها وفى أيام اكتمال قواها . كانت لا تزال النهار كله تقرأ ما يرد عليها من الرسائل ، وتملى الردود ، وتسعى جاهدة فى بناء عالم أحسن وأوفر راحة للبشر .

ثم بلغت التسعين وعجزت كل قواها عن العمل . شُلَّتْ يداها ثم هبطت الظلمة على عينيها ، ثم أخذ عقلها يكل عن العمل . وكانت صور الكفاح الطويل لا تزال تعرض فى خيالها ويتحدث بها لسانها ، فكانت لا تفتأ تقول : « أنا هى التى وقفت على مرتفعات القرم».

وسألها أحد معارفها ذات يوم ، قبل وفاتها بقليل ، يريد أن يمتحن بذلك حضور ذهنها: « هل تعرفين من أنت ؟ » . فقالت : « نعم ! إننى أرى مذابح الرجال الذين سالت دماؤهم ، ولن أزال أكافح فى سبيلهم ما حييت ! » .

مجد على التل الكبير

الأمير الاى محمد عبيد

ذلك قرن ازدحمت فيه الأحداث حتى هزت وادينا هزا ، وتواترت خلاله الخطوب على نحو يملأ النفس رهبة وعجبا . فقد استيقظنا فى ختام القرن الثامن عشر على لجب الحملة الفرنسية ، ومضينا ندافعها وتغالبنا حتى مضت عنا ونحن فى يقظة هى أشبه بيقظة النائم أزعجه طارىء بالليل فنهض يغالب النوم ، فلما مضى الطارىء ود لو عاد لينام .. ولم نكد نطمئن قليلا حتى عاد الأتراك بمساءات الماضى وظلمات العصر المنقضى ، يحسبون الأمر على ما كان عليه ، ويحلمون بقيادة الناس ، وهم كانوا أحوج إلى من يخرج بهم من متاهات الجهل والضلالة . ثم لم نلبث أن طرق الإنجليز أبواب بلادنا ـ على عهدهم فى إزعاج الآمنين ومباغتة الناس بليل ـ فرددناهم على أعقابهم ..

وكان علينا أن نزيل فى سنوات ركاما من الجهل والظلام تراكمت مع القرون والأعصر ، فما هى إلا أعوام حتى استقامت فى بلادنا المنشآت والمدارس والمعاهد والمصانع والموانى والجيوش ، وحاربنا حرب الظفر فى بلاد العرب واليونان والشام والسودان ، حتى لم تبق فى نواحى الشرق الأدنى ناحية إلا سالت فيها دماؤنا ورقد فى رمالها شهداؤنا .

ثم أقبلت أيام سعيد ، وبدأت قصة القناة السوداء وما صاحبها من ديون ، وكان ضباع الأجانب أثناء ذلك كله لنا بالمرصاد ، لا يأنسون منا غرة فى مال أو كرامة إلا نهشونا نهش الذئب الطامع . وأقبل من خلفهم الإنجليز ـ أعداء الأبد ! ـ والفرنسيون ، يبتسمون فى وداعة المعَلم تارة ، وفى خبث المرابى تارة ثانية ، وفى خسة الطامع تارة ثالثة..

ولم يكد إسماعيل يعتلى العرش ، حتى بادروه جمعاً واحداً كله طمع وكله خداع . وفى أيامه وصلت جيوشنا المظفرة إلى المحيط الهندى عند « قسمايو » ، وسارت جحافلنا تنشر

النور فى القارة المظلمة وتمحو الرق . وما زال الترك بإسماعيل حتى أمدهم بنفر منا لقوا مصارعهم فى ساحات القرم وعلى حصون سباستبول ، وبلغ من انخداعه فى حسن ظنه بفرنسا وعونها أن أهداها نفراً من جنده أهل بلدنا رَوَت بدمائهم وهاد المكسيك! .

ثم ثقلت على كواهلنا الديون ، وأقبلت الدول ـ الإنسانية الرقيقة ! ـ وفى مقدمتها فرنسا، تطالب برطل اللحم من قلب المدين كما فعل شيلوك ، ومضى إسماعيل يدافع المطامع ويرد الدسائس حتى غُلِبَ على أمره وترك البلاد آسفاً على ما أفرط فى الثقة بالإنجليز والفرنسيين ، وما أسرف فيه من عطاء الأتراك .

وأقبلت أيام توفيق ، وقد أفاق المصرى من تعب الجهد المتواصل والحرب المتصلة . أفاق وانتبه إلى ما كان سادراً فيه من الإفراط فى الثقة بالأجانب والاعتماد على شذاذ الشراكسة ، وعرف أن الله لم يخلقه تراثا أو عقاراً ـ كما قال عرابى فى يوم عابدين ـ وأقسم بالله لا يورث ولا يستعبد بعد اليوم ! واحتدم النزاع بينه وبين من ينكرون عليه هذا الحق ، ونهض الفلاحون من بطون القرى ينتظمون تحت لواء عرابى جيشاً . وما كان عرابى إلا مصريا طيب القلب شهم النفس ، أراد أن يضع يده فى يد أمير ساذج ضعيف الطبع ، وأين لمثل هذين أن ينهضا لذئاب الإنجليز وضباع الشراكسة ؟ فما زال هؤلاء يلقون بينهما البغضاء ، حتى سنحت الفرصة .. فأسفر الإنجليز عن وجه الطامع الفاتك فوثبوا وثبتهم ، مستعينين بكل خائن مزعزع النفس ، حتى فازوا بذلك النصر الزهيد عند التل الكبير .

ولو حَسَبَ الإنسان أعداد من لقى منا مصارعه فى حروب هذا القرن الطويل من وهاد بلادالعرب إلى مجاهل السودان إلى جبال المكسيك ، ومقدار ما أنفقنا من الأموال على ذلك كله طوال تلك السنين ، ثم ذكر إلى جانب ذلك أن عددنا لم يعدُ الملايين الخمسة أو الستة، وأن مواردنا كانت قليلة محدودة ، وأن نصيبنا من العلم بشئون الحضارة الأوروبية كان يسيراً.. مَن عرف هذا وقاسه إلى الجهد العظيم الذى بذلناه ، والخسارة المتوالية التى تحملناها ، لآمن بأننا قمنا خلال ذلك القرن بما يشبه المعجزة ، وأن الهزيمة إن كانت حلت بنا آخرَ الأمر فى ساحة التل الكبير فقد كانت نتيجة لإجهاد متصل وإنفاق فى رأس مال متواضع . ولو قد وقفت إلى جانبنا خلال ذلك كله دولة واحدة لكان الحال غير الحال ،

ولكننا وقفنا ـ عقداً بعد عقد ـ نصارع الأحداث وحدنا بدون صديق : أزمات تتلوها أزمات، وعقبات تؤيدها عقبات ، وعدو يشد أزر عدو ، والكيان بعد ضعيف ، والتجربة قليلة والجهد متصل مرهق .. فكيف تُستغرب الهزيمة بعد ذلك ؟.

من وعَى ذلك كله وحسب حسابه واستقصى تفاصيله ، خفت عن نفسه أوزار هذه الهزيمة وما تلاها من الاحتلال الإنجليزى ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد بذلنا الوسع وما هو فوق الوسع ، ولو تُركنا لأنفسنا لكان الحال غير الحال ، ولكن هذا الاحتلال الذى نزل بنا منذ سبتمبر سنة ١٨٨٢ شل حركتنا وأعادنا إلى ظلمات عهد المماليك قبل ذلك بقرون .

وقد كان من سوء الطالع أن تولى قيادتنا فى اللحظة الحاسمة رجل طيب قليل الخبرة ولسنا نحاول أن نفصل أحداث القرن ، ولا أحداث الثورة العرابية ، وإنما نريد أن نحمل الأسباب البعيدة والقريبة التى أدت إلى مأساة التل الكبير ، وأن نشهد آخر مشهد للبطولة المصرية الكريمة خلال ذلك القرن المنقضى ، ممثلة فى شخص قائد مصرى ثبت مع جنوده ـ ولم يزيدوا على آلاف ثلاثة ـ وسط نيران متلاحقة ، وطعنات من الخلف ، وجيش مروع .. أردنا أن ننتهى بذلك كله إلى البطل الجليل الأميرالاى محمد عبيد من أبناء كفر الزيات .

وإننا لنورد سيرة هذا البطل المصرى فى هذا المجموع لنصل بينها وبين بطولة أحفاده من أبطال الثورة المصرية الراهنة ، أولئك الذين ردوا اعتبار هذا الوطن الكريم وأزالوا ذلك العدوالدخيل الذى غدر أرضنا فى سبتمبر ١٨٨٢ ولم يستقر عليها إلا بالخيانة والخديعة ، فما زال أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢ يواصلون الجهد والنضال حتى كللوا كفاح الشعب المصرى للاستعمار سبعين سنة متوالية وحتى طهروا منه البلاد ، ورفعوا العلم الذى ناءت بحمله يمين البطل المجاهد الذى نتحدث عنه اليوم .. محمد عبيد .

* * *

ليس يستطيع أن يفهم عرابى وإخوانه ويضعهم فى مواضعهم إلا من عرف ظروفهم التى عاشوا فيها وشاركهم إحساسهم خلال تلك الظروف . فقد انتظم عرابى فى سلك

الجيش جندياً صغيراً عادياً ، مثله فى ذلك كمثل غيره من المصريين الذين كان الناس إذ ذاك يعيرونهم بأنهم « فلاحون » .. وعبرت به السنون ، وتوالت خدماته ، وظل على ما هو عليه جنديا صغيراً منسياً . وكان ينبغى ـ تباعاً لمنطق تلك الأيام ـ أن يظل هو وأصحابه على ذلك الحال ، لأنه كان مصريا فلاحاً ولم يكن تركياً ولا شركسياً ..

وقد أرادت المقادير أن ينفسح الطريق أمام المصريين فى أخريات أيام سعيد ، فارتقى عرابى فى عصره حتى أصبح قائمقام فى سنة ١٨٦٠ ، وارتقى معه عدد من المصريين إلى مثل هذا المنصب . فأثار ذلك نفوس من كانوا يسمون أنفسهم الشراكسة فى ذلك الحين ، فما زالوا به حتى أدخلوه مجلس تأديب .. فلما برأه المجلس ألحوا عليه بالأذى حتى أخرجوه من الجيش جملة ، وأصبح كاتباً فى دائرة الحلمية . وظل خارج الجيش ثلاث سنوات ، عاد بعدها إليه على رغم هؤلاءالكارهين ، فانتقموا منه بحرمانه من مرتبه خلال السنوات الثلاث التى بقى فيها خارج الجيش .

وما زال على ذلك الحال ، يحارب فى سبيل كيانه ، حتى أقبلت أيام توفيق ، فرقى إلى رتبة الأميرالاى ، بعد أن بقى تسعة عشر عاما فى الرتبة السابقة ، قضاها مظلوما ، مهيض الجانب ، مهددا فى كيانه فى كل حين ، مُحالا بينه وبين فرصة العمل ، أو فراغ الدرس والاستذكار ..

وقد كان لهذه الحال أسوأ الأثر فى مصيره ومصيرنا معه ، لأنه ظل معظم هذه الفترة محروما من فرصة يستطيع فيها أن يجود معارفه العسكرية ، أو معارفه السياسية . ولم يكن الرجل بالخامل النفس ، ولا بالقاعد عن طلب العلم أو المعرفة ، وإنما شغله هؤلاء الدخلاء بهذا الكفاح الصامت ، الذى كان كل مصرى فلاح من أبناء هذا الوادى يشقى بمرارته ويقضى فيه عمره راضيا أو كارها . ولو أتيحت له فرصة الدرس والمران لما أباها، ولكنه شب لا يكاد يعرف من فنون الحرب شيئا يستطيع أن يخوض به غمار معارك ضخمة ولا لوم عليه فى ذلك ، وإنما اللوم على من ملأوا حياته ألما وشقاء ، وأحبوا أن يسودوه وهو أحق منهم بخيرات بلاد هو ربيب ترابها ، فكان عليه قبل كل شىء أن يكسر شرتهم ليرفع المصرى رأسه ..

وقد وفق عرابى فى ذلك توفيقا طيبا ، وزالت دعوى الشراكسة والأتراك ، وارتفع رأس المصرى بفضله إلى مصاف غيره من الناس ، وفى هذا وحده نصر عظيم .. ولو لم تتدخل الدولة البريطانية ، لكان النصر أكمل . ولكن إنجلترا كانت لنا بالمرصاد طوال القرن الماضى كله ، كان بيننا وبينها ثأراً مبيتاً ..

وحينما عاد عرابى من المنفى ـ بعد سنوات من النفى والتشريد ـ لم يعد أحد يسمع بهذا الصراع المؤلم بين المصريين وغير المصريين ، الذى شغل عصرى إسماعيل وتوفيق .. اختفى هذا وأصبح الناس كلهم مصريين سواسية ، والفضل فى ذلك كله لهذا المصرى ، الفلاح ، الشرقاوى ، الأصيل ، أحمد عرابى .. وهو نصر ليس بالقليل .

ولنُضِف إلى حساب الرجل أنه كان بسيطا ، متواضعا طيب القلب ، لا يكاد يحمل ضغينة لأحد . فقد أثار الدنيا وأقعدها ، ووصل إلى زعامة البلاد ، وأصبح معبود الناس ، ومتّجَه الأنظار ، ولكنه ظل رغم ذلك على بساطته ، لم تذهب الخيلاء برأسه ، ولم يعبث إجلال الناس بوقاره . وظل إلى آخر أيامه زميلا مع أتباعه ، لم يسجل عليه أحد منهم نزعة غرور ، أو ميلا إلى الخيلاء .

بل بالغ فى البساطة إلى حد أضر به وبقضيته ، فقد كان قلبه مفتوحا للناس أجمعين ، لا يكاد يحس أنه يمتاز على أحد بشىء . ومن أمثله ذلك أنه بعد أن انتصر فى يوم عابدين وأدرك ما أراد ، وعاد السكون مجراه ، كان يخطب الناس عن قلب صاف ساذج ، ويقول لمستقبليه فى محطة الزقازيق مثلا : « أنا أخوكم فى الوطنية ، واسمى أحمد عرابى ، ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه ، فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وها أنا ذا واقف بين الأهل والخلان ، وقد بلغكم ماطلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ، وبعناية الله سبحانه منحنا الخديو هذه الأمنية ، فنحن لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان » ..

وهذا كلام رجل يفهم الحرية ، ويعرف معناها وجدواها على الشعوب ، وهو يقوله فى بساطة وسذاجة تهز القلوب هزا ، ولم يكن مع ذلك قد كَسَب لمواطنيه كسبا يسيرا ، بل كسبا معنويا عظيما ، وخطا بالقومية المصرية والشخصية المصرية خطوات واسعة فى طريق

الكرامة والحرية ، وإليك حديث الإنجليزى الحر المستر ولفرد بْلنت عن هذا الكسب العظيم :

« إن ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث ـ حادث عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ـ لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التى شهدتها مصر ، ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ماجرى فيها بعينى رأسى ، ولم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ، ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها .. إنى لم أرفى حياتى ما يشبه هذه الحوادث ، وأخشى ألا أرى مثلها فى المستقبل . إن كل الأحزاب الوطنية ، وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لا فرق فى ذلك ـ كما يظهر ـ بين الخديو والأمة . وسَرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة ـ حتى الغرباء منهم ـ يستوقف بعضهم البعض ، ليتعانقوا جذلين مستبشرين بعهد الحرية العظيم ، الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » .

* * *

ولكن هذه العزة لشعب طالت به عهود القهر والظلم لم تكن لترضى أنصار الظلم وطلاب الغايات .. أنكر الشراكسة على المصريين أن يصبحوا مثلهم سواسية ، وأنكر نفر من المصريين على عرابى أن يفوز بهذا الحب والتقدير من الناس على سذاجته وبساطته ، واستبعدوا أن تطوف أفكار الحرية الرفيعة بذهنه ، وهو الفلاح الأصيل الذى لم يصب من العلم إلا نصيبا متواضعا ، وأدرك نفوسهم الحسد .. وويل لنا معاشر الشرقيين من الحسد! إنه يضلنا ويعمينا ويدفعنا إلى ما تأباه النفس الكريمة .. ويل لنا من الحسد الذى يحرق القلوب إذا أدرك صاحب لنا أو واحد من أبناء وطننا ومعارفنا شيئا من العز والجاه ! هذا الحسد الذى ألب قلوب أصحاب شيخنا الجليل عمر مكرم فما زالوا به حتى انتهوا به إلى المنفى ، وأثار نفوس نفر من أصحاب عرابى ومواطنيه ، فانتهى أمرهم وأمره إلى الفشل والهزيمة ، وقلب نفوس الناس على مصطفى وفريد وسعد زغلول ، ومايزال يعبث بنا ويحطم نفوسنا حطما ، ولعلنا لن نتنبه إلى ذلك إلا ونحن فى تراب القبور ! لقد مست الغيرة

نفس رجل كالأستاذ الإمام محمد عبده ، فمضى يعلق على دعوة عرابى إلى الحرية ويقول:

« هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى ، تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء يراه ، يلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى إلا سيوفاً مسلولة أو حبالاً منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص ! أو الهرب الهرب ! ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب مجلس النواب على الصورة التى قدرها فى نفسه ... » .

هكذا جرى قلم الإمام الكريم ـ غفر الله له ـ يهبط بالزعيم الذى فاز للأمة بحقها فى الدستور ومجلس النواب . وليس إلى الشك سبيل فى أن آل مصر كلها كانوا قبل ذلك الحين فى خوف دائم وهم متصل وذل مقيم ، يتهددهم الظلم والعسف ولا يكاد يحميهم أحد ، وكان محمد عبده من أولئك المصريين الذين شقوا من استبداد الأجانب وعسف المتجبرين شقاء بالغاً ، وكان هو أولى الناس بالوقوف إلى جانب عرابى وتوجيهه بما حباه الله من فضل العلم وكمال المعرفة ؛ ولكن .. قاتَلَ الله الحسد ! .

بيد أن وصف الأستاذ الإمام لحالة عرابى النفسية قبل إعلان الدستور وعقد المجلس النيابى يصدق عن حالة كل مصرى فى ذلك الحين ؛ فقد كان نفر من ضباط الشراكسة قد استمرءوا طيبة المصريين وذهبوا يفكرون فى إعادة أعصر أجدادهم المماليك ، بل إنه « كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق ، وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ، ويلعنون خيرى بك لإذعانه وتسليمه للسلطان سليم ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل » كما قال عرابى فى مذكراته . ومضى زعيمهم عثمان رفقى يضطهد الجنود المصريين ويهدر حقوقهم دون ذنب أو تحقيق ، وأصبحوا جميعاً فى حال من الخوف والرعب ربما زادت على ما وصفه الأستاذ الإمام من حال أحمد عرابى ، وقد كان أهل مصر جميعاً يشهدون ذلك ويرونه ، ولا يكاد أحد منهم يجرؤ على الكلام رغم مرارة الألم وهواجس الخوف .

وكان عرابى قديراً على أن يدع الأمور تجرى فى أعنتها ، فقد كان قد وصل إلى أرفع مراتب الجندية ، ولم يكن ليصيبه من عثمان رفقى وأصحابه شر . ولكنه خلق أبىَّ النفس لايقبل الظلم ولا يُقره ، فأبى أن يؤخذ جنوده الفلاحون ليعملوا فى شق الترع عمل المسخر، وتصدى لعثمان رفقى وأنكر عليه تصرفه المخزى . ولم يكد نفر من الضباط يتوجهون إليه ويشكون إليه آلام أنفسهم ومخاوفهم حتى تصدى لحمايتهم ، وخاطر بنفسه فيما كان يعد فى ذلك الزمان جنوناً : كتب إلى رئيس الوزراء رياض المتجبر يطلب إليه عزل وزير الحربية والإقلاع عن جنون العصبية واحترام أبناء الوادى من الفلاحين ، فأين هذه الشجاعة مما يزعم الأستاذ الإمام من جبن عرابى وخوفه على حياته ؟ .

* * *

كان البكباشى محمد عبيد من ذلك الفريق من المصريين المظلومين الذين كان يُراد لهم الذل ويُدبَّر لهم فى الخفاء ، وكان مصرياً صميماً من أبناء كفر الزيات ، وقد دخل الجيش جندياً صغيراً ، وظل على حاله سنوات طوالاً ، وكان من الممكن أن يظل على هذه الحال لو لم تنصفه المقادير كما أنصفت غيره من المصريين وترفعهم إلى مقام الضباط ، ومضى يرتقى من درجة إلى درجة حتى نجده بكباشياً فى الآلاى السودانى فى مايو سنة ١٨٨٠ . ومن أسَفٍ أننا لا نعرف عن حياته حتى هذا التاريخ شيئاً كثيراً ، ولكننا سنلقاه منذ هذا الحين فى كل مناسبة تحتاج إلى شجاعة وتضحية ويبدو أنه كان من زعماء المصريين فى الجيش ، لأن عثمان رفقى وضع اسمه فى قائمة المغضوب عليهم فى مايو سنة ١٨٨٠ ، وقرر نقله من مركزه وإحلال شركسى محله ، فلم يكد عبيد يسمع بذلك حتى خف مع رئيسه عبدالعال حلمى حكمدار الآلاى السودانى إلى منزل عرابى يبسط أمامه ما يدبر الشراكسة لآل مصر من سوء المصير .

وملأت الحماسة نفس عرابى لمواطنيه ، وتصدى للدفاع عنهم على ما فى ذلك من الجرأة، بل التهور ، فكتب إلى رياض عريضة يطلب إليه فيها عزل وزيره كما رأينا ، وقد وقعها معه عبد العال حلمى وعلى فهمى ، وأقسم الضباط المصريون على الدفاع عن حريتهم وكرامة مواطنيهم حتى الموت .

ووصلت العريضة رياضاً ، فأقامته وأقعدته واعتبرها جرأة لا ينبغى أن تصدر عن أبناء الفلاحين هؤلاء ، وأخذ يتحدث فى مجالسه بما سيصيبهم من عذاب أليم جزاء ما طلبوا من العدل والمساواة . ومضى رفقى وأنصاره يزيدون نفسه غضباً ، ويحقرون المصريين فى نظره ويهونون عليه شأنهم ، حتى قرر محاكمتهم أمام مجلس عسكرى . ولو أنه لجأ فى محاكمتهم إلى أسلوب كريم ، فأعلنهم بالتهمة ودعاهم للمثول أمام المحكمة ، لكان تصرفه معقولاً أو مفهوماً على الأقل ، ولكنه لجأ إلى أسلوب غادر لا يصدر إلا عن نفس تنطوى على سوء النية والخديعة .. دعاهم إلى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف إحدى الأميرات ، وجَبُنَ أن يعلن إليهم أنهم مدعوون للمحاكمة أمام مجلس عسكرى ، وأخفى عنهم أن أمر المحاكمة مطوى تحت يده . وليس أبلغ فى الدلالة على سوء النية من هذا ، ولو لم تبدر من عرابى من بوادر الشجاعة غير ذهابه إلى قصر النيل مع زميليه ـ وهو يعلم ما يدبر له ولهما ـ لكفاه ..

ولم يكد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى يدخلون قصرَ النيل حتى أطاحت بهم شراذم الشركس الأجلاف يسبُّونهم ويصفُونهم بأنهم فلاحون أقذار ، ونزعوا عنهم سلاحهم وأودعوهم السجن دون محاكمة كأنهم بعض المجرمين ! .

وانتظر محمد عبيد إخوانه أن يعودوا فلم يعودوا ، فجرت المخاوف فى نفسه ، وتوجس الشر من تدبير سيىء يكون قد حاق بهم ، وكان إذ ذاك ضابطاً « بقشلاق الحرس » فى عابدين ، فنادى جنده وصفهم وأمرهم بالمسير إلى قصر النيل . وحاول رئيسه خورشيد بَسْمِى الشركسى أن يرده عن ذلك فلم يحفل به ، ولما وجده يتمادى مع الغيظ ، وينكر عليه إسراعه لنجدة إخوانه أمر به فسجن فى إحدى حجر المعسكر . ومضى فمر بفرقته أمام قصر الخديو توفيق ، وكان توفيق لا يكره أن يثور الجند على رياض ، لأنه كان لا يحبه ولكنه أرسل ياوره راشد حسين ليرد محمد عبيد عما يريد ، فأبى محمد عبيد ، وهو يعلم أنه يخاطر بحياته بهذا الإباء ، ولكنه كان يسعى فى خلاص إخوانه المصريين من هذا الشر الذى يريده بهم الشراكسة الخبثاء ، ومضى شهماً عزيزاً رافع الرأس إلى ثكنات قصر النيل .

ولم يكد محمد عبيد يصل بجنده إلى وزارة الحربية فى قصر النيل ، حتى أدرك الخوفُ هذا

المتجبرَ العاتى عثمان رفقى ومن التف حوله . فتدافعوا يطلبون النجاة فى هرب مخجل ، ودخل محمد عبيد وجنده البواسل الوزارة يبحثون عن إخوانهم السجناء حتى عثروا عليهم وحلوا وثاقهم بأيديهم ، وعاد عرابى وإخوانه إلى الحرية . ولو لم يفعل محمد عبيد ذلك لضاع أمر عرابى وإخوانه ، ولنُفُوا إلى مجاهل السودان أو رفعوا على أعواد المشانق ، ولسكت هذا الصوت النبيل الذى نادى بأن مصر للمصريين . ولو فشل فى حركته ولم يوفق إلى إخراج صاحبيه لعُدَّ ثائراً عاصياً ، ولكان مصيره الهلاك ؛ ولكنه لم يفكر فى ذلك ، لأنه كان مواطناً شهماً ومصرياً كريماً .

ووقف المصريون من جند الجيش وضباطه صفاً واحداً ، وألّفَ الله بين قلوبهم ، فلم يلبث رياض أن تزحزح عن موقفه وأجابهم إلى مطالبهم وإن نفسه لتذوب ألماً وحسرة : عُزِل الشركسى وَوُلِى محمود سامى البارودى مرشح المصريين ، وطابت أنفس « الفلاحين » ورضيت نفس عرابى ، وهدأت نفس محمد عبيد ، وانتصرت القومية المصرية فى معركتها الأولى بفضل هذا الشهم الكريم .

ثم أعقبت هذا الحادث أشهرٌ سود ، هى أظلم ما مر على قوم أحرار دفعتهم الحمية إلى المطالبة بالحرية ، وأهابت بهم نفوسهم إلى النهوض للدفاع عن وطن مهيض .. ما كاد عرابى وصحبه يخرجون من السجن مظفرين ، وما كاد رياض يتراجع ، وما كاد المظلومون والمهددون فى أموالهم وأرواحهم من أهل مصر يشعرون بنسيم الحرية يهفو إلى نفوسهم ، حتى توجهوا إلى هذا الزعيم عرابى يبثونه الشكوى ويلتمسون عنده الحماية من رياض ومظالم رياض ، بل بلغ عدد المتظلمين ممن كان محكوماً عليهم بالنفى إلى مجاهل السودان تسعمائة ، انفتح أمامهم جميعاً طريق العدل فتوجهوا يطلبون الإنصاف . وجرؤ نفر من كبار أهل البلاد وأوسعهم جاهاً على الإفضاء إلى عرابى بما كان يخالج نفوسهم من المخاوف ومايتوقعون لبلادهم من سوء المصير ، واجتمعت كلمة هؤلاء جميعاً على المطالبة بالدستور وبمجلس النواب ، حتى لا يستبد بالأمر رياض أو غير رياض ، وحتى يعود الأمر إلى هذا الشعب المظلوم .

فلم تكد هذه الأنباء تترامى إلى خصوم الحرية وأعداء مصر من الأجانب الشراكسة ،

حتى بدأوا يحيكون المكائد ويوقعون البغضاء بين المصريين والخديو . ووضع الإنجليز أصبعهم فى الموضوع ، وجروا بالسعاية بين أهل مصر حتى شمل الخوف الجميع ، وأصبحت مصر معسكرين ينطوى أحدهما نحو الآخر على الشر والكراهية .. وزاد الخوف حتى ما كان أحد من الجانبين ليجرؤ على السير وحده فى الليل ، فكان عرابى إذا أراد السير إلى دار عبد العال حلمى استقدم نفراً من جنده مخافة أن يكون الأعداء مترصدين له فى الظلام . وكان محمد عبيد حارساً أميناً لزعمائه : كان لا يسكن الليل غادياً مقبلاً يحمل الرسالات من الزعماء ويتصيد أعداء الحرية ويرديهم فى مكانهم ، حتى خافوه وتهددوه بالموت . وجعلت الإشاعات تتردد بأنه منقول هو وجنده إلى السودان ، وهوجم المرة بعد المرة ، ودست عليه الدسائس فى عمله ، ووجهت إليه التهم فلم يهز ذلك نفسه ، ولم يتزعزع عن أمانته للقضية الكبرى ورجالها ، فظل أوفر ما يكون شجاعة وأقوى قلباً .

مرت هذه الأشهر السبعة على الوطنيين وهم فى حال من الخوف والقلق تعود بالإنسان إلى أظلم أيام الإرهاب ومحاكم التحقيق .. كان الجواسيس فى كل ناحية ، وكان أحد من هؤلاء المصريين لا يطمئن إلى خادمه ، فقد حاول أحد خدم عرابى أن يضع له السم بإيعاز من أحد الشراكسة .

هذا ، ومن غرائب النفس المصرية أن عرابى وإخوانه لم يحاولوا الدس لخصومهم أو التربص لهم فى الظلام على هذا النحو الخسيس ، لأنهم إنما كانوا أنصار حرية ورجال قضية عظمى لا تهبط بهم كرامتهم إلى مثل هذا العمل الوضيع ، أما الشراكسة فهم على مايُعرف من تاريخهم دناءةَ نفس ولؤمَ طباع ، وهم أهل المؤامرات وعنصر الكيد الأسود اللئيم . ولقد شقيت مصر بهم زمناً طويلاً ، ولقيت تركيا من سوء نفوسهم ما أوردها موارد الهلاك .

ولم تَخِفَّ رهبة هذا الرعب الشامل إلا بعد يوم عابدين العظيم ، يوم أجيبت مطالبُ الوطنيين كاملة ، فسقطت الوزارة ، ودعى مجلس النواب إلى الانعقاد ، ولاح للناس فجر من الحرية جديد .

وكان ذلك فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ .

ثم تعاقبت الحوادث يتلو بعضها بعضاً ، أدخل الإنجليز والفرنسيون أنوفهم فى الأمر ومضوا يثيرون رجال الأمة الواحدة بعضهم على بعض ، كأنهم قرروا ألا يرتفع لمصر فى أجواء الحرية علم أبداً ... وأسرع ثعالب الأتراك يتوددون إلى عرابى حيناً وإلى الخديو حيناً حتى مكنوا الخلاف بين الناحيتين من جديد ، ثم مضى كل منهم يستعد من ناحيته للانقضاض على الفريسة إذا تقسمها الخلاف واندلعت بين أهلها نيران الخصومة .

وقد كان ما أرادوا ، وزادت شقة الخلاف ، وأوهم الإنجليزُ الخديو أن حياته فى خطر من هؤلاء الأحرار ، وصوروا له أنهم يحمونه من كل شرٍ يكون ، وأنهم يقومون بهذه الحماية ـ على عهدهم دائماً ! ـ دفاعاً عن الحرية والحق ، لا يطلبون لأنفسهم من وراء ذلك غنماً .. وصَدَّق الخديو دعاوى ثعالب الإنجليز من أمثال كلفن وإدوارد مَالِت وكوكسن ، ومالَت نفسه الضعيفة إلى الاحتماء فيهم ، وركن إليهم .. فتشجعوا وأسرعوا ، كبنات آوى وفهود الغاب وضباع الجحور تسرع نحو الفريسة فى ظلام الليل ، أسرعوا تؤيدهم الخيانة وتعينهم الرشى وفساد النفوس ...

* * *

ظل محمد عبيد خلال هذه السنوات كلها سيفاً من الحركة الوطنية ، وكان ما يزال يعمل فى آلاى السودان الذى يرأسه عبد العال حلمى أحد أعلام الثورة . ولسنا نملك شيئاً من المعلومات المحققة عن أعماله خلال الفترة التى انقضت بين مظاهرة عابدين فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ونزول الإنجليز أرض مصر والتحامهم مع رجالها فى المعارك التى انتهت بالاحتلال الإنجليزى بعد ذلك بعام . ولكن أخباراً متناثرة تشهد أنه كان ملازماً رئيسيه عرابى وعبد العال فى كل خطوة ، وأنه كان شديد الحماسة مستعداً للعمل فى كل لحظة ، وأن عرابى كان يُهَدِّى ثائرته ويسكن نفسه كلما جاش كيانه بالغضب على أعداء مصر والمصريين . فمن ذلك ما يحكى من أنه ذهب مع عرابى للقاء شريف باشا فى وزارته الثانية ليتعجلا إصدار الدستور ، وكان الجوُّ كَدراً بين شريف باشا وعرابى ، وكانت الشكوك تملأ قلبيهما فلم يكد عرابى يتحدث فى أمر الدستور حتى رده شريف رداً عنيفاً ، فما كان من محمد عبيد إلا أن وقف وصاح : « والله إن لم تصدر اللائحة لأقطعن رؤوس الحاضرين ! »

ووجم عرابى وأبلس شريف وملكه الخوف ، وبذل عرابى جهده فى إفهام الوزير أن البكباشى عبيد لا ينوى إلا خيراً ، وأن مخاوفه من أعداء الحركة الوطنية هى التى تضعه وأمثاله فى مثل هذه الحال من التهيج والاستعداد للثورة .

ونسمع عنه مرة ثانية فى السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٨١ فى دار رئيس مجلس النواب محمد سلطان باشا ، فى ذلك الاجتماع الخطير الذى عقده الوطنيون المصريون عقب وصول المذكرة الإنجليزية الفرنسية الثانية تطلب الدولتان فيها أن يخرج عرابى باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه وراتبه ، وأن يبتعد كل من عبد العال حلمى وعلى فهمى إلى داخل القطر ، وأن تستقيل وزارة محمود سامى البارودى من الحكم .. وكان هذا طلباً عجيباً من دولتين أجنبيتين لا تملكان أى حق فى التدخل فى شئون مصر ، ولكنهما كانتا على دأبهما من انتهاز الفرصة فى الضعيف والآمن ، فأقبلتا تتساندان كأنهما شيطانان لا يبغيان بالضعيف خيراً ، فلم تكد المذكرة تصل حتى اجتمع رجال البلاد وعلى رأسهم عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمد عبيد ، وهنالك قرروا رفض المذكرة رفضاً باتاً وليكن ما يكون .

ثم نراه بعد ذلك مرافقاً لعبد العال حلمى حينما سافر بجنوده إلى دمياط فى الرابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ وفاءً لما أخذه الوطنيون على أنفسهم من الابتعاد عن العاصمة إذا دُعى مجلس النواب إلى الانعقاد ، ذهب محمد عبيد إلى دمياط وظل مقيماً فيها حتى قبيل موقعة التل الكبير .

ثم كانت معركة التل الكبير فى الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٢ ، وليس فى تاريخنا الحربى والسياسى كله يومٌ تنكَّبنَا فيه الحظ وباعدنَا الرشادُ كما حدث فى ذلك اليوم الأسود وإن الإنسان ليقرأ التفاصيل فيعجب كيف وقعنا فى هذه الأخطاء كلها ، وكيف مشينا بأقدامنا إلى الهاوية بعيون أضلها الشيطان ، وكان فى ميسورنا أن نتلافى الأخطاء واحداً بعد واحد ، وأن ننجو من الهاوية بشىء من الحكمة وبعد النظر ! .

فقد كان أولى بعرابى وأصحابه أن يوحدوا صفوفهم فى مكان واحد ، وأن يلقوا الإنجليز لقاء رجل واحد فى معركة حاسمة واحدة ؛ ولكنهم تفرقوا فتصيدهم العدو واحداً واحداً .

أقام عبد العال حلمى وجنوده المدربون فى دمياط ، ولم يحضر قتال التل الكبير منهم إلا فرقتان على رأسهما محمد عبيد ..

وظل طُلبة عصمت حامى الإسكندرية وبطل كفر الدوار فى البحيرة ، بعيداً عن الموقعة الحاسمة فى وقت اشتدت الحاجة فيه إلى قائد باسل مثله .

وأسر محمود فهمى المهندس الحربى العظيم فى الخامس والعشرين من أغسطس عند المسخوطة فى مناوشة قصيرة قبيل التل الكبير ...

وجُرح راشد حسنى وعلى فهمى فى واقعة القصاصين الثانية قبل معركة التل الكبير بأربعة أيام فقط ..

وخُدع عرابى بما وعَده به ديلسبس من إقفال القناة فى وجه الإنجليز وتركها مفتوحة خلفه ، ولم يرع ديلسبس وعد الشرف الذى قطعه على نفسه وأجاز الإنجليز ، فكانت تلك قاصمة الظهر لجيوش مصر . وقد اقتص الله من ديلسبس على هذه الخيانة فحوكم فى بلاده رغم شيبه بتهمة النصب ، وقضى آخر أيامه فى السجن بين ذل الجريمة وعار الشرف الملوث !

ووقف عرابى مع نفر قليل من الجند المدرب ، وبضعة آلاف من المتطوعين ، وعدد لايحصى من الخونة فى خطوط التل الكبير يُعِد العدة للموقعة الأخيرة الحاسمة . وفى استطاعتنا أن نتصور حالته النفسية فى أيام كهذه ، وقد تفرق عنه كبار الأنصار ، ولم يبق إلى جانبه إلا محمد عبيد ! .

ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان فى النصر رجاء ، لأن جند مصر كانوا لا يزالون يحتفظون ـ على قلتهم ـ بما عرف فيهم من الحمية والشجاعة ، وكان من الممكن أن ينقذ الموقفُ لو ساعف المقدار ..

ولكن الخونة احتاطوا بعرابى وغدروه : ما أصدر أمراً إلا نقلوه إلى الأعداء ، وما قدر تقديراً إلا انتقل خبره إلى الخصوم ، وأقبل إليه سلطان باشا رئيس مجلس النواب وصديقه القديم يخدعه ويؤكد له أن الإنجليز لن يتقدموا ، وقد غاب عن عرابى أن سلطان باشا

انقلب على وطنه بِليْل وأنه يتقاضى ثمن الخيانة عشرة آلاف من الجنيهات ، لم يفطن عرابى إلى ذلك وظل يلقى إليه بأذنه ويفتح له قلبه ..

وأقبل نفر من البدو الغادرين يقودهم شيخهم الخائن مسْعُود يضللون جنود مصر ويقودون جنود الإنجليز ، فأضلوا البارودى ورجاله ، فلم يدركوا المعركة ، ولم يساهموا فيها بنصيب ..

ووقف المجرم الغادر على يوسف يرصد الأنباء لينقلها إلى الإنجليز ، حتى لقد أوصل خطة الجيش المصرى مكتوبة ، فكانت تلك هى الطامة الكبرى ؛ ولو أوتى عرابى بعد ذلك خبرةَ نابليون لما وفق إلى النصر .. وأقبل جيش الإنجليز تؤيده الخيانة وتعززه الرشى ليفوز بنصر رخيص ..

وكانت الأمة المصرية تقف إلى جانب جيشها منذ بدء المعارك فى الإسكندرية فى الحادى عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ ، فقد كان الناس رجالاً ونساءً يتطوعون فى خدمة المجاهدين ويساعدونهم « بتقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات » كما يقول عرابى فى مذكراته ، بل ذهبت همتهم إلى أبعد من ذلك فيقرر محمود فهمى باشا : « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ماحصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

وهبت على الأمة كلها نسمات من البطولة ، وتجلى فى أفرادها استعداد رائع للدفاع عن أرض الوطن العزيز ، فقد كان الفلاحون يخرجون من قراهم بالفؤوس قاصدين مواقع القتال لمعاونة الجيش فى أعمال التحصين والدفاع ، ولو كان معهم سلاح لقاتلوا ، ولو كانوا على شىء من الدربة لثبتوا ، ولكن الحرب تجربة ومران ، وما كان هؤلاء غير رجال متحمسين لا تؤيدهم غير حمية القلوب ، وأين لهم الثبات أمام ذئاب الإنجليز الذين حاربوا فى كل قطر وشربوا من دماء كل شهيد ؟ .

وكانت الحرب قد قامت وليس فى خزانة الحكومة درهم واحد ، لأن المراقب الإنجليزى

الخسيس أو كْلاند كَلفِن أخذ الأموال من خزانة الدولة وأنزلها إلى الأسطول الإنجليزى قبل إعلان الحرب بأيام ، ولم يكن أعضاء لجنة صندوق الدَّين أكثر شرفاً من هذا اللص الإنجليزى ، فقد نقلوا ما فى عهدتهم من مال مصر إلى الأسطول الإنجليزى ! .

فى مثل هذه الظروف كان على عرابى أن يقاتل ! .

وأعلن عرابى حاجةَ الجيش إلى المال والعتاد ، فأقبلت التبرعات تترى حتى زادت على الحاجة ، وقد قرر ذلك عرابى فى كتاب أرسله من منفاه يقول فيه : « أرجو أن تُذَكِّر صديقنا المستر بلنت ـ فضلاً عما كتبناه إليه بتاريخ ١٥ الحالى ـ أن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد ، فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائة حُلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عِدْل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما تزيد قيمته على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدِّم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها ، ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » .

هذه هى الأمة التى قيل إنها هزمت فى التل الكبير ! .

هذه هى الأمة التى طعنها خليفة المسلمين التركى فى ظهرها ، فأعلن عصيان قائدها وأباح للمسلمين قتاله وأهدر دمه ! .

* * *

ونظر عرابى ومن ثبت للإنجليز معه عند التل الكبير ، فإذا كل شىء يدور على نحو لم يقدروه ، وإذا الإنجليز يعلمون خطط حربهم جملةً وتفصيلاً ويبادرونهم قبل أن يبادرهم فأسقط فى يد عرابى ، وبدا له ـ مع الأسف البالغ ـ أن يتقهقر إلى القاهرة ، عله يستطيع أن يدبر مع أهلها خطة أحسن للدفاع ، وليته ما فعل ... فإن الجيش إذا انحلت عقدته فى مثل هذا الوقت العصيب كان من العسير عقدها مرة أخرى ! .

ولم يكد عرابى وأصحابه يغادرون مواقع القتال حتى تفرق الجيش أيدى سبا ، ومضى من بقى من الجنود كلٌ فى سبيله ، وكان معظمهم من المتطوعين : لا خبرة ولا دربة .. وحاول عرابى لمَّ شعثهم وجمعهم حول رايته من جديد فلم يستطع ، لأن مدافع الإنجليز كانت تحصدهم حصداً .

ولكن واحداً منهم ثبت عند التل الكبير ، ثبت مع جنده وكانوا آلافاً ثلاثة ، ثبتوا وأبوا أن يتزحزحوا أمام العدو الغادر ...

كان ذلك هو الأميرالاى محمد عبيد ...

كان قد اعتصم مع فرقته بنَشز من الأرض ثبتوا فيه أقدامهم وأقاموا علم مصر فوق رؤوسهم ، ومضوا يجاهدون جهاد المستميت ، وصوب عليهم الإنجليز مدافعهم وأصلوهم ناراً حامية ، وهم ثبوت لا يدركهم خوف ولا يتسرب إلى نفوسهم اضطراب ، وأخذت النيران تحصدهم حصداً حتى لم يبق إلا قائدهم : وقف دون العلم العزيز وأخذ يرمى ببندقيته يريد لِيَصُدَّ نيران المدافع ، وظل مكانه ممسكاً بالعلم حتى فاضت روحه ولا زال علم مصر الحرة يرفرف ...

ذلك هو الأميرالاى محمد عبيد من أبناء كفر الزيات ! .

جواب الثلوج

رواد أموندسن

بحـارٌ واسعة كأنها الآمال ، وثلوج متراكمة كأنها الجبـال ، ورياح هوج تسفع وتعصف، وعواصف من دقيق الثلج تثيرها الريح وتصفع بها الوجوه صفعاً ، وفضاء واسع أبيض يرتد عنه البصر كليلاً ، ينتهى إلى بحار يعلو فيها الثبج وتهدر فيها الأمواج هديراً يهز النفس هزاً .. وسفين حائر مضطرب تتقاذفه الأمواج فتعلو به حيناً وتهبط به حيناً ، وتصفو له آناً وتعبس له آناً ، وشراع حيران تعبث به الريح ، لا تسالمه مرة إلا حاربته مرات ، ونفوس أيدها الله بالعزم وأمدها بالصبر وأوسع لها فى رحاب الآمال ، فانحدرت الآلام عنها وصغرت العقبات فى همها ، فهى ماضية تغالب اليأس وتكافح الموج ، كلما قطعت بحراً تبدى لها من ورائه بحر ، وكلما عبرت بصحراء ثلج تبدت لها من ورائها صحراء ثلج يخيم الموت عليها بظله الرهيب ؛ ونهار شاحب هو إلى الليل أقرب ، هو بضعة متخلفة من أشعة الشمس ، تاهت فى الفضاء الواسع ، وتهافتت تحت جنح الظلام ..

ونفوس أخرى والهة على البعد حَرَّى ، تتطلع إلى السفائن وإنها لتشفق عليها إشفاقاً شديداً ، وتتبع أخبار الذاهبين للقاء الموت وإنها لتذوب خوفاً ، وصُحُف تتنسم الأخبار وتتسقط الأنباء وتطيِّرها إلى عالم يرقب هذه الحفنةس من الأبطال الذين استوحشوا من الأمن فى ظلال الخمول ، فمضوا يطلبون المجد فى ظلال المتاعب والآلام ..

ذلك كان حال بعثة أموندسن الثانية إلى القطب الجنوبى .

كان زميله الإيطالى الجنرال أومبرتو نُوبيلى قد رحل منذ أسابيع إلى القطب الشمالى على متن طائرة يريد أن يستكشف هذا القطب السحيق وما حوله من أرضين ، وجعل أموندسن يترقب أخباره حتى انقطعت عنه فجأة ، فأخذ ينتظر أسابيع أخرى على غير طائل ، حتى

ثبت لديه أن شراً قد حاق بصاحبه ، فخف لنجدته ، وقد رأى أن يمضى بالسفينة حتى أقرب موضع من المكان الذى ظن أن صاحبه قد اختفى فيه ، ثم يحلق بالطائرة فى سماء القطب عله يعثر لصاحبه على أثر . فلنخلفه فى مكانه هذا لنلم بطرف من أخباره ، ثم نعود فنمضى معه فى رحلته هذه ..

وُلد رُوَالد أموندسن فى السادس عشر من يوليو سنة ١٨٧٢ فى بلدة بورجه فى النرويج ، وكان أبوه ملاحاً ، فنشأ وفى نفسه حب المخاطرة وهوى البحار ، وأراد أبواه أن يكون طبيباً حتى ينجو بنفسه من متاعب الملاحين ويهيىء لهما عيشاً مطمئناً ولكن المقادير أرادت له أن يكون بطلاً ، فلم يكد يفرغ من دراسة الطب حتى انصرف إلى الملاحة ، فأخذ يدرسها ويتدرب على مضانكها على أيدى أحسن الملاحين من أبناء النرويج ، ولم يكد يفرغ من الدراسة حتى هفا به القلب الطموح المتطلع إلى القيام برحلة يستكشف خلالها شيئاً مجهولاً ، فأغرى فتى من أصحابه بأن يصاحبه فى رحلة شاقة يطوفان خلالها بسواحل إسكندیناوة ، من أقصى البحر الأبيض الشمالى عند شبه جزيرة كالين إلى أعمق فجوة فى خليج بوثنيا ، عابرين أثناء ذلك بكل رأس وكل خليج خانق ، ليكونا بذلك أولَ من قطع هذه الرحلة الطويلة الشاقَة ، وأولَ من درس سواحل إسكندیناوة دراسة عملية . وكانت الرحلة شاقة عسيرة ، فكاد الفتى الناشىء يهلك فيها إذ كانت الأزواد تنقطع عنه أياماً متوالية فى بعض حلقاتها ، فكان يظل صابراً حتى يصله العون فينقذه إذ هو على حافة القبر .

ثم ارتقى فى سلك الملاحين حتى أصبح الضابط الأول فى السفينة « بلجيكا » التى كان يقودهـا دى كـرلاش لكشف قارة الأنتار كتيكا ، أى القارة المحيطة بالقطب الجنوبى (سنة ١٨٩٧) فتصوّر ـ هداك الله ـ إنساناً يولد على مقربة من القطب الشمالى ، وتأتى الهمة إلا أن تدفعه إلى ارتياد القطب الجنوبى المجهول ! إن التطلع لكشف المجهول والمخاطرة بالنفس فى سبيل معرفة مالم يُعرف خصلة لا توجد إلا فى رجال برأ الله قلوبهم من نور ، فهى لا تطمئن إلى الظلام أبداً ، وتسعى دائبة فى كشف المحجب المغلق الذى تستغلق دونه قلوب الخاملين وقد كسب الرجل من رحلته تلك مرانا نفعه طول حياته فيما بعد ، ذلك أنه

سار فى صحبة نفر من أمهر الملاحين الكاشفين من أمثال دى كرلاش نفسه وأركتوفسكى .

كانت هذه الرحلة ضرباً من البطولة وإن لم يكتب لها النجاح ، تلكأ الرحالون طويلاً فى الجزيرة الواقعة جنوبى أمريكا الجنوبية ـ والمعروفة بجزيرة أرض النار « تيرادل فويجو » ـ ولم يكادوا يقربون من القارة القطبية الجنوبية ، حتى دهمهم الثلج وحصرهم حصراً شديداً . والثلج إذا دهم الناس تساقط كالمطر المنهمر ، ولا يزال يتعالى حتى يغطى الناس ويطمرهم أحياء ، فإذا كان الإنسان فى مركب أو فى مخيم غطاهما الثلج وغيبهما عن الأنظار ، فربما استمر يتساقط حتى بلغ الأمتار علواً ، ولا نجاة لمن يبتلى به إلا أن يدركه الناس قبل أن يدفن حياً . فلما بدأ الثلج ينهمر وقفوا يدفعونه بالليل والنهار ، وكان من حظهم أن كان معهم عدد كبير من الرجال ، كلما هبطت من الثلج طبقة كشفوها بالمجارف ، ولكنهم لم يستطيعوا السير ، فظلوا فى قبضة الثلج عاماً كاملاً ! حتى كتب الله لهم الفِكاك وأقبلت إليهم النجدات ، فعادوا أدراجهم وقد أنهكهم التعب وأضر بهم طول الكفاح ..

وأفاد الفتى أموندسن رغم ذلك فائدة عظمى ، وعرف عن جو القطب وأحواله ومفاجآته ووسائل دفع أخطاره والتحرز منها شيئاً كثيراً . ثم سَمَت نفسه إلى الرحلة بمفرده، وتطلع إلى القيام بمغامرة تقترن باسمه ، ولكن المال أعوزه ، وكم يعوز المال الأبطال ! فمضى يحتال فى جمعه ويدبره ولا يدع مطلباً يصيب منه شيئاً من المال إلا طرقه ، وأصاب منه شيئاً يستعين به على تحقيق الغرض الجليل الذى تصدَّى له ، حتى استطاع بعد جهد أن يشترى سفينة قديمة حولتها خمسون طناً ، ثم عكف عليها فأصلحها ودبَّر لها العدة لرحلة طويلة مقبلة . وأقلع بها وعَبَر المحيط المتجمد الشمالى وأدرك جرينلاند ـ الأرض الخضراء ـ وهناك أخذ هو ورفاقه يتتبعون خطوات شاكلتون ، المستكشف الأمريكى الذى كان قد سبقهم إلى تلك الجهات يريد أن يكون أول من كشف مجاهلها فلم يعد : أهلكته الثلوج ، أو عَدَت عليه ضوارى القطب ، أو نفد منه القوت ..

مضوا يتتبعون خطوات هذا الشهيد لا يكاد يثنيهم وعثُ صحارى الثلوج ولا مزالق الجليد ، وكلما تتبعوا الأثر شيئاً اختفى منهم وتركهم لا يعرفون كيف يسيرون . ولم يدركهم

اليأس مع ذلك أو يصرفهم عن بلوغ هذا المطلب .. وما بهم إليه حاجة ملحة ، ولكنه تطلع الطامح وإخلاص النفس الكريمة لشهيد من شهداء العلم . ولقد حصرهم الثلج فى الشتاء ، ثم أقبل الصيف فأخلى لهم السبيل ، ثم عاد الشتاء فأحاط بهم الجليد فحبسهم شتاء آخر ، فظلوا ينتظرون الصيف ، حتى إذا أقبل عبروا هذا البحر المتجمد ووصلوا إلى جرينلاند من طريق لم تطرقه قبل ذلك قَدم ، ثم انحدروا مُسَاحلين حتى وصلوا إلى كندا ، وهناك تلقاهم الناس معجبين بهذا الجهد الذى بذلوه ، وتقدم الأمريكيون فدعوا أموندسن إلى بلادهم ، فذهب إلى هناك وحاضر الناس ، وكسب من ذلك ما مكنه من وفاء الديون التى كان قد اقترضها قبل هذه الرحلة وأثناءها .

هنالك أدرك الناس قدر هذا الرجل ، وطمع الأمريكيون فى أن يكسبوه إلى صفهم ، فأعطوه السفينة « فْرام » وأعدوها له بكل ما يلزم للرحلات الكبيرة .

ورحب هو بالفرصة ، وأخذ يتأهب لكشف القطب الجنوبى وإن قلبه ليقفز من جنبيه من فرط التوثب ، ولكن القدر فاجأه وسلبه هذا الأمل : بينما هو يتأهب إذ تواترت الأنباء بأن الكابتن بيرد الأمريكى قد أدرك القطب الجنوبى ورفع عليه الراية الأمريكية ..

إنه لمما يبعث العجب فى النفس أن ترى هؤلاء الناس يستبقون إلى المخاطرة بنفوسهم لكشف شىء مجهول لا تلح عليه الحاجة فى كشفه ، ولا يعلَّل ذلك إلا بأن الله قد برأهم على طبع متطلع يود أن يعرف كل شىء ليسود كل شىء ، فهم فى حركة أبداً وتطلع لاينتهى، كلما كشفوا مجهولاً تطلعوا من ورائه إلى مجهول ، يشعر الواحد منهم شعوراً داخلياً بأن هذه الدنيا ملكه ، وأنه سيدها ، فيدفعه هذا التصور إلى استكناه أسرار هذا الملك الواسع . إن التطلع والسعى للكشف من خُلُقِ السيادة ، والجمود والاطمئنان إلى ما تحت البصر من خلق الذلة ، ولن تجد امْرَأً ذليلاً متطلعاً إلى علم أبداً ..

حدث هذا فى سنة ١٩٠٩ ، ولم يفت فى عضد أموندسن ، وإن كان قد نال من عزائم من كانوا قد تحمسوا له وأوسعوا له فى النفقة وأسباب العمل . مضى الرجل ـ رغم ذلك ـ يعد العدة لرحلة بعيدة لم يصارح أحداً من رفاقه بأمرها ، حذرا من أن يسبقه أحد إلى غايته، وخوفاً من أن يقعد الخوف من مهالكها بنفرٍ من رجاله عن المضى معه ، ثم شد

رحاله ولا يعلم أحد وجهته ، واتجه صوب الجنوب ، حتى إذا أدرك جزائر ماديرا فى المحيط الأطلسى ، أفصح لزملائه عن غايته ، وأنبأهم أنه ماض بهم إلى الأنتاركتيكا قارة القطب الجنوبى ، وقال : « إذا كان بيرد قد كشف القطب فأنا أكشف القارة المحيطة بالقطب ، فإن هناك أرضاً واسعة تحتاج إلى عشرات المستكشفين لارتياد مجاهلها » . وكان الناس يظنون ـ إلى هذه اللحظة ـ أنه مُوَلٍّ وجهه شطر مضيق بهرنج ، بين أوروبا وآسيا .

كان أموندسن يعرف أن المستكشف الإنجليزى سكوت قد وصل فى ذلك الحين إلى القارة الجنوبية ، ومضى يعمل فيها ، فأحب أن يستأذنه ، فأرسل له رسالة لاسلكية لم تصله؛ ومضى أموندسن فى صبر يرجو أن يلقى سكوت ، حتى إذا كان الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٩١١ أعلن للناس أنه وصل القطب الجنوبى ورفع عليه الراية النرويجية إلى جانب الراية الأمريكية ، ولم يكن رفع الراية فى ذلك الحين معناه الامتلاك ، وإنما كسبُ شرف الوصول . ولكن هذا التوفيق لـم يكتب له خالصاً ، وإنما شابته مرارة ملأت نفسه ألماً : لقد مات صديقه سكوت فى هذه المحاولة وذهب ضحية الثلوج ، فحزن من أجله حزناً شديداً ، وانصرف عن العمل حيناً ، ورغب عن الشهرة حتى لقد رد إلى الجمعية الجغرافية وسامها الذهبى الذى كانت قد منحته إياه . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فأوقفت مشاريعه وحالت بينه وبين الاستمرار فى العمل ، فسخط عليها سخطاً شديداً ، وظل يترقب زوال كابوسها حتى يعود إلى المغامرة من جديد .

فلما انتهت الحرب عاد إلى العمل مُبادراً ، واتجه هذه المرة نحو القطب الشمالى ، وجمع الله عليه مجازفاً أمريكياً اسمه لنكولن إلْزِورث أعانه بطائرته وخبرته حتى استطاع أن يصل إلى خط ٨٨ شمالاً ، وأن يقف على بعد مائة وعشرين ميلا من هذا القطب العنيد ، وهنا حملت عليه الريح حتى شلت حركته وهددته بقطع الأمداد عنه وعن رفيقه ، وكان قد اتخذ جزيرة شْبِتزْ برجن مركزاً لأعماله ، فعاد إليها مسرعاً ، ثم بدأ يستعد مع لنكولن من جديد لرحلة مقبلة ، ولكن المقادير عاكسته مرة أخرى ، ذلك أن بيرد الأمريكى عاد إلى المنافسة ، وخف إلى القطب الشمالى فى طائرة ، فأدركه وأعلن للدنيا كلها توفيقه فى الوصول إلى هذا القطب العسير الذى يقع فى منطقة ثلوج وأمواه يضل فى متاهاتها السارى ، وما يكاد

الإنسان يقربه ويوشك أن يدركه حتى تضطرب الإبرة المغناطيسية فلا تكاد تدل على موضعه الصحيح ، حتى شك الناس أن هناك قطبين شماليين . أدرك بيرد هذه الغاية وعاد بشرفها ، فرأى أموندسن أن يتريث فى المضى فى رحلته وأن يتوجه وجهة أخرى ، عله يكشف كشفاً آخر غير هذا الذى ضيعه عليه الكولونيل بيرد .

فكر أموندسن فى مشروع لا يقل خطورة ولا أهمية عن مشروع رحلته الأولى التى طاف فيها بسواحل إسكندیناوة ذلك الطواف المضنى : ذلك أن يقطع بحار القطب الشمالى أثناء الصيف مستعيناً بالتيار الدافىء الذى يمر بهذا القطب ، وكان الناس لا يعرفون اتجاهه أو مداه ، فقرر السير معه حتى يصل به إلى غايته . وقد سارت الرحلة أول الأمر سيراً طيباً رغم صعوبتها ، ولكن أموندسن لم يلبث أن لاحظ أن هذا التيار القطبى الشمالى مضطرب غير معين الاتجاه ولا منتظم السير ، وانقضى الصيف وهو يحاول ، وأقبل الشتاء فجمد كل شىء من جديد ؛ ولم يجد أموندسن بداً من العودة .

وفى سنة ١٩٢٦ قرر أموندسن أن يقوم بحملة كشفية كبرى يستكشف بها شرقى المحيط المتجمد الشمالى ـ أى الجزء المحيط بأوروبا وآسيا من الشمال ـ وكان أقصى ماوصل إليه الناس منه إذ ذاك شبتزبرجن النرويجية وجزائر نوفايا تسمليا الروسية . وقد صاحبه فى هذه الرحلة صديقاه لنكولن ألزورث الأمريكى والجنرال أومبرتو نوبيلى الإيطالى ، وأقلعوا على متن الطائرة الأمريكية المائية « فورجه » من شبتزبرجن وعبروا القطب الشمالى ، وهبطوا فى الجهة الأخرى عند بوينت بارو فى ألاسكا فى مساء ١٢ مايو سنة ١٩٢٦ ، ومن ثم نهضوا مرة أخرى وواصلوا طيرانهم حتى هبطوا عند مضيق بهرنج بين آسيا وأمريكا الشمالية وبهذا حقق أموندسن حلماً بعيداً للإنسانية ، وعبر القطب الشمالى من نصف الكرة الشرقى إلى نصف الكرة الغربى على متن الجو فى اتجاه لو أنك حدثت به أحداً من الناس منذ خمسين سنة لظنه ضرباً من الجنون ، ولكنه الدأب والتطلع والنزوع نحو المعرفة يدفع الناس على تحقيق ما يشبه المعجزات .

وكان أموندسن يستعد لرحلة استكشافية جديدة ذات خطر حينما طرقه خبر مفاجىء : إن صديقه الجنرال أومبرتونوبيلى فى خطر ، لقد نهض فى رحلة كشفية على متن طائرته

«إيطاليا» فلم يكد يسير إلا قليلاً حتى اضطربت به الطائرة وهوت إلى الأرض وتحطمت فى الثلوج ، وانقطعت أخبار المستكشف المغامر عن الناس ، وظل أموندسن ينتظر خبراً فلم يصله شىء ، فأحس أن واجبه يدفعه إلى النهوض لنجدة صديقه ، فربما استطاع أن يدركه حياً . تلك هى الرحلة التى خلفناه عندها فى أول هذا الحديث .

لم يكن يعرف أين سقطت بصاحبه الطائرة ، وفيافى القطب فسيحة والثلج ينهمر ويغطى كل شىء فيها ، فكيف يستطيع العثور على طائرة هبطت على الأرض وربما غطتها الثلوج ؟ .

أقلع أموندسن من تُرومزو مع نفر من أصحابه فى طائرة بحرية ، ومضوا فى سماء القطب يذرعونها وبأيديهم المناظير يفتشون ما يعبرون به بعيون ملؤها الإشفاق ، ولم يدركهم اليأس على طول البحث وتوالى الإخفاق ، وضلوا هم الآخرون سبيلهم وتحطمت طائرتهم وهوت بهم إلى الثلوج ..

وكان ذلك آخر العهد بأموند سن ! .

لقد لقى مصرعه وهو يكافح هذا الكفاح المجيد مع المجهول ، لازال التطلع والنزوع يدفعانه إلى المخاطرة وغلاب الموت ، ومازال يكشف للناس من أسرار الأرض ويرتاد من مجاهلها حتى تخونه التوفيق وعصف به المجهول فتاه فيه .

لقد أنفق حياته فى مطلب جليل ومات فى سبيل كريم ، ولكنه سيظل حياً فى قلب الإنسانية ، لأنه طليعة من طلائعها ورائد من روادها ، وأحدُ هؤلاء القلائل الذين لقوا مصارعهم فى كفاح نبيل فى سبيل العلم والوفاء والعرفان .

مراجـــع

فى سهل مجدو - تحتمس الثالث

Alt, A. pharao Thutmosis lll in Palastina, Palastinajahrbuch, X (1914) 53 – 99 .

BREASTED, J. H. A new chapter in the Life of Thutmose iii, Leipsig, (1902) (in Band ll of SETHE, Untersuchungen) .

MEYER, E. Aegyptische Chronologie. Berlin, 1904 .

NAVILLE, E. Le Père de Thutmes lll. Rec. Trav . xxi, pp. 201 sqq.

NELSON, H. H. The Battle of Magiddo. Beirut, 1913 .

PASSYPTION, E. DE. Les Opérations militaires de Thutmès iii après la prise de Mageddo, Rec. Trav. xxvi, pp. 169 sqq .

SETHE, K, Die Tronwirren unter den Nachfolgern Königs Thutmoses I, ihr Verlauf und ihr Bedeutung. (in Heft l, von SETHE, Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens). Leipsig, 1896 .

الدكتور سليم حسن : مجدو ، أول معركة حربية فى تاريخ العالم القديم (فصل من الجزء الرابع من كتابه : تاريخ مصر القديمة) نشر فى مجلة المشلة . مجلد ١ ، عدد ٢ ، ص ٨٩ _ ٩٧ .

شاعر الأبطال - هوميروس

طبعات الإلياذة والأوديسة فى نصيها اليونانيين وترجماتها إلى شتى اللغات كثيرة جداً . انظر عن حياة هوميروس ونقد مؤلفاته :

CAUER, P. Grundlagen der Homerkritik. Leipsig, 1921 .

CHADWICK, H. M. Heroic Age. Cambridge, 1912 .

FINSLER, G . Homer. Leipzig, 1924 .

LANG, A. Homer and his age. 1906 .

LEAF, W . Homer and History. 1912 .

بطل من عالم الأساطير - آخيل

مقال فى صحيفة Classical Quarterly, July 1907 . ALLEN, T . W. The Homeridae

-- Lives of Homer, Journal of Hellenic Studies xxxii, 1912 -- xxxiii 1913 .

CROISET, M. Histoire de la litterature grecque, 3 éd. vol . l, 1910 .

JEBB, R.C. An Introduction to the Illiad and the Odyssey, 3 ed 1933 .

ROTHE, C. Die Ilas Dichtung . Paderborn, 1910 .

SARTIAUX, F. La guerre de Troie et les origines préhistoriques de la Question d`orient.

STAWELL, F.M. Homer and the Illiad, 1909 .

أسد فى ثوب إنسان ـ ليونيداس

BELOCH, K. J. Griechische Geschichte, ii, 2ed. Strassburg, 1914, 1916.

BURY, J. B. The Campaign of Artemisium and Thermopylae, B.S.A. II, 1896, PP. 83 sqq .

HERODOTUS, V . 39 -- 41 . viii, 202 -- 225, 238.

OBST . E. Der Feldzug des Xerxes, Klio xii, 1913 .

STRABO, I. 10 . ix, 429 .

TARFEL, L. R. Greek Hero - eults and the Ideas of In,mortality . Oxford, 1921 .

يوم سلاميس ـ ثمستوكليس

CUSTANCE, SIR R. War at Sea. Part I, Edinburg .

DELBRÙCK, H. Die Perserkriege und die Burgunderkiege . Berlin, 1887.

GOODWIN, W. W. The Battle of Salamis, Papers of Amer. Sch. at Athens, i, 1885 .

GRUNDY, G. B. The Great Persian War, 1901.

تاريخ رجل ـ ديموستين

ADAMS, C. D. Demosthenes and his influence, 1927.

CLEMENCEAU, G. Demosthene, paris, 1926.

KENNEDY, C. The Olynthiac and other public oration of Demosthenes (Bohns Classical Library, 1848) .

PICKARD, A. W. Demosthenes and the last days of the Greek freedom. Cambridge, 1914.

SCHAFER, A. D. Demosthenes u. seine Zeit, 1885 -- 1887.

WHISTON, R. Demosthenes, with an English Commentary, 1851.

إسكندر العظيم

BUDGE, A. W. History of Alexander the Great, Cambridge, 1889.

-- Life and Exploits sf Alexander the Great. 1896.

EHRENBERG, V. Alexander in Aegypten. Leipzig, 1926.

FREEMAN, E. A. Alexander the Great, in Historical essays, vol. ii, 1871.

NOLDEKE, TH. Beitrage zur Geschichte des Alexander - romans, Wienn, 1890.

OTTO W. Alexander der Grosse. Marburg, 1916.

WHEELER, B. J. Alexander the Great. London and New York, 1900 .

الدكتور إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرة ١٩٤٦) ج١ ، ص ١٠ وما يليها .

بطليموس الثالث يورجيتيس - واقعة رفح

BEVAN, E. R. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927.

BOUCHE-LECLERCQ. Histoire des Lagides, 4 vol. Paris, 1903-7.

GSELL, S. Histoire ancienne de L`Afrique du Nord, vol. I. IV. Paris, 1913 -- 1920.

LESQUIER, J. Les institutions militaires de L`Egypte sous les Lagides. Paris, 1911.

SMITH, R. BOSWORTH. Carthage and the Carthaginians, 2ed. London, 1879.

الدكتور إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرة ١٩٤٦) ج١ ، ص ٦٥ ــ ٧٧

شيشيرون ينقذ روما

BOISSIER, G. Ciceron et ses amis. Paris, 1865.

MOMMSEN, TH. Römische Geschichite, 8 Aufl. Berlin, 1889.

PETERSSON, T. Cicero, a Biography. Berkeley, 1920.

ROLFE, J. C. Cicero and his influence. Boston and London, 1923.

STRACHAN-DAVIDSON J. L. Cicero and Fall of the Roman Republic. New-York, 1894.

ZIELINSKI, TH. Cicero im Wandel der Jahrhunderte, 3 Aufl. Leipzig, 1912.

أسد الله وأسد رسوله - حمزة بن عبد المطلب

ابن الأثير : أسد الغابة ، الجزء الأول .

ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى معرفة أخبار الصحابة ، (طبعة القاهرة) ، جـ١ ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (طبعة أوروبا) ، انظر فهرس الأعلام .

أبو الفرج الأصفهانى : كتاب الأغانى ، جـ٤ ، جـ ٢٥ ؛ جـ ١٤ ، ص ١٥ ـ ٢٢ ؛ جـ ٩ ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

محمد بن سعد : كتاب الطبقات الكبير (طبعة سخاو) ، جـ ٣ ، كراسة ١ ، ص ٣ ــ ١١ .

محمد بن هشام : السيرة (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة سنة ١٩٣٧) ، انظر فهرس موضوعات الجزءين الأول الثانى .

إيمان رجل ـ أبو حنيفة النعمان بن ثابت

أحمد أمين : ضحى الإسلام .

أبو إسحاق الشيرازى : طبقات الفقهاء .

ابن تيمية : رفع اللثام عن الأئمة الثلاثة الأعلام .

الجهشيارى : الكتاب والوزراء .

الحافظ محمد بن يوسف بن على : عقود الجمان فى مناقب الإمام الأعظم .

اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية .

الموفق بن أحمد المكى : مناقب الإمام الأعظم .

صقر قريش ـ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)

ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٣٢ ـ ٣٧ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (طبعة تورنبرج) ص ٩١ ــ ١٠٧ .

الأخبار المجموعة (طبعة إمليو لافوينتى إى ألكانتارا) ، ص ٤٦ ــ ١٢٠ .

ابن الخطيب : إعلام الأعلام (طبعة ليفى بروفنسال) ، ص ٦ ــ ١٠ .

ابن خلدون : العبر (طبعة القاهرة) ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ ــ ١٢٤ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، جـ ٢، ص ٢٦٨ـ ٢٦٩ .

عبد الواحد المراكشى : المعجب (طبعة دوزى)، ص ١١ـ ١٢ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب (طبعة دوزى)، جـ ٢، ص ٤٢ـ ٦٢ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس (طبعة مدريد ١٨٦٨)، ص ٢١ـ ٤١ .

محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية (القاهرة ١٩٤٧)، ص ١٢٣ـ ٢١٥ .

النويرى : نهاية الأرب (طبعة جسبار ريميرو)، ص ١٥٤ـ ١٧١ .

DOZY. Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة الثانية 1, 188 - 249 .

SAAVEDRA. Abderrahmen 1, Monografia historica.

بحث نشر فى صحيفة Revista de Archivos, Bibliothecas y Museos. Madrid

مجلد ٢٢، ص ٣٤١ـ ٣٥٩، مدريد ١٩١٠

SIMONET. Historia de les Mozaràbes, pp. 237 - 259 .

رجل وحياة . أحمد بن حنبل

أبو إسحاق الشيرازى : طبقات الفقهاء .

ابن تيمية : رفع اللثام عن الأئمة الثلاثة الأعلام .

الذهبى : تذكرة الحفاظ، الجزء الثانى .

الطبرانى : المعجم الصغير، الجزء الأول .

أبو الفرج، عبد الرحمن بن رجب : طبقات الحنابلة .

عبد القادر الجيلى : الغنية لطالبى طريق الحق، (مكة ١٣١٤) الجزء الأول .

ابن قيم الجوزية : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية، القاهرة ١٣٢٣ .

BROCKELMANN. Geschichte der arabischen Litteratur, I pp. 181 sq.

GOLDZIHER. Muhammedanische Studien, 1, 257 sqq.

- Zur Geschichte der hanbalitische Bewegungen.

بحث نشر فى صحيفة الجمعية الشرقية الألمانية ZDMG. مجلد lxii

LE STRANGE. Bagdad during the Abbasid Califate. Cambridge, 1900 .

ابن الأثير : الكامل (طبعة تورنبرج) ، جـ ٦ ، ص ٢٠١ وما يليها .

أحمد بن طاهر طيفور : كتاب بغداد (طبعة كلنر) ، الجزء ٦ .

ابن جرير الطبرى (طبعة دى غوية) ، جـ ٣ ، ص ٧٥٧ وما يليها .

ابن الطقطقا : الفخرى (طبعة دير نبورج) ، ص ٣١٦ـ ٣٢٤ .

ابن قتيبة : كتاب المعارف (طبعة فستنفلد) ، ص ١٩٩ وما يليها .

محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ .

المسعودى : مروج الذهب (طبعة باريس) ، جـ ٧، ص ١٠٢ـ ١٤٥؛ جـ ٩، ص ٤٥، ٥١، ٦٩

اليعقوبى : تاريخ (طبعة هوتسما) ، جـ ٢ ، ص ٥٦٦ـ ٥٧٠ .

BURY. Mutasim's March through Cappodocia; in journal of Hellenic Studies, xxix, 120 - 129 .

MULLER. Der Islam in Morgen und Abendland, 1, 520 sqq.

WEIL. Geschichte der Chalifen, 11. p. 295 - 236 .

عصامى مسلم ـ محمد بن أبى عامر (المنصور)

ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دورزى) ، ص ١٤٨ـ ١٥٣ .

ابن حيان : فقرات طويلة فى كتاب الذخيرة لابن بسام ، الجزء الرابع ، مخطوط بمكتبة جامعة القـاهرة .

ابن الخطيب : إعلام الأعلام ، ص ٧٧ـ ٩٦ و ١١٤ـ ١٢٢ .

— : الإحاطة ، (طبعة القاهرة) ، جـ ٢ ، ص ٦٧ـ ٧٣ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ـ ٢٩١ .

عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١٧ـ ٢٦ .

المقرى : نفح الطيب (طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت) جـ ١ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٢ ، ٣٨٠ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب (طبعة جسبار ريميرو) ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٢ .

DOZY. Histoire des Musulmans d'Espagne, 11 pp 186 - 257 .

LÉVI-PROVENCAL, Histoire de l'Espagne Musulmane (Le Caire, 1944) 1.pp.L 409 sqq.

MENE`NDEZ PIDAL, R. Espana del Cid, I. 79 - 80 .

صلاح عظيم ـ نور الدين محمود

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (تورنبرج) ، الجزء التاسع .

ابن خلكان : وفيات الأعيان (فستنفلد) ، ترجمة رقم ٧٢٥ .

أبو الفداء : تاريخ (طبعة رايسكه) ، جـ ٣ و ٤ ز

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (طبعة أمدروز) ، أنظر الفهرس .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، أنظر فهرس الأجزاء الثلاثة الأولى .

MÜLLER, A. Der Islam in Morgen und Abendland, 11, pp. 144 sqq.

RÖRICHT. Geschichte des Kõnigreiches Jerusalem.

STEVENSON. Crusaders in the East. Oxford. 1909.

WEIL. Geschichte der Chalifen الجزء الثالث

أبطال دمياط والمنصورة

الدكتور جوزيف نعيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٥٦ .

الأميرالاى عبد الرحمن زكى : معارك حاسمة فى تاريخ مصر ـ دمياط والمنصورة .

القاهرة ، مارس ١٩٤٥ .

مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المعروفة باسم :

Recueil des Historiens des Craisades.

القسم الخاص بالمؤرخين الشرقيين ويضم :

المجلد الأول : تاريخ أبى الفدا .

بقية المجد الأول والجزء الأول من المجلد الثانى : تاريخ ابن الأثير .

المجلد الثانى ، الجزء الثانى : نصوص من جمال الدين محمود العينى وابن الأثير الأتابك .

المجلد الثالث : نصوص من بهاء الدين وابن ميسر وأبى المحاسن وسبط بن الجوزى وكمال الدين .

المجلد الرابع : نصوص من أبى شامة .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، جـ ١ ، القسم الثانى ، ص ٢٢٤ وما يليها .

CROUSSET. Histoire des Croisades

STEVENSON. Crusaders in the East Oxford; 1907, pp. 289 sqq.

فيلسوف شهيد - جيوردانو برونو

BRUINO, GIORDANO : Opere raccolte e puplicate de Adolfo Wagner, 2 vols. Leipzig.

CARRIÈRE, M. Die philosophische Weltanschaung der Reformationszeit. Stuttgart, 1847 .

HAEFFDING. History of Modern Philosophy. vol. 1. London, 1900.

LAVALLEE. J. Histoire des Inquisitions Religiueses. Paris, 1808.

McCRIE, T. History of the Reformation in Italy. Edinburg, 1856.

SCHULTZE. Geschichte der Philosophie der Renaissance. Jena, 1874.

صقر البحار - فرانسيس دريك

ABREU, PEDRO DE. Historia del Saqeuo de Cadiz por los Ingleses en 1895 .

Cadiz, 1866 .

CORBETT, J.S. Drake and the Tudor Navy, with a history of the rise of England as a maritime power. 2 vols. London, 1898.

FROUDE, J.A. History of England from the fall of Wolsey to the defeat of the Spanish Armada. London ; 1856 - 1870.

_ The Spanish story of the Armada. London, 1892.

_ English Seamen in the Sixteenth century. London, 1895.

LEDIARD, T. The Naval History of England. London, 1735.

راهب يهز الدنيا - مارتن لوثر

BERGER, A.E. Martin Luther in Kulturgeschichtlicher Darstellung; 2 vols. Berlin, 1895.

ENDERS, L. Dr. Martin Luther Briefwechsel, 5 vols. Frankfurt und Stuttgart, 1884 - 93 .

KOLDE, TH. Martin Luther, eine Biographie. Gotha, 1884 - 93.

KOSTLIN, J. Martin Luther, sein Leben und seine Schriften; 2 Bande, 1875.

LANG, H. Martin Luther, ein religiöses Charakterbild. Berlin, 1890.

LINDSAY, T.M. Luther and the Germar Reformation. Edinbnrgh, 1900 .

أوليفر كرومويل

BALDOCK, T.S. Cromwell as a Soldier. London, 1899.

COOCH, C.P. History of English democratic ideas in the 17 th. Century. Cambridge, 1898 .

GARDINER, S.R. History of the Great Civil War, 1642 - 9; 4 vols. London, 1886.

_ Oliver Cromwell. London, 1899.

HARRISON, F. Oliver Cromwell.. London, 1898.

MORELY, J. Oliver Cromwell. london, 1900.

SANFORD, J.L. Studies and illustrations of the Great Rebellion. London, 1858.

WAYLEN, J. The House of Cromwell. London, 1880.

قصة وزير - هاينريخ فريدريك كارل شتاين

ROLOFF, G. Politik und Kriegsfuhrung wahrend des Feldzugs von 1814. Berlin, 1891.

SCHULZE, HERMANN, Der Freiherr van Stein und seine Bedeutung fur Deutschlands Wiedergeburt. Jena, 1850.

STEIN, FREIHERR VON, Ein Schreiben des Freiherr von Stein zur deutschen Frage. وهو بحث نشره P. BAILLEN في المجلة الألمانية التاريخية (Hist. Zeitschr.) العدد ٨٦٢ رقم ٤٦.

STERN, A, Heinrich Friederich Karl Stein in Allgemeine Deutsche Biographie. Leipzig, 1878 - 97.

على تلال فالمى

BOGISLANSKI, A.V. Das Leben des Generals Kumouriez. Berlin, 1869.

CHASSIN, C.L. L'Armée de la Révolution. La paix et la guerre. Paris, 1876.

CHAQUET, A, Les guerres de la Révolution . Paris, 1886 وما بعدها

FOUCART, P. et FINOT, J. La Detense Nationale dans le Nord, 1792 - 1802; 2 vols. Lilles 1890 - 3.

GUILLEN, E. Les généraux de la République. Paris, 1895.

JOMINI, Baron A.H. de Histoire critique et militaire des Campagnes de la Révolution de 1792 a 1801 ; 5 vols avec atlas. Paris, 1820 - 4.

فى سماء الأنغام : لودفيج فان بيتهوفن

BEETHOVEN, L. VAN. Sämtliche Briefe. 2. Auflage bearbeitet von.

BEETHOVEN JAHRBUCH نشره TH. von FRIMMEL. 2 Bande. Munchen - Leipzig 1908 - 09.

HERRIOT, EDOUARD. La vie de Beethoven. Paris, 1930.

LEITZMANN, ALBERT, Beethovens Persönlichkeit, Urleile der Zeitgenossen. 2 Bände. Leipzig, 1921.

NEUES BEETHOVEN JAHRBUCH نشره A. SANDBERGER

ظهر منه تسعة مجلدت إلى سنة ١٩٣٩

ROLLAND, ROMAIN. Beethoven. Les grandes époques créatrices. Paris, 1928.

SCHIEDERMAIR, SUDWIG. Der junge Beethoven .الطبعة الثانية Leipzig, 1940

SCHWEISHEIMER, WALDEMAR, Beethovens Lieden. Ihr Einfluss auf sein Leben und Schaffen, München, 1922.

THEODOR von FRIMMEL 1919 - 1911 المجموعة الكاملة لمراسلات بيتهوفن

THAYER, ALEXANDER WHEELOCK. The Life of Ludwig v. Beethoven; 2 vol. New - York, 1921.

محرر العبيد ـ أبراهام لنكولن

HERNDON, W.H. Life of Abraham Lincoln; 2 vols. London, 1893.

LAMON, W.H. Recollections of Abarham Lincoln. Chicago, 1895.

MORES, J.T. Lincoln (American Statesmen Series), Boston, 1891.

SCHURZ, C. A. Lincoln. An essay. London, 1891.

WILSON, H. History of the Rise and Fall of the Slave Power in America; 3 vols. Boston, 1872.

أوتوفون بسمارك

BISMARCK, FURUST OTTO VON. Gedanken und Erinnerungen; 2 vols. Stuttgart, 1898.

ويليهما مجلدان عن بسمارك والإمبراطور ولهلم الأول وعن خطابات بسمارك ؛ ستوتجارت ١٩٠١ .

BLUM, H. Das deutsche Reich zur zeit Bismarcks. Leipzig, 1893

Furst Bismarck und seine Zeit; 6 Bände. München, 1895.

BUSCH, M. Bismarck. some secret pages of his History; 3 vols. London, 1898.

Cook, E. Lite of Florence Nightingale; 2 vols. 1913.

HAHN, L. Furst Bismarck. Sein Leben und Wirken; 5 Bande. Berlin, 1878 - 91.

MATTER, P. Bismarck et son temps. Paris, 1809.

الملاك فى صورة إنسان ـ فلورانس نيتنجيل

NUTTING, M.A. and L.L. Dock. History of Nursing. New - York, 1907.

POSCHINGER, H. VON. Furst Bismarck und die Parlamentarier. Breslau, 1894 - 5.

STRACHEY, LYTTON, Eminent Victorians. 1918.

مجد على التل الكبير ـ الاميرالاى محمد عبيد

أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ، القاهرة ١٩٢٥ .

« : صفحات أخرى غير مطبوعة من مذكراته .

محمود الخفيف : أحمد عرابى ، القاهرة ١٩٤٧ .

BLUNT, W. Secret history of the British occupation of Egypt.

CROMER. Modern Egypt الجزء الأول

GRUNAU, W. VON. Die Staats und Völkerrechtliche Stellung Aegyptens.

MILNER, A. England in Egypt.

VAN BEMMELEN. L'Egypte et L'Europe.

جواب البحار - روالد أموندسن ١٨٧٢ - ١٩٢٨م

AMUNDSEN, R. My life as an Explorer. 1927 .

PARIRIDGE, B. Amundsen. 1929.